فقه الهجرة

"دراسة تأصيلية ضد العلمانية والإسلاموفوبيا"

د . مصطفى عطية جمعة

فقـــه الهـــجـــرة

- اسم العمل: فقه الهجرة.
- اسم الكاتب: د.مصطفى عطية جمعة.
- إخراج داخلي: محمود ربيع.
- مراجعة لغوية:
- رقم الإيداع: 2024/28322
- الترقيم الدولي: 978-977-8868-15-9

(جمع الحقوق محفوظة للناشر، وأي انتهاك سيعرض صاحبه للمساءلة القانونية

هذه النسخة مخصصة للقراءة فقط، ولا يجوز إعادة طبعها أو نسخها أو نشرها

إلا بعد الحصول على إذن كتابي من الناشر)

متون المثقف
للنشر والتوزيع

خالد عدلي

00201002688188

info.mothakf@gmail.com

9 789778 737882

فقـــه الهـــجـــرة

دراسة تأصيلية ضد طروحات العَلمانية والإسلاموفوبيا

د. مصطفى عطية جمعة

مقدمة

يهدف هذا الكتاب إلى البحث في نهج غير تقليدي في البحث والتأليف، وذلك في قضية ذات جذور ضاربة في الثقافة العربية الإسلامية، تعتمد على حدث أساسي في السيرة النبوية العطرة، ألا وهو «الهجرة»، التي لا يمكن أن تكون لفظا مجردا، أو مجرد واقعة في السيرة، إنما لها امتداداتها وفروعها المتعددة في اللغة والثقافة العربية، بجانب دلالاتها في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة التي شملت الروح والجسد، الزمان والمكان، العقيدة والفقه والأصول، مما يجعل الهجرة تتجاوز اللفظ لتصبح مفاهيم، وتحتوي المفاهيم لتكون أحداثا ومواقف، وتشمل الأحداث لتكون أفكارا، يكون لها تداعيات راسخة في نفوس المسلمين في سنوات البعثة والنصرة والتمكين، وأيضا على امتداد التاريخ الإسلامي، في مسيرته الحضارية والثقافية.

ومن هنا، يتأتى الجديد في هذا الكتاب، لأنه لا يناقش الهجرة بوصفها لفظا أو مفهوما أو حدثا أو مآلات، وإنما يناقش كل هذا ضمن منهجية مقترحة، تستفيد من المناهج الحديثة في العلوم الإنسانية، وهي منهجية السيمياء (علم العلامات)، التي تنظر إلى اللفظ بوصفه علامة

وأيقونة ومفهوما ودلالات، وتأويلات وفكرا، بالإضافة إلى تجلياته واستخداماته وممارساته في الجذور العربية والثقافة والعلوم الإسلامية، دون إغفال الواقع المعاصر حول قضايا الهجرة. وهذا لا يعني الاكتفاء بالدلالات، وإنما لابد من الغوص في مختلف التفصيلات المرتبطة بالمفهوم أو الحدث أو الفكر. وهذا يستدعي منهجيات أخرى، مثل منهجية تحليل الخطاب Analysis of Discourse لمزيد من فهم النصوص والأقوال، وأيضا المنهج التاريخي من أجل تعميق فهم الحدث والشخصيات المرتبطة به، مع المنهج الاجتماعي الثقافي (السوسيوثقافي) الذي يحلل الموقف أو الظاهرة أو الفكرة في ضوء سياقاتها الاجتماعية والثقافية، خاصة أن الإسلام أنتج مفاهيم وأحداثا وظروفا ومعطيات جديدة، تجعل من منهجية المقارنة حتمية الحضور، خاصة في بيئة الجزيرة العربية، التي عاش فيها الوثنيون، والمشركون، وأيضا أهل الكتاب من النصارى واليهود.

كما تحضر هذه المناهج في قراءتنا للهجرة في واقعنا المعاصر، على مستوى قضايا التعصب العرقي والثقافي، والزخم الديني والاجتماعي الذي أحدثته حركات المهاجرين عامة، والمسلمين بشكل خاص في مهاجرهم بالمجتمعات الغربية؛ أوروبا وأمريكا واستراليا وغيرها.

فهذا الكتاب يرنو بعينين، عين نحو إلى التراث العربي الإسلامي تهدف إلى التأصيل والتعمّق والبحث في الجذور، وعين ترنو إلى الواقع المعاصر، الذي صارت فيه الهجرة قضية مثيرة، لأنها لم تعد مقتصرة

على مجرد رحيل فئات وجماعات بشرية من مكان أو دولة إلى أخرى، وإنما باتت لها أبعادها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، لها مسبباتها وتداعياتها السياسية، وتشابكاتها الفكرية.

فحريٌ بنا نحن -المسلمين- أن لا نكون في حالة من الاستلاب النفسي والثقافي والحضاري، تجعلنا مجرد صدى لما تقوله الأمم المتقدمة التي سبقتنا حضاريا وتقنيا، وأصبحنا مستهلكين لمنتجاتها، فلا يمكن أن نكون مستوردين ومستهلكين للثقافة والفكر أيضا؛ ونحن لدينا هوية حضارية وثقافية كبرى، تستند إلى الإسلام الدين والرسالة والعقيدة والثقافة والعلوم والتاريخ، وإلى العروبة بثراء قاموسها اللغوي، وكيف أنها كانت لغة العلوم الأساسية في الحضارة الإسلامية.

فكل حضارة لها شأن، لابد أن تعكس قيما فريدة، وجهدا لتحقيق هذه القيم، وتمتلك صورة إيجابية عالمية قابلة للانتشار؛ شريطة أن يكون لها بعدها الإنساني الراقي، كما أن هذه الثقافة تكون قادرة على تقديم نماذج ثقافية من حيث إنها منظومات أقوال وأفعال، على أن يقوم أبناء الثقافة من خلال تبنيهم لقيمها، بنشر هذه النماذج، والترويج لها[1]، في عالمنا اليوم، الذي يحترم الثقافة التي تعلي من شأن كل ما هو خلُقي وخيري وإنساني.

فلا شك أن هناك عبئا كبيرا يقع علينا -نحن المسلمين- في

(١) موقف الفلسفة تجاه تنوع الثقافات، رتشارد ماك كيون، في كتاب: أصالة الثقافات ودورها في التفاهم الدولي، (مطبوعات اليونسكو) مجموعة كتّاب، ترجمة: حافظ الجمالي، دار الفكر، العربي، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٢٠.

التعريف بهويتنا الثقافية والحضارية، النابعة من تراثنا العظيم، بعيدا عن الخطابات المتقوقعة والمنغلقة وعسيرة الفهم، على أن يكون الخطاب مفعما بفكر أصيل، يقدم الإسلام بوصفه دينا للإنسانية جمعاء، ويعرض اجتهادات فقهائنا وعلمائنا بوصفها مساهمة في مسيرة الحضارات الإنسانية وإبداعاتها وعلومها.

نقول ذلك، لأن هناك من يخاطب الغرب والعالم من العلمانيين العرب أو المستشرقين، الذي يتطوعون لتقديم صورة عن الإسلام وثقافته وعلومه وتاريخه وفقا لقناعات الغرب وموروثه العدائي ضدنا، ويسعون في ذلك إلى استخدام رؤى تلوي أعناق النصوص دون تمحيص، وتنتزع تأويلات وأفكار لا أساس لها، ثم يتغنون بشعارات التقدم والعصرنة.

فإذا كان مفكرو العالم يتناولون الهجرة بوصفها جدلا سياسيا، وآثارا ثقافية، وانعكاسات اقتصادية واجتماعية، فإننا يمكن أن نساهم في هذا الطرح، بتبيان موقفنا الثقافي والحضاري من هذه القضية، ونوضح لهم أنها في لغتنا وقرآننا وتراثنا وسيرة نبينا ليست حركة انتقال مادي لجماعات بشرية من مكان إلى آخر، وإنما تحمل الكثير من الدلالات والتأويلات والمعطيات الدينية والثقافية والحركية والنفسية؛ مما يستلزم منا أن يكون لدينا تعميق وترسيخ للهجرة في ثقافتنا الموروثة، كي نستطيع أن نقدم رؤية لواقعنا المعيش والمعاصر، بما يضيف إليها إنسانيا وحضاريا.

في ضوء ذلك، تأتي خطة هذا الكتاب، هادفة إلى دراسة الهجرة بمنهجية تمتاح من المنهجيات الحديثة، وتستفيد منها، مثلما استفاد أجدادنا من الحضارات والثقافات الأخرى، وقد سعينا إلى الاستفادة من السيمياء في تفسيراتها ودلالاتها الثقافية، كي ندرس الهجرة بوصفها علامة لغوية، ثقافية، قرآنية، نبوية، سيرية، تاريخية، فقهية، عقدية، وأيضا معاصرة. أي دراسة أفقية وهي تبحر في علوم ومجالات فكرية وإنسانية عديدة، وهي أيضا دراسة رأسية، تجعل الهجرة علامة بارزة، وهي تتخطى الزمان والمكان، وتقرأ بها حركة الإنسان في فضاء الأمكنة، وفي تبدلاته المعيشية والفكرية والنفسية في تقلبات الأزمنة، فالإنسان هو الواعي للزمان والمكان، وهو الحاوي لكل فكر وبرهان، مثلما تبدو في نفسيته الفردية والجماعية، وتغيراته الفكرية.

أما فصول الكتاب الأربعة، فجاءت متدرجة، تتتبع الهجرة من اللغة إلى الثقافة، كما هو في الفصل الأول، الذي يبحث في الجذر اللغوي للهجرة في البيئة العربية الجاهلية، ودلالاتها، قبل أن ننتقل إلى البحث في الدلالات القرآنية للفظة، والمفاهيم التي طرأت عليها، سواء على صعيد علاقتها بالمعاني الأصلية المستخدمة في الجاهلية أو فيما أحدثه وأضافته عليها آيات القرآن الكريم، وبعضها يتعلق بجانب عقدي، وآخر روحاني، وثالث خلقي، ورابع يتصل بهجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمسلمين المكيين معه، وغيرهم من القبائل الأخرى، لتكوين مجتمع مسلم في المدينة المنورة، لتتخذ الهجرة

دلالة الانتقال المكاني من دار الشرك إلى دار الإسلام. وفي الفصل الثاني، نغوص بالشرح والتفصيل للحدث المركزي في السيرة النبوية، والمتمثل في هجرة الرسول إلى المدينة المنورة، ونناقش الظروف التي سبقت ولاحقت هذا الحدث، وأيضا المواقف والشخصيات التي تفاعلت فيه. وبعبارة أخرى، نسعى إلى قراءة السيرة من منظور الهجرة، بهدف معرفة آثارها وأبعادها. كما سنناقش مركزية الحدث، في فهم الصحابة، من خلال اتخاذ عمر بن الخطاب الهجرة (رضي الله عنه) أساسا للتقويم الخاص بالحضارة الإسلامية، الذي لا يزال معتمدا إلى يومنا، كما أشرنا إلى البعد الفقهي والعقدي للهجرة في علمي الفقه والأصول، وبعض طروحات العلماء حوله.

وناقش الفصل الثالث الهجرة في السنة النبوية المطهرة، على مستوى أحاديث وحوارات ومناقشات الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع صحابته الأبرار، ومع بسطاء المسلمين والمهتدين الجدد، ومدى التغير الدلالي لها في أحاديث ومواقف متعددة.

وجاء الفصل الرابع والأخير، لمناقشة الهجرة في عصرنا الحاضر، من خلال قراءة المستشرقين والعلمانيين لها في كتبهم، والرؤى والمنطلقات التي غلّفوا بها قراءتهم، ثم مناقشة قضية الهجرة وما يرتبط بها من مشكلات ثقافية وظاهرة الإسلاموفوبيا في المجتمع الغربي، ودورها في نمو الإسلام وانتشاره في الغرب خاصة، والعالم بشكل عام.

آمل من الله أن يكون هذا الكتاب إضافة معرفية في فهم الهجرة،

ضمن منهجية ترتكز على ثقافتنا وهويتنا الحضارية، في رؤيتها لأحداث وجدالات في عصرنا.

كما آمل أن تكون سبيلا لنهج جديد، لقراءة موضوعات وقضايا من تراثنا بشكل شمولي، وبمنهجيات حديثة، بعيدا عن الطرائق التقليدية، التي تكتفي بزمان أو مكان أو سياق أو توجه بعينه. ذلك لأن كلما اتسعت جوانب القراءة المعرفية، تعمق فهمنا للظاهرة، وأيضا لما يرتبط بها من ظواهر ومسببات ونتائج. وما بين هذا وذاك، هناك وشائج، تعيننا في فهم تراثنا بشكل مختلف، وضمن منهجيات جديدة، تتيحها العلوم الإنسانية الحديثة، مما يسلط الضوء على الجديد والثريّ في تراثنا.

والله تعالى - دوما - من وراء القصد، وله - جل شأنه - الثناء والحمد والمنة.

الفصل الأول

الهجرة (الدلالات اللغوية بين
الجاهلية والإسلام)

حول التأصيل الدلالي شعرا وقرآنا:

يمثل هذا الفصل مدخلا محوريا لتأصيل لفظة الهجرة في مصدرين مختلفين: شواهد العصر الجاهلي، والقرآن الكريم، وكلاهما يمثل اتفاقا واختلافا، فالاتفاق في كون القرآن الكريم نزل بلغة العرب، بنفس قاموس المفردات الشائع في البيئة الجاهلية.

لذا، فعندما كان العرب يستمعون القرآن الكريم: بدوا وحضرا، شعراء وحكماء، كانوا يستوعبونه على الفور، ويتملكهم العجب من النظم القرآني، الذي هو ليس بشعر، ولا نثر، وإنما بناء لغوي فذ، متميز، معجز في آياته، جديد في معانيه، يدعو إلى إيمان وتوحيد وهداية وأخلاق وقيم، ويتلوه عليهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بصوت عذب، يأسر النفوس، ويخلب الألباب.

أما الاختلاف بين شواهد الجاهلية والقرآن، فهو اختلاف في الدلالة والسياق، فالألفاظ الجاهلية مرتبطة بالحياة الاجتماعية والبيئية التي كان عليها المجتمع الجاهلي، بكل معطياتها وإفرازاتها الدلالية، أي أن القاموس الجاهلي يعكس ثقافة مجتمع: العصبية أساسه، والبلاغة عنوانه، والصراع في عنفوانه، على الماء والمرعى، وعلى النفوذ والتحالفات. أما القرآن الكريم فقد جاء بمنظومة مختلفة كل الاختلاف: روحيا، وفكريا، وثقافيا، واجتماعيا، جعلت من هذه

القبائل لبنات في الدولة المسلمة، وجنودا في جيوش الفاتحين، يحملون معهم بلاغتهم المستقاة من بيئة تتغنى بالفصاحة، وتحفظ آيات القرآن، تقرأها آناء الليل وأطراف النهار.

إن الثقافة الجاهلية هي المصدر الأول في أي تحليل لاصطلاح لغوي وذلك في مظانها الجاهلية، شعرا ونثرا وسردا، وهي نقطة أساسية في بحث يتخذ من المنهج السيميائي في تقاطعاته الثقافية والحضارية نهجا له. فلكي نتعرف على التطور الدلالي والمعرفي والثقافي الذي لحق بأي لفظة، لابد من الوقوف على الجذر الأساسي له، كيف نبت، وفيما تفرع. والثقافة العربية الإسلامية، دوما تتخذ من الشعر الجاهلي والنصوص النثرية مثل الأمثال والحكمة مصدرا لفهم المعاني الأولى للفظ، قبل النظر إلى التغيرات التي لحقت به. ومن ثم نعرض إلى سياقات اللفظ في الآيات القرآنية، متخذين من منهجية المقارنة سبيلا، فقد تعددت معانيه وتنوعت في آيات مختلفة، ومواضع متعددة. فيمكن القول إن هذا الفصل يقدم الهجرة في مرآتي ثقافة العرب الأصلية، ألا وهما: الشعر وشواهد العرب، والقرآن الكريم.

المبحث الأول

الهجرة (الجذور اللغوية في العربية والجاهلية)

الهجرة تأصيل الجذر والدلالة:

يمثل لفظ «الهجرة» المحور الأساسي الذي يبنى عليه البحث في هذا الفصل، والفصول التالية، حيث نستهدف التنقيب في جذور اللفظ، وتتبع استخداماته، بدءا بما درج عليه العرب في البادية الجاهلية، بوصفها منبع العربية الأول، وحصنها الأساسي، وفيها تنزل القرآن الكريم، وعايش أهلها بزوغ الإسلام وانتشاره، والثورة الروحية والفكرية الهائلة التي أحدثها في النفوس، وما استتبعها من تغير في دلالات الكثير من الألفاظ والتعبيرات. فمنهجيتنا سبيلها تتبع دلالات لفظة الهجرة، وإشعاعاتها في مواضعها المختلفة في أزمنة عدة؛ تشمل الزمن الجاهلي، ثم عصر الرسالة. أي أنها تقرأ في حقب زمنية متتالية، فاللفظ ثابت، والتوظيف متعدد، والدلالة متغيرة. وفي هذا الصدد، لابد من النظر إلى المواضع التي ورد فيها اللفظ، شعرا كانت أو نثرا، قرآنا أو سنة، سيرة أو تاريخا، وفي كل موضع سنجد دلالة مضافة، لها علاقة ظاهرة بالدلالة الأصلية الأولى، مثلما أن لها علاقة بالمعطى الدلالي الجديد. وسنقتصر هنا على الاستخدام في العصر الجاهلي ثم القرآن الكريم، على أن نواصل بحثنا في بقية مظان اللفظة ودلالاتها في الفصول التالية.

وإذا عدنا إلى مفهوم حفريات المعرفة، في انفتاحه على البعد اللغوي للمعرفة، سنجد أنه يؤكد على أنه لن يتم فهم الدلالة اللغوية، إلا من خلال استخدامها في الحياة أو الإبداع،» فاللغة لا توجد إلا من حيث منظومة لبناء عبارات ممكنة»[1]، فلا يمكن أن نكتفي بما يفيده اللفظ مفردا، وإلا حكمنا عليه بأحادية الدلالة، وإنما يقرأ في ضوء مناسباته القولية والمجتمعية، في بيئة مثل البيئة البدوية العربية، حيث كان البسطاء والنخبة يتغنون بالشعر على ألسنتهم، ويحفظون معه الحكمة، ويتنقلون في باديتهم الفقيرة، بحثا عن الماء والكلأ، وسلوتهم في هذا ما يقصونه من أيام وأخبار، وما يسترجعونه من أشعار، لذا، لا يمكن فهم ألفاظ العربية والتنقيب في معانيها، إلا بدراسة الوسط الذي عاشت فيه، لأن « اللغة معطى اجتماعي، ويمكن القول إن خلقة اللغة تظل معطلة ما لم توجد الظروف الاجتماعية لتفعيلها»[2]، أي أن إشعاعات اللفظ ودلالاته لا تفهم إلا في استخداماته، وهو ما درجت عليه المعاجم الأمهات في العربية، بتقصي اللفظ في مواضعه، وأشعاره، ومقولاته، وسردياته. فليست اللغة مجرد حروف وألفاظ تنطق للتواصل بين أبناء المجتمع الواحد، وإنما هي مخزون من الثقافة والمعارف التي تتميز بها جماعة بشرية عن أخرى.

وهي في الوقت ذاته، قضية هوية، وتماسك مجتمعي، بمعنى أن

---

(١) حفريات المعرفة، ص٨٠.

(٢) مفهوم اللغة ومفهوم الهوية ومظاهر التفاعل، محمد نافع العشيري، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، إبريل ٢٠١٥م، ص٢٤٠.

اللغة تعبر عن توجهات الجماعة البشرية، وهي سبيل للوحدة بين أبنائها، وجوهر الهوية الجمعية لأي تجمع بشري هو الهوية التي تشكله وتصنع ذاته الجماعية، مثلما تصنع ذوات أفراده، بل إن اللغة هي الرابطة التاريخية بين الأجيال في الثقافة الواحدة، مما يجعل وحدة هذه الأجيال حقيقة ملموسة، على مر العصور، لأن اللغة وعاء التجارب الشخصية والعادات والتقاليد والعقيدة، فاللسان وما ينطقه ليس آلة، وإنما حلقة ربط بين أزمنة الأمة، فيما يسمى الوصل التزامني(١)، وفي حالة العرب، فإن اللغة العربية هي حلقة وصل مكانية، بجانب أنها لغة القرآن والعبادات والعلوم.

وكما سنرى بعدئذ فإن لفظ الهجرة في جذره ومعناه العربي، يلتقي مع المعنى اللغوي الإنساني الشائع عالميا، فالهجرة **Immigration/ Migration** تعني الانتقال الفردي أو العائلي من بلد إلى بلد آخر بغرض الإقامة أو العمل، وقد يعودون ثانية(٢)، ولكن في تعريف آخر، فإنها تعني الانتقال من الوطن إلى بلد جديد، مثل هجرة الطيور، التي لا تعرف حدودا، ولكن مع البشر فلابد لهم أن يتخطوا حدودا، إما بشكل رسمي الذي يعني اتخاذا الإجراءات الدبلوماسية والقانونية المشروعة، أو من خلال الهجرة غير الشرعية، وفي جميع الأحوال لها تأثيرها الديموغرافي/ السكاني الواسع(٣). فالهجرة وإن اختلفت زمنيا في

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣٩.

(٢) https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/migration

(3) https://www.diffen.com/difference/Immigration_vs_Migration

القديم عن الحديث، ولكن جوهرها واحد، وهو التغرب عن الوطن والقوم والجماعة، والعيش في أرض جديدة، مع بشر جدد.

وعندما ندرس الهجرة لفظا واصطلاحا ومفاهيم، في ضوء الثقافة العربية والإسلامية، فإننا لا نكتفي بالحصر والرصد والوصف، وإنما نغوص في تراثنا وعيننا على حاضرنا، كي نقارن ما كان لدى أسلافنا في أمتنا وما نراه الآن مفاهيم وقيم وسلوكيات.

الهجرة في بادية العرب:

إذا أردنا قراءة مصطلح الهجرة في ضوء التراث اللغوي العربي، سنجد تلاقيا بين دلالته في الموروث اللغوي العربي من العصر الجاهلي، ثم الإضافات التي لحقت به مع ظهور الإسلام، وتحور دلالات الألفاظ والتعبيرات بشكل كبير، وهناك من الألفاظ ما تغيرت دلالته، ومنها ما حافظ على جذوره الأولى، مثلما لفظ الهجرة، على الرغم مما لحقه من تغيرات وتحورات في دلالته، سواء في الاستخدام التواصلي بين أبناء المجتمع العربي في الجاهلية ثم الإسلام، أو فيما اكتسبه من القرآن والسنة والشعر.

تدور دلالة الهجرة في جذرها اللغوي « هجر » على أنها ضد الوصل، ومنها هجره هجرانا أي صرمه(قطعه)، والهجرة هي الخروج من أرض إلى أرض[1]، أي التباعد والتنائي، وهجره: تركه وأعرض عنه، وهاجر: ترك وطنه، ومن يهجر زوجته: بمعنى اعتزل عنها،

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د ت، مادة هجر، ص٤٦١٦.

وتهاجر القوم: تقاطعوا، والمَهاجرة: هي الهجرة، والمهجر: هو المكان الذي يهاجر إليه أو منه[1]. فخلاصة الدلالة أن الهجرة تعني القطع، والتباعد، والرحيل والترك، ومن هذا المعنى تتفرع معان أخرى، حسب السياقات التي وردت فيها، ولكنها في جميع الأحوال، تنهل من الدلالة الأولى، ومن المهم أن نعرض بالنقاش لرحلة اللفظ في الثقافة العربية الأولى في الجاهلية وبادية العرب.

ففي الاستخدام الجاهلي، ينصرف لفظ الهجرة إلى معنى الانتقال من مكان إلى آخر، وتكون المفارقة- كما يقول الأزهري- بأن أصل المهاجرة عند العرب، خروج البدوي من باديته إلى المدن أو القرى، فيقال هاجر الرجل إذا فعل ذلك، وكذلك كل مخل بسكنه، منتقل إلى قوم آخرين بسكناه، فقد هاجر قومه، فكل من فارق باديته أو سكنه إلى محل آخر، يقال له مهاجر[2]. فدلالة الهجرة الأساسية هي الخروج من البادية التي نشأ فيها الشخص، وانتقل للعيش إلى مكان آخر، فهي ترتبط بمفهوم الوطن، الذي يعني المكان الذي ولد وتربى وعاش فيه الإنسان. وإذا كان أهل الجاهلية يربطون ما بين البادية وبين الهجرة، فإنهم لا يقصدون البادية في عمومها، وإنما المقصد على موطن الإقامة في أرض بعينها في البادية، تكون فيها مضارب القبيلة، فإذا انتقل من بادية إلى أخرى فهو مهاجر أيضا.

---

(١) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، مادة هجر، ص٩٧٢، ٩٧٣.

(٢) لسان العرب، ص٤٦١٧. وانظر أيضا: القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥م، ص٤٩٥.

ذلك، أن الجزيرة العربية على اتساعها لم تكن وطنا لكل القبائل التي تعيش فيها، وإنما القبيلة هي الوطن بكل ما تشكله من رابطة دم ولحمة اجتماعية لأفرادها، وقد كانت القبيلة دائمة التنقل، في مواضع وأمكنة قد تتسع أو تضيق، ولكنها تشكل نطاق القبيلة التي تتحرك فيه، حيث مراعيها ومياهها. وبعبارة أخرى: فإذا انتقل فرد منها إلى قبيلة أو مدينة بعيدا عن قبيلته وعصبيته، فهو يحمل صفة المهاجر[1]. ذلك أن ولاء الشخص في الجاهلية كان إلى قبيلته في المقام الأول، ومن ثم يكون متمسكا ومدافعا عن مضاربها وأبنائها، فالقبيلة بالنسبة إليه هوية وانتماء وحماية، فالنظام الاجتماعي الجاهلي أساسه القبيلة، التي قد تتحالف أو تتصارع مع قبائل أخرى، وعلى جميع أفرادها الانصياع لها[2]. وإذا تعرض شخص للطرد من القبيلة وأبت حمايته، فإنه لا يجد أمامه إلا أن يلوذ بقبيلة أخرى، فوطنية البدوي قبلية وليست شعبية[3]، لأن الذات الفردية تستمد وجودها من القبيلة، فإن تعذر عليها تستجير بغيرها[4].

وإذا حاجج البعض بأن الطبيعة البدوية كانت سمتها التنقل، وأن هذا التنقل يعني الهجرة، أي أن كل القبائل كانت في حالة هجرة. فإننا نجيب أن هذا كان واقعا وقائما، ولكن شتان بين تنقل القبيلة في

---

(١) فجر الإسلام: بحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١٠، ١٩٦٩م، ص٦.

(٢) المرجع السابق، ص٥

(٣) المرجع السابق، ص١٠.

(٤) العرب في العصر الجاهلي، د. ديزيره سقال، دار الصداقة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص٨٠.

حركة جماعية واحدة، وبين هجرة فرد أو أفراد منها، تاركين جماعتهم، لدوافع وأسباب تخصهم وحدهم.

فسمة البدو التنقل، وهو ما يجعلهم مختلفين عن الحضر، الذين يميلون إلى الاستقرار، وبناء البيوت وتكوين المدن والقرى، والعمل في الفلاحة والحرف[1]. ذلك

لأنهم كانوا يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة والملاحة، ويعيشون على ما تنتجه ماشيتهم، يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويلبسون صوفها، ويتخذون منها مساكنهم، وإذا اشتد بهم الضيق، أكلوا اليربوع والضب، وإذا احتاجوا إلى غير ما تنتجه ماشيتهم، تعاملوا عن طريق البدل، باستبدال ماشيتهم ومنتجاتها بما يحتاجون إليه من لباس أو تمور. فهم في ذلك يتنقلون للمبادلة أو الرعي، وقد يتنقلون للإغارة والسلب على القبائل الأخرى، فيسبون نساءهم وأولادهم، ويسطون على جمالهم، وعلى القبيلة المهزومة أن تسعى للانتقام، فالأيام دول بين القبائل[2].

وسنرصد من خلال المرويات الشعرية والعبارات النثرية، أن الكلمة كانت مرتبطة في الأساس اللغوي بمفهوم الانتقال من البادية إلى القرية أو المدينة، وهي دلالة انتقال/ تحرك مادي وجسدي، وكما ذكر صاحب المحكم والمحيط الأعظم، بأن الهِجر هو المهاجرة إلى القرى، وذلك عن ثعلب، وقد أنشد ابن الأعرابي:

---

(١) المرجع السابق، ص٨١.

(٢) فجر الإسلام، ص٩.

شمطاء جاءت من بلاد الحرِّ

قد تركتْ حيزِ وقالت حــــرِّ

ثم أمالت جانــب الخـــــمرِّ

عمدا على جانبها الأيســـرِّ

تحســـــب أنّا قَرُب الهـــــجرّ(١)

والأبيــات تشــير إلى عجــوز قــد وفــدت مــن أرض حــرة، أي ذات حجـارة نخـرة سـود، وكأنهـا أحرقـت بالنـار، وقيـل إنهـا الأرض الصلبـة الغليظـة التـي ألبسـتها حجـارة سـود نخـرة، كأنهـا مُطِـرت(٢)، فالهجـر هـو التباعـد والنـأي بالجسـد عـن المـكان.

وإذا أعدنـا قـراءة المجتمـع الجاهـلي البـدوي، في ضـوء مفهـوم الهجـرة عامـة، سـنجد أن التنقـل هـي سـمته الأساسـية، فالعـربي البـدوي لم يكـن يعـرف للاسـتقرار طعـما، وإنـما أَلِـفَ التنقـل، وأبقـى ذكـراه في الأمكنـة، ونقـش عـلى الأحجـار خواطـره، فـلا معنـى إذن للهجـرة إذا كانـت تعنـي التنقـل، لأنـه في حالـة حركـة دائمـة، وإنـما الهجـرة بالنسـبة إليـه هـي غربـة ومنفـى وبعـدٌ عـن القبيلـة وأبنائهـا وخلانهـا وذكرياتهـا، والعيـش في مـكان جديـد. والغريـب في الأمـر، أن الهجـرة -في بعـض دلالاتهـا- ارتبطـت بالرحيـل إلى القـرى أو المـدن، ولا تعنـي اللجـوء إلى قبيلـة أخـرى، وكأن

(١) المحكـم والمحيـط الأعظـم، أبـو الحسـن عـلي بـن إسـماعيل بـن سـيده المـرسي، المعـروف بابـن سـيده، تحقيـق: د. عبـد الحميـد هنـداوي، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، د ت، ج٤، ص٢٥٦.

(٢) تـاج العـروس مـن جواهـر القامـوس، السـيد محمـد مرتـضى بـن حسـن الزبيـدي، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، د ت، ج٩، ص٣٠٠.

البدوي العربي لا يرى الهجرة الحقيقية إلا بترك البادية وحياتها والمتنقلة، إلى القرية وحياتها الثابتة.

وربما كانت قيمة الحرية هي الأساس في حياة العرب في الجاهلية، وهي تعني عدم الخضوع لأي سلطان، وإنما لكل عشيرة أو قبيلة حريتها التامة، ولا طاعة عليها لأحد، وإن كان يمكننا أن نجد تحالفات واتفاقات بين القبائل، ولكنها لا تعني الخضوع الكامل أو هيمنة قبيلة على أخرى، وهذا انعكس أيضا على الأفراد، فكان لكل فرد حريته الخاصة التي يتمتع بها، مع شعوره بحقوق الجماعة أو القبيلة. والمفارقة أن هذا النظام كان سائدا في القرى والمدن، مثل مكة ويثرب والطائف، فعاشت حياة القرية والاستقرار بروح القبيلة في البادية(١)، تلك التي تصنع هوية الفرد، فكيانه ووجوده وشرعيته وسمعته، وأمنه نفسه، لا يمكن ضمانه إلا من خلال القبيلة. وفي حالة وجوده خارج حدودها وحمايتها، فإنه يُعدّ آبقا، فحياته وما يملك ستصبح نهبا مشاعا لمن غلب. أما بوصفه فردا في القبيلة فإن قوة القبيلة طوع يديه، فأي اعتداء على شخصه اعتداء على القبيلة كلها. وأي فخر يأتي للقبيلة فهو فخر لكل أبنائها، والعكس صحيح؛ فما يصيب القبيلة من بؤس وعار، يصيب الفرد كذلك، وفي جميع الاحوال تضاءلت قيمة الأرض لم يكن لها مكان في الولاء(٢).

وإذا ربطنا بين نمط الحياة الجاهلية بمجتمعها القبلي، وبين مفهوم

(١) العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢٢، د ت، ص٥٢.
(٢) أطلس الحضارة الإسلامية، ص١١٩.

الهجـرة بدلالاتـه الفردية، فـإن الهجـرة كانت تعبر عـن حرية الفـرد في اختيار المكان الـذي يعيـش فيـه، سـواء كان قبيلـة أو قريـة، شريطـة أن يجـد الحمايـة والعـون، فنعـم هنـاك حريـة، ولكنها حريـة في مجتمع لا يمكن لفـرد أن يعيش فيـه حـرا وحيـدا، لأنه مجتمـع لا يعـرف إلا التكتـلات والتحالفـات، فالقبيلة القويـة تغير وتسـلب وتنهب القبيلـة الضعيفة، بـل وتحول أفرادهـا إلى أرقاء، فـما بالنـا بالفـرد الوحيـد الـذي يفتقد حمايـة قبلية!

وقـد تطـورت دلالـة اللفـظ في الوصـف، وإن ظلـت تحافـظ عـلى بعدهـا المـادي، ففـي النعـت للشـجرة، يقـال للنخلـة الطويلـة: ذهبـت الشـجرة هجـرا، أي طـولا وعِظـما، ونخلـة مهجـر ومهجـرة أي طويلـة وعظيمـة، وهـذا (الشـخص)، أهجـر مـن هـذا، أي أطـول منـه وأعظـم[1]،ولا يوجـد اسـتغراب مـن النعـت بالطـول، فهـو يلتقـي مـع الدلالـة الماديـة التـي أشرنا إليهـا، فـإذا هاجـر الإنسـان عـن موطنـه، فهـو يبتعـد وينـأى وتطـول بـه المسـافة عـن قومـه، وجـاء الاسـتخدام في الطـول، كنـوع مـن التباعـد بـين أعـلى الـرأس والقـدم للشـخص، وبـين أعـلى النخلـة وجذرهـا. وكذلـك تعطـي دلالـة الضخامـة فيقـال ناقـة مهجـرة أي أضخـم، وفائقـة في الشـحم والسـير[2]، وهـي تلتقـي أيضـا مـع دلالـة الطـول، لأن الضخامـة تعنـي اسـتطالة في الجسـد، أي تباعـدا بـين أعضـاء الجسـد.

وتسـتمر الدلالـة الماديـة في المـوروث مـن كلام العـرب، فلفظـة مُهجِـرٌ، ننعـت بهـا كل شيء جـاوز حـده في التـمام، فالناقـة مهجـرة إذا وُصفـت

(١) لسان العرب، ص٤٦١٧.

(٢) القاموس المحيط، ص٤٩٥.

بنجابـة أو حسـن، والمهجـر: الجميـل الحسـن النجيـب يتناعتـه النـاس[1]، أي يسـتخدمونه صفـة للمـدح في كلامهـم، وكأنـه اسـتعار دلالـة البعـد في المـكان، إلى دلالـة البعـد في الحسـن والجـمال والنجابـة.

أمـا لفـظ الهُجْـرُ فهـو القبيـح مـن الـكلام، والإفحـاش في القـول، وإذا أكثـر الـكلام فيـما لا ينبغـي، وهـو أيضـا الهذيـان[2]، وهـي صفـة عـلى النقيـض مـن السـابقة عليهـا، وتشـير إلى البعـد - بمعنـى النـأي والتجـاوز - في الفحـش، أي ينـأى عـن القـول الحسـن.

الهجرة القبلية، سبأ نموذجا:

اكتسـبت الهجـرات في الجاهليـة بعـدا مختلفـا مـع كل مـا اختزنتـه الذاكـرة العربيـة الجمعيـة قبـل الإسـلام عـن شـتات قبائـل اليمـن، بعـد انهيـار سـد مـأرب، وتفـكك دولـة سـبأ. وتتابـع رحيـل القبائـل مـن الجنـوب اليمني إلى شـمال الجزيـرة العربيـة ووسـطها. فعـادت بعـض القبائـل إلى الحيـاة البدويـة متنقلـة في أنحـاء الجزيـرة العربيـة، وبعضهـا ذهـب مرتحـلا شـمالا فأسسـت ممالـك، مثـل إمـارة كنـدة التـي تأسسـت في شـمال نجـد، وكان لهـا أيضـا امتـداد في حضرمـوت. وتوزعـت عشـائر الأزد بـين شـمال اليمـن وعـمان ويثـرب، وكذلـك في شـمال الجزيـرة مـع دولـة الغساسـنة. وهاجـرت تنـوخ إلى البحريـن، ومنهـا إلى جنـوب العـراق، حيـث أسسـت عشـيرة لخـم دولـة المنـاذرة في الحـيرة. وممـن هاجـر مـن الجنـوب اليمنـي أيضـا، قبيلـة خزاعـة

(١) لسان العرب،، ٤٦١٨.

(٢) المرجع السابق، ص٤١٦٨.

واستقرت في مكة وجنوبي الطائف وبجيلة[1]، ويأتي هذا التشتت في أنحاء الجزيرة العربية، مصداقا لقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[2].

فقد شكلت محنة مملكة سبأ نموذجا عكسيا لما ألفه العرب في الجزيرة، لأنها جاءت بعد حضارة زاهرة وثرية وقوية، وهي حضارة سبأ، حيث كان الماء يأتيهم بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم، فعمد ملوكهم الأقدمون، فبنوا بين الجبلين سدا عظيما محكما وهو سد مأرب، حتى ارتفع الماء بين جانبيه، وتوزَّع لسقي الأراضي حوله عبر قنوات معلومة، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، حتى قيل إن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل، وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملأه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف، لكثرته ونضجه واستوائه. بالإضافة إلى أنه لم يكن ببلدهم شيء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث، ولا شيء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم، ليوحدوه ويعبدوه[3]. إلا أنهم جحدوا بنعمة ربهم، وسألوا الله تعالى أن يباعد بين أسفارهم وأن يجعل بلدهم فلوات ومفاوز ليركبوا فيها الرواحل،

(١) العصر الجاهلي، ص٥٦.

(٢) سورة سبأ، الآية(١٩).

(٣) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (تفسير ابن كثير)، دار طيبة للنشر، الرياض، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م، ج٦، ص٦٠٧.

ويتـزودوا بالطعـام، فأجـاب المـولى تعـالى دعوتهـم، وعجّـل لهـم العقوبـة، بعدمـا رأى طغيانهـم وكفرهـم، وأرسـل عليهـم سـيل العـرم، الـذي دمّـر السـد، وحـوّل قراهـم المتصلـة ببعضهـا في الأشـجار والحقـول والحدائـق إلى أحـراش وأدغـال، فجفـت أشـجارها وذوت، فلـم يكـن أمـام أهـل اليمـن إلا التحـول إلى البـداوة، فارتحلـوا في أنحـاء الجزيـرة العربيـة، في ارتحـالات جماعيـة متتابعـة، ومزقهـم الله تعـالى جـزاء عـلى بطرهـم النعمـة، جاعـلا طعامهـم أثـلا وخمطـا وشـيئا مـن سـدر قليـل. فصـاروا أحاديـث تـروى بـين قبائـل العـرب، يضربـون بهـم المثـل في السـب، فيقـال: تفـرق القـوم أيـادي سـبأ، وأيـدي سـبأ إذا تفرقـوا وتقطعـوا[1]. فقـد شـكلت كارثـة قـوم سـبأ ذكـرى عـلى فاجعـة أصابـت قبائـل اليمـن، الذيـن اشـتاقوا لحيـاة البـداوة في رحلاتهـم، وتنـدر العـرب بـها لحـق بيمنهـم السـعيد مـن جفـاف وقحـط، ومـا أصـاب قبائلـه مـن تفـرق وقـد راحـت تـضرب في أنحـاء الجزيـرة العربيـة: جنوبـا وشـمالا، وأضحـى تشرذمهـم علامـة ونموذجـا لـكل ذي بصـيرة، مـن خـلال ارتحـالات جماعيـة قبليـة بحثـا عـن مواطـن للعيـش بعيـدا عـن الفاقـة.

وخلاصـة المعنـى للفظـة الهجـرة في الجاهليـة أنهـا علامـة ودلالـة عـلى: الانتقـال مـن الباديـة إلى القـرى والمـدن، وتوسـعت الدلالـة لتشـمل كل مظاهـر البعـد والتنائـي المـادي، ولامسـت بوصفهـا نعتـا الجسـد الإنسـاني أو الحيـواني، فصـارت علامـة عـلى الضخامـة والنجابـة والحسـن والجـمال،

(١) جامـع البيـان عـن تأويـل آي القـرآن، محمـد بـن جريـر الطبري(تفسـير الطـبري)، دار المعـارف، القاهـرة، دت، ج٢٠، ص٣٨٩، ٣٩٠.

وأيضا دلالة عكسية على الفحش في القول، وكلها تتلاقى مع دلالة البعد، ولكن في ضوء الحياة الاجتماعية والبيئية للمجتمع العربي في الجاهلية، فإن الارتحال والتنقل كان سمة عامة في الجاهلية، أما دلالة الهجرة فارتبطت أكثر بهجرة الفرد أو البعض وليس الكل، فيمكن القول إن القبيلة ارتحلت وتنقلت في البادية بدلالة جماعية، ونقول هاجر فلان أو بعضهم بدلالة فردية.

المبحث الثاني

دلالات الهجرة قرآنيا

تعـددت دلالات الهجـرة في القـرآن الكريـم ففيهـا مـا يلتقـي مـع الدلالـة المتوافـق عليهـا في الجاهليـة، فارتبطـت أكثـر بالانتقـال والارتحـال الفـردي، الـذي يخص أشـخاص بعينهـم، وليس الأمـر عـلى صفـة الجماعـة أو القبيلـة. إلا أن الدلالـة الأساسـية الملاحظـة فيهـا إيجابيـة تتعلـق بتنقيـة النفـس مـن أدران الـشرك، وهجـرة المعـاصي، والهجـرة في الأرض طلبـا للـرزق والأمـان، ورفضـا للعيـش في مجتمـع يكـون المؤمـن مهـددا في عقيدته وأمنـه. أي أن اللفظـة تخلصـت مـن النعـوت الجاهليـة في الوصـف الجسـدي بالحسـن أو القبـح، بالطـول أو بالضخامـة، وارتبطـت بشـعور قلبـي وفعـل سـلوكي، ينحـاز إلى المؤمـن دومـا، ويجعـل الهجـرة فعـلا سـاميا بدلالـة روحيـة أو ماديـة.

وهـو مـا سـنتناوله تفصيـلا، سـاعين إلى الوقـوف عـلى مختلـف الدلالات قرآنيا.

١) دلالة الملاذ إلى الله، والانطلاق في الأرض:

كـما في قولـه تعـالى: ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[1]، فقـد كان نبـي الله لـوط، وهـو ابـن أخـت إبراهيـم عليهـما السـلام، أول مـن آمـن بدعـوة إبراهيـم، الـذي كان أول مـن هاجـر مـن أرض الكفـر إلى أرض الإيـمان، وقيـل إن إبراهيـم ومعـه لـوط، وقـد هاجـرا جميعـا مـن « كوثـى»، وهـي مـن سـواد الكوفـة إلى الشـام. قـال: وذكـر لنـا أن نبـي الله-صـلى الله عليـه وسـلم - كان يقـول: « إنهـا سـتكون

(١) سورة العنكبوت، الآية (٢٦).

هجـرة بعـد هجـرة ينحـاز أهـل الأرض إلى مهاجـر إبراهيـم ويبقـى في الأرض شرار أهلهـا، حتـى تلفظهـم وتقذرهـم، وتحشرهـم النـار مـع القـردة والخنازيـر»[1].

ارتبـط لفـظ الهجـرة بالتوجـه إيمانـا وتسـليما إلى المـولى عـز وجـلّ، كـما في قولـه تعـالى ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾، حيـث تصبـح الدلالـة الأساسـية وهـي الإيـمان بـالله تعـالى، واللجـوء إليـه، وهـو دلالـة الانتقـال المعنـوي، دون أن تغـادر الدلالـة الماديـة في الانتقـال، ففـي التفسـير أعـلاه، آثـر إبراهيـم (عليه السـلام) الهجـرة مـن أرض الكفـر إلى أرض الإيـمان، التـي يجتمـع فيهـا المؤمنـون، بينـما يتركـون أرض الكفـر لتجمـع شرار الخلـق مـن الكفـرة، فيكـون حشرهـم/ جمعهـم في الدنيـا، مقدمـة لحشرهـم يـوم القيامـة في النـار مـع القـردة والخنازيـر، وسـنجد لاحقـا أن الهجـرة في دلالتهـا الماديـة، تعنـي في السـياق القـرآني، الهجـرة مـن أرض الكفـر إلى دار الإيـمان، حمايـة للـذات قلبـا وجسـدا.

وتضـاف دلالـة أخـرى، ونـرى أنهـا متأصلـة بشـكل عـام في المنظـور القـرآني للهجـرة، وهـي أن الأرض كلهـا لله، وعـلى المؤمـن النجـاة بنفسـه، والنـأي عـن أهـل الكفـر والفسـوق، ليجتمـع المؤمنـون كلهـم في أرض واحـدة، ويشـكلون عصبـة فيـما بينهـم، تحـت لـواء واحـد، فيـما يسـمى أرض الإسـلام، تمييـزا لهـا عـن دار الكفـر.

وهـو مـا تفصلـه الآيـة الكريمـة: ﴿وَمَـنْ يُهَاجِـرْ فِي سَـبِيلِ اللهِ يَجِـدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًـا كَثِـيرًا وَسَـعَةً وَمَـنْ يَخْـرُجْ مِـنْ بَيْتِـهِ مُهَاجِـرًا إِلَى اللهِ

(١) تفسير الطبري، ج٢٠، ص٢٦.

وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾[1].

حيث تحوي هذه الآية لبّ دلالة الهجرة قرآنيا، وهي أنها تكون لله، وفي سبيل رضاه، وموجهة لمن آمن وعاش في أرض بها كفر أو شرك أو بدعة، وتعرّض لمظالم؛ خشي فيها الفتنة على نفسه ودينه ومعاشه وأهله وولده. فيمكن القول إنها آية تشمل جماع الغايات من الهجرة. مع ملاحظة أنها تحتوي أيضا على الدلالة المادية، الذي يشمل انتقال المؤمن من أرض إلى أخرى، فرارا بدينه.

نلاحظ كذلك أن دلالة الهجرة تكررت مرتين في الآية، الأولى بالفعل يهاجر وينطلق في الأرض على اتساعها، والثانية باسم الفاعل (مهاجرا)، لمن خرج من بيته، قاصدا مرضاة الله ورسوله، فإذا مات في الطريق، فإن أجره على الله. فالآية في منظور الهجرة تشير إلى مكانين، الأول رحب وهو الأرض، وفيها يرتحل المؤمن كما يشاء والثاني ضيق وهو البيت، ومنه يخرج المؤمن إلى رحابة الإيمان ورضا الله.

وقد ورد في التفسير، أن معنى المهاجَرَة إلى الله تعني: المهاجَرَة إلى الموضع الذي يرضاه الله سبحانه، ولذلك بادر أهل هجرة الحبشة إلى اللحاق بالرسول (صلى الله عليه وسلم) حين بلغهم مهاجره إلى المدينة[2]. فلا يهاجر المسلم إلى أرض لا يأمن فيها الفتنة، ويتعرض إلى

(١) سورة النساء، الآية (١٠٠).

(٢) تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر، الرياض، د ت، ج٥، ص١٨١، ١٨٢.

الاعتداء والظلم.

وتحمل لفظة (المراغم) معاني عدة، فهي اسم مكان من الفعل راغم المشتق من الرغام وهو التراب، والمعنى المقصود إذا ذهب في الأرض فقرا ووصل إلى حد الرغام أي صار حاله أقرب إلى التراب، أو من دلالة (من راغم غيره) إذا غلبه وقهره، ومنها أرغم فلان أي ألصقه بالأرض، أي يغلب فيه قومه باستقلاله عنهم كما أرغموه بإكراهه على الكفر[1]، كما تحمل معنى: المكان المناسب للمعيشة، وهكذا قال السدي: المراغم المبتغى للمعيشة، وفي قول لمالك: المراغم الذهاب في الأرض[2]، ويمكن الجمع بين المعاني السابقة للكلمة؛ فإذا تعرض المؤمن إلى القهر والفقر الشديد؛ فله أن يهاجر في سبيل الله، وسيجد مواطن كثيرة، فيها سعة في الرزق، والأمان، ولا مندوحة له في البقاء في أرض يُفتن فيها في دينه، ولا يجد رزقا له.

وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3]، سنجد أن الإشارة تؤكد على سعة أرض الله، لكل من فر بدينه، خاصة أن الخطاب موجه إلى الذين اتقوا ربهم، وأيضا في قوله تعالى: ﴿يا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ

---

(١) المرجع السابق، ص١٨١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (تفسير القرطبي)، دار الفكر، الرياض، د ت، ج٥، ص٢٩٩.

(٣) سورة الزمر، الآية (١٠).

فَاعْبُدُونِ﴾[1]، فالأرض لله سبحانه وتعالى، وعلى المؤمن أن يخرج بنفسه، فرارا بدينه، فيلتمس مكانا، يعبد الله فيه آمنا.

٢) الدلالة العكسية:

ونقصد بها أن المعنى يأتي بدلالتين متعاكستين دلالة الهجر الجميل، والهجر السلبي، والأخيرة نجدها في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَـٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾[2].

فالخطاب القرآني يتضمن شكوى الرسول (صلى الله عليه وسلم) من ترك قومه للقرآن. وهنا نجد استخدام لفظة (مهجورا) بصيغة اسم المفعول دلالةً على الترك. وهي دلالة لا تنأى كثيرا عن الدلالة الأصلية للكلمة، التي تفيد بالبعد والتنائي مكانيا، وتتفق مع سلوك المشركين، عندما تناءوا ضد القرآن، بالإنكار والجدال والرفض والمحاربة، ولم ينصتوا لما فيه من هدي وإرشاد وحكمة. فالدلالة هنا تتعلق بموقف سلوكي يتمثل في البعد عن القرآن، وبموقف فكري برفض ما فيه من هدي وإرشاد، وموقف نفسي بالإنكار والجحود والمعاداة، فتآلفت الدلالة المادية مع الجسدية والنفسية والفكرية.

ذلك هو المعنى العام للآية الكريمة، ولكن ثمة اختلافات في تفسير اللفظة وتأويلها، فقال بعضهم: كان اتخاذهم ذلك هجرا، قولهم فيه السيئ من القول، وزعمهم أنه سحر، وأنه شعر. وأيضا بمعنى القول السيئ في القرآن غير الحق، كما في قوله تعالى: ﴿ مستكبرين به

(١) سورة العنكبوت، الآية (٥٦).
(٢) سورة الفرقان، الآية (٣٠).

سـامرا تهجـرون﴾، أي مسـتكبرين بالبلـد سـامرا مجالـس تهجـرون. وقيـل إن المشركـين قالـوا في القـرآن غـير الحـق، ألم تـر إلى المريـض إذا هـذي قـال غـير الحـق. وقـال آخـرون: إن معنـى اللفظـة يخـبر عـن المشركـين بأنهـم هجـروا القـرآن وأعرضـوا عنـه ولم يسـمعوا لـه. فهـم لا يريـدون أن يسـمعوه، وإن دعـوا إلى الله قالـوا لا. وقـرأ (وهـم ينهـون عنـه وينأون عنـه) قـال: ينهـون عنـه، ويبعـدون عنـه[1]، وهـو نفـس مـا يذكـره ابـن كثـير بـأن المعنـى المـراد: أن قومـي اتخـذوا هـذا القـرآن الـذي جئـت بـه إليهـم وأمرتني بإبلاغـه وأرسـلتني بـه مهجـورا مـتروكا لم يؤمنـوا بـه، ولا قبلـوه بوجـه مـن الوجـوه، وقيـل: هـو مـن (هجـر) إذا هـذى. والمعنـى: أنهـم اتخـذوه هجـرا وهذيانـا. وقيـل: معنى (مهجـورا) أي مهجـورا فيـه، ثـم حـذف الجـار، وهجرهـم فيـه قولهـم: إنـه سـحر وشـعر وأسـاطير الأولـين[2].

فقـد ذكـر أهـل التأويـل أن لفظـة (مهجـورا)، تتسـع لتشـمل مختلـف مواقـف وأقـوال وأفعـال الكفـار والمشركـين مـن الدعـوة الإسـلامية عامـة، والقـرآن الكريـم خاصـة، وقـد جـاءت هـذه الأقـوال في آيـات أخـرى، مفصلـة وموضحـة لمـا قالـوا، أي أنهـم اسـتعانوا بتأويـل بآيـات قرآنيـة مـن أجـل إعطـاء تأويـل لمعنـى كلمـة مهجـورا، وهـذا اتبـاع لمنهجيـة التأويـل التـي توجـب عـلى المتـأوّل أو المفسّر أن يذكـر الدليـل الـذي أوجـب صرف اللفـظ عـن معنـاه الراجـح إلى معنـاه المرجـوح، وإلا كان تأويـلا فاسـدا أو تلاعبـا بالنصـوص. مـع الأخـذ في الحسـبان أن العـرف السـائد عنـد العلـماء

(١) تفسير الطبري، ج١٩، ص٢٦٤.
(٢) تفسير ابن كثير، ج١، ص١٠٣٩.

أن التفسير والتأويل بمعنى واحد، فكل كتب التفسير التي تتناول توضيح وشرح آيات القرآن الكريم، كما هو ظاهر في عناوينها، لا تفرق بين تأويل أو تفسير على المجمل[1].

وقد جاءت لفظة (مهجورا) بدلالات عديدة ذكرها المفسرون، وهي: القول السيئ، وأن القرآن سحر أو شعر، وأنها تعني إعراضا وبعدا عنه، مستعينين في ذلك بآيات قرآنية عديدة دالة على ما ذهبوا. والرأي هنا، أن دلالة (مهجورا) تحتمل كل ما سبق، بل وتؤسس إيحاء وفهما ومعطى جديدا، يشمل فعلا قام به المشركون نحو آيات القرآن التي تتلى عليهم من قبل الرسول، ولعل المعطى الدلالي الجديد هنا، أن الترك/ الهجر هو فعل في حد ذاته، يشتمل على قول وتوجه وسلوك، وقد استنبط السبكي مسألة أصولية من هذه الآية، وهي أن الكف عن الفعل فعل. والمراد بالكف الترك، فإذا كان الأخذ بمعنى: التناول، فإن كلمة المهجور: تعني المتروك، فصار المعنى تناولوه متروكا، أي: فعلوا تركه[2]. وهو معنى جديد، فالترك

---

(١) مناهج المفسرين، د. مساعد مسلم آل جعفر، د.محي هلال السرحان، دار المعرفة، الرياض، ط١، ١٩٨٠م، ص١٠، ١١.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجنكي الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ط١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ج٦، ص٤٨. استنبط السبكي من هذه الآية أن الكف فعل وتفسيره لها بما يدل على ذلك، و هذا المعنى الذي زعم أن هذه الآية الكريمة دلت عليه، وهو كون الكف فعلا دلت عليه آيتان كريمتان أخريان من سورة « المائدة «، دلالة واضحة لا لبس فيها، ولا نزاع، من سورة « المائدة «. أما الأولى منهما، فهي قوله تعالى: لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون، وأما الآية الثانية، فهي قوله تعالى: كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون فقد سمى جل وعلا في هذه الآية الكريمة تركهم التناهي عن المنكر فعلا. ص٤٩.

والهجر ليس إعراضا فقط، وإنما هو فعل متكامل الأركان، مصحوبا بالنية، والقول، والسلوك.

ونجد دلالة جديدة للفظة الهجرة في قوله تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾[1]، وهي تفترق عن الدلالة التي وردت في الآية السابقة، بأن الكفار اتخذوا هذا القرآن مهجورا، فإن الرسول (صلى الله عليه وسلم) سيرد عليهم بفعل الهجر أيضا، بنفس دلالة الهجر بمعنى القطع، فهم هجروا القرآن، والرسول سيهجرهم أيضا، بفعل الترك والترفع والنأي عما يقولونه ويسلكونه معه.

ولكن هجر الرسول ليس سلبي المنحى، بمعنى الابتعاد الكلي عنهم، وإنما هو الهجر الجميل أي الحسن، ويعني أنه لن يرد على سخريتهم واستهزائهم وتطاولهم بنفس ردودهم، وإنما سيكون هجره جميلا، يشمل الرد الجميل، والسلوك الحسن.

وفي هذا يقول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: « إن الأحوال والمعاني منها حسن ومنها قبيح في نوعه، الذي يقتصر صاحبه على حقيقة الهجر، وهو ترك المخالطة فلا يقرنها بجفاء آخر أو أذى، ولما كان الهجر ينشأ عن بغض المهجور، أو كراهية أعماله كان معرضا لأن يتعلق به أذى من سب أو ضرب أو نحو ذلك. فأمر الله رسوله بهجر المشركين هجرا جميلا، أي: أن يهجرهم ولا يزيد على هجرهم سبا أو انتقاما. وهذا الهجر: هو إمساك النبي (صلى الله عليه وسلم) عن مكافأتهم بمثل ما يقولونه مما أشار إليه قوله تعالى واصبر على ما

(١) سورة المزمل، الآية (١٠).

يقولـون. وليـس منسـحبا عـلى الدعـوة للديـن فإنهـا مسـتمرة ولكنهـا تبليـغ عـن الله تعـالى فـلا ينسـب إلى النبي (صـلى الله عليـه وسـلم) وقـد انُتـزِع مـن هـذه الآيـة منزعـا خلقيـا بـأن الله جمـع مـا يحتـاج إليـه الإنسـان في مخالطـة النـاس في هاتـين الكلمتـين؛ لأن المـرء إمـا أن يكـون مخالطـا فـلا بـد لـه مـن الصـبر عـلى أذاهـم وإيحاشـهم؛ لأنـه إن أطمـع نفسـه بالراحـة معهـم لم يجدهـا مسـتمرة، فيقـع في الغمـوم إن لم يـرض نفسـه بالصـبر عـلى أذاهـم، وإن تـرك المخالطـة فذلـك هـو الهجـر الجميـل[1].

فـإذا نظرنـا إلى الهجـر سـنجد أنـه يتألف مـن طرفين بينهـما مشـاعر، ناتجة عـن مواقـف سـابقة، فهنـاك الهاجـر والمهجـور، يحمـل الهاجر مشـاعر بغض وكراهيـة لأفعـال قـام بهـا المهجـور فاسـتحق النـأي عنـه مـن الهاجـر. ولكن الهجـرة هنـا ليسـت ارتحالا عـن المهجور بشـكل تام، أسـوة بالهجـرة المكانية، وإنـما هـي نصف بعـد، ونصـف تنـاءٍ، بمعنى أنـه لا يخالطـه إلا بإحسـان، مما يقتـضي الصبر عـلى الأذى منهم، دون رد على الإسـاءة بإسـاءة، وإنما الإسـاءة بإحسـان، والأذى بالتجنـب، والتطـاول بالإعراض.

وهـذا المعنـى يلتقي مـع قوله تعـالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُـرْ﴾[2]. فقد اختلفت القـراء في قـراءة لفظـة (الرجـز)، التي سـيتم بناء معنـى فعل الأمـر (اهجر)، فقـرأه بعـض قراء المدينـة وعامة قـراء الكوفـة: (والرِجز) بكسر الـراء، وقرأه بعـض المكيـين والمدنيـين (والرُجـز) بضـم الـراء، فمن ضـم الـراء وجهه إلى الأوثـان، وقـال: معنـى الـكلام: والأوثـان فاهجـر عبادتهـا، واتـرك خدمتها،

(١) تفسير التحرير والتنوير،ج٣٠، ص٢٦٨، ٢٦٩.
(٢) سورة المدثر، الآية (٥).

ومـن كـسر الـراء وجهـه إلى العـذاب، وقـال: معنـاه: والعـذاب فاهجـر، أي مـا أوجـب لك العـذاب من الأعـمال فاهجـر .والصـواب من القـول في ذلك أنهـما قراءتـان معروفتـان، فبأيتهـما قـرأ القارئ فمصيـب، والضـم والكسر في ذلـك لغتـان بمعنـى واحد، ولم نجـد أحدا من متقدمـي أهل التأويـل فرق بين تأويـل ذلـك، وإنـما فرق بين ذلك فيـما بلغنا الكسـائي .واختلف أهـل التأويل في معنـى (الرجـز) في هـذا الموضـع، فقـال بعضهـم: هـو الأصنـام . وعن ابن عبـاس، في قولـه: (والرجـز فاهجر) يقـول: السـخط وهو الأصنـام، قيل هو الإثـم والمعصية[1].

فدلالـة الرجـز بالكـسر وتعنـي العـذاب، أو بالضـم وتعنـي الأوثـان، وأيضـا بمعنـى الإثـم والمعصيـة، فأينـما كانـت دلالـة الرجـز، فـإن الأمـر بالهجـر قائـم، ليلتقـي في النهايـة مـع الدلالـة الأصليـة، بـأن الهجـر هـو القطـع، والابتعـاد، والـترك، جسـديا ومكانيـا ومعنويـا .

٣) الدلالة الانتقالية المكانية:

حيـث يتحـول الخطـاب القـرآني إلى مفهـوم الهجـرة في دلالتهـا المكانيـة، التـي تعنـي الانتقـال مـن ديـار الكفـر إلى الإسـلام، وتشـمل في حقيقتهـا هجـر كافـة مـا يتعـرض لـه المؤمنـون مـن أذى، أو يشـاهدونه من أوثـان، أو تطـاول واسـتهزاء مـن الكفـار، ثـم الانتقـال إلى دار الهجـرة، وفيهـا الجماعـة المؤمنـة الصالحـة، وبدايـة التمكـين لرسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم) لإقامـة دولـة الإسـلام، وإيجـاد مـلاذ للمؤمنـين مـن عسـف المشركـين،

(١) تفسير الطبري، ج٢٤، ص١٢، ١٣.

وتآمرهم على الدعوة الوليدة، ورسولها وصحابته الأبرار. فقد مثّلت الهجرة علامة فارقة في حياة المسلمين بمكة، وإيجاد مناصرين لهم في العقيدة والعمل.

لذا، نجد غالبية الآيات التي تعرض لحداثة هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) تعتني بالإشادة والامتداح والوعد بالإثابة الربانية لفعل الهجرة وللمهاجرين، ومنها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]،

جاء الفعل (هاجروا) متبوعا بالجر والمجرور(في الله)، من أجل تبيان أن الهجرة في مبتغاها هي لوجه الله تعالى أولا، فالمسلم لم يهاجر لأمر دنيوي.

ثم تأتي بقية الآية موضحة أن سبب هجرتهم هو تعرضهم للظلم، وأن الثواب من الله سيكون حسنة في الدنيا، أما أجر الآخرة فهو أكبر وأكثر، لأنه إثابة الله لمن هاجروا في سبيله، وابتغوا مرضاته جلا وعلا، وقد فارقوا دورهم، وإخوانهم من أهلهم، وخلانهم؛ أملا في ثواب الله وجزائه.

وكما يصفهم صاحب الظلال بأن» هؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم، وتعروا عما يملكون وعما يحبون، وضحّوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم.. هؤلاء يرجون في الآخرة عوضا عن كل ما خلفوا وكل ما تركوا، وقد عانوا الظلم وفارقوه.

(١) سورة النحل، الآية(٤١).

فـإذا كانـوا قـد خـسروا الديـار فــ لنبوئنهـم في الدنيـا حسـنة ولنسـكننهم خـيرا ممـا فقـدوا ولأجـر الآخـرة أكـبر لـو كان النـاس يعلمـون. هـؤلاء الذيـن صـبروا واحتملـوا مـا احتملـوا وعـلى ربهـم يتوكلـون لا يشركـون بـه أحـدا في الاعتـماد والتوجـه والتـكلان»[1].

فأثـر فعـل الهجـرة عـلى المهاجريـن المسـلمين ذو بعديـن كليهـما نفـسي، الأول يتعـرض للجانـب البـشري في نفـس المسـلم، وآثـاره أليمـة، ممثلـة في فقـدان ممتلـكات الدنيـا وعلاقاتهـا الإنسـانية وصلـة الرحـم ومنـاصرة الأهـل والعشـيرة، والأشـد–وقتها– فـراق الرسـول محمـد (صـلى الله عليـه وسـلم)، وصحابتـه الأبـرار، في مجتمـع يكـون الفـرد فيـه شـديد الخسـارة إذا تخـلى عـن قومـه، ورابطتـه القبليـة، وتـرك أموالـه وديـاره.

أمـا البعـد الثـاني فهـو يتصـل بالأمـل المبتغـى مـن قيـام الصحابـة عليهم الرضـوان بفعـل الهجـرة، وهـو رجـاء رضـا الله سـبحانه، والاحتـماء بـه، والتـوكل الكامـل عليـه. أي أنهـم هاجـروا وهـم عـلى إيـمان كامـل وثبـات في العقيـدة، بأنهـم مثابـون دنيـا وآخـرة.

وقـد تعـددت الأقـوال في سـبب نـزول هـذه الآيـة الكريمـة، فذُكِـر أنهـا نزلـت في أصحـاب النبي (صـلى الله عليـه وسـلم) في مكـة، الذيـن عُذبـوا عـلى أيـدي المشركـين، مثـل صهيـب، وبـلال، وخبـاب، وعـمار وأبي جنـدل بـن سـهيل، فبوّأهـم الله تعـالى المدينـة بعـد ذلـك[2]، وهنـا تصبـح الهجـرة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٣٢، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م، ج٤، ص ٢١٧٢.

(٢) أسـباب نـزول القـرآن، أبي الحسـن عـلي بـن أحمـد الواحـدي، ت ٤٦٨هــ، تحقيـق: كـمال بسـوني زغلـول، دار الكتـب العلميـة، بـيروت، ط١، ١٤١١هــ، ١٩٩١م، ص٢٨٠.

دلالـة معنويـة فقـط، حيـث تكـون الهجـرة مـن الـشرك إلى الإيـمان بـالله تعـالى، فكانـت الإثابـة التمكـين للرسـول وصحابتـه الأبـرار في المدينـة.

وقيـل أيضـا إنهـا نزلـت في مهاجـرة الحبشـة الذيـن اشـتد أذى قومهـم لهـم بمكـة، حتـى خرجـوا مـن بـين أظهرهـم إلى بـلاد الحبشـة، ليتمكنـوا مـن عبـادة ربهـم، ومـن أشرافهـم: عثـمان بـن عفـان، ومعـه زوجتـه رقيـة بنـت رسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم)، وجعفـر بـن أبي طالـب، ابـن عـم الرسـول وأبـو سـلمة بـن عبـد الأسـد في جماعـة قريـب مـن ثمانـين، مـا بـين رجـل وامـرأة، صديـق وصديقـة، رضي الله عنهـم وأرضاهـم. وقـد فعـل، فوعدهـم تعـالى بالمجـازاة الحسـنة في الدنيـا والآخـرة[1]. وقـد كانـت هـذه أول هجـرة قـام بهـا المسـلمون مـن مكـة المكرمـة إلى خارجهـا، وكانـت ذات أثـر قـوي في نفوسـهم، لأنهـم علمـوا أن في الرحيـل عـن بلدهـم وأهلهـم وأموالهـم منجـاة لهـم بدينهـم، وفـرارا مـن الظلـم والأذى الشـديد الـذي تعرضـوا لـه عـلى أيـدي مشركـي مكـة. كـما تعـددت الأقـوال في تفسـير قولـه تعـالى (لنبوئنهـم في الدنيـا حسـنة) فقيـل إنهـا المدينـة. وقيـل: الـرزق الطيـب، ولا منافـاة بـين القولـين، فإنهـم تركـوا مسـاكنهم وأموالهـم فعوضهـم الله خـيرا منهـا في الدنيـا، فـإن مـن تـرك شـيئا لله عوضـه الله بـما هـو خـير لـه منـه، حيـث مكّـن الله لهـم في البـلاد وحكّمهـم عـلى رقـاب العبـاد، فصـاروا أمـراء حكامـا، وجعـل كلا منهـم للمتقـين إمامـا، وأخـبر أن ثوابـه للمهاجريـن في الـدار الآخـرة أعظـم ممـا أعطاهـم في الدنيـا، ولـو كان المتخلفـون عـن الهجـرة معهـم يعلمـون مـا ادخـر الله لمـن أطاعـه واتبـع

(١) تفسير ابن كثير، ج٤، ص٥٧٢.

رسوله؛ لما تخلفوا. ولهذا ورد عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: خذ بارك الله لك فيه، هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما ادخر لك في الآخرة أفضل، ثم قرأ هذه الآية: (لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)[١]. وهنا تكون المثوبة في الدنيا والآخرة، أما الآخرة فهي عند الله، يجازي بها عباده، أما الدنيا، فإن المهاجرين نعموا بأمور عديدة، أبرزها أنهم تميزوا عن جماعة المؤمنين وعموم المسلمين بعد ذلك بلقب المهاجرين، ثم ما نالوه من رفعة في الدنيا، عندما قادوا جيوش الفتوحات الإسلامية، وتولوا الحكم، وفتح الله عليهم بالخيرات لهم الكثيرة من مال وعطايا وفيء، كما نالوا أعطيات الخلفاء الراشدين وهباتهم، وهم من المهاجرين أيضا.

٤) دلالة التمييز والمدح:

وتعني أن يتحول لفظ الهجرة ومشتقاته إلى تمييز للفئة المهاجرة، تقديرا لتضحياتها، وعظم بلائها في الإسلام، ومن ثم امتداح ما قاموا به.

يقول جلّ وعلا: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٥٧٣.

عِنـدِ اللهِ ۗ وَاللهُ عِنـدَهُ حُسْـنُ الثَّـوَابِ﴾[1].

في هـذه الآيـة تفصيـل أكثـر لعظـم فعـل الهجـرة- وعظـم الثـواب أيضـا- لمـا قـام بـه المهاجـرون، حيـث توجـه الخطـاب هنـا إلى جماعـة المؤمنـين عامـة، ثـم إلى فئـة الصحابـة الأبـرار الذيـن هاجـروا، وعـدد المـولى تبـارك وتعـالى مـا تحملـه المهاجـرون مـن عنـت، فقـد أجـبروا عـلى الخـروج مـن ديارهـم، وتعرضـوا للإيـذاء واحتملـوه في سـبيل الله تعـالى، ثـم تشـير إلى رحلتهـم الجهاديـة فقـد قاتلـوا وقتلـوا، في الغـزوات والمعـارك، أي أنهـم باعـوا أنفسـهم لله تعـالى، مضحـين بـكل الدنيـا.

وقـد جـاء الثـواب مفصـلا لهـم: تكفـير السـيئات، بسـترها عليهـم في الآخـرة، فـلا توبيـخ بهـا ولا عقابـا عليهـا[2]، وإدخـال الجنـات، التـي تجـري خلالهـا الأنهـار مـن أنـواع المشـارب، مـن لبـن وعسـل وخمـر ومـاء غـير آسـن وغـير ذلـك، ممـا لا عـين رأت، ولا أذن سـمعت، ولا خطـر عـلى قلـب بـشر. والله عنـده حسـن الجـزاء لمـن عمـل صالحـا[3]، وهـي البشـارة التـي تجعـل كل مهاجـر يسـتعذب الفـراق والرحيـل.

عـلى جانـب آخر، فإن أعـلى المقامات أن يقاتـل المؤمن في سـبيل الله، فيعقر جـواده، ويعفـر وجهـه بدمـه وترابه، وقـد ثبـت في الصحيح أن رجـلا قال: يا رسـول الله، أرأيـت إن قتلـت في سـبيل الله صابـرا محتسـبا مقبـلا غـير مدبـر، أيكفّـر الله عنـي خطايـاي؟ قـال: «نعم» ثم قـال: « كيف قلـت؟ »، فأعاد عليه

(١) سورة آل عمران، الآية (٩٥).
(٢) تفسير القرطبي، ج٤، ص٢٩٨.
(٣) تفسير ابن كثير، ج٢، ص١٩١.

ما قال، فقال: نعم، إلا الدين، قاله لي جبريل آنفا [1]، فزاد الله لهم فضلا على فضل الهجرة، وهو الجهاد في سبيل الله، ومنهم من ارتقى مع الشهداء، ومنهم من ظل مجاهدا حتى لقي الله تعالى.

هذا هو الجيل الأول من الصحابة عليهم الرضوان، الذين قامت عليهم دعوة الإسلام، متحملين أذى الكفار الجسدي، ثم الهجرة، ثم خرجوا للجهاد والفتوحات، وصاروا قوادا وحكاما، وضربوا المثل الحي على الإسلام الصحيح.

وقد أشار المولى سبحانه وتعالى إلى فضل المهاجرين والأنصار، وكلاهما تأسس عليهما الصف المسلم في المدينة المنورة، بعد هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصحابته الأبرار (عليهم الرضوان) إليها، ليكونوا نموذجا للمجتمع المسلم المثالي في رابطة سامية جمعته، تخالف الروابط التي ألِفها العرب في الجاهلية مثل: القبلية والعشائرية والتحالفات، أما رابطة الجماعة المسلمة فهي الإيمان بالله تعالى وحده، تحت قيادة الرسول (عليه الصلاة والسلام)، توكيدا لقوله تعالي: ﴿الذينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الذينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * الذينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ ۚ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ ۗ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [2]،

المعنى الإجمالي للآية السابقة يشير إلى فضل المهاجرين، الرعيل

(١) تفسير ابن كثير، ج٢، ص١٩٠.

(٢) سورة الأنفال، الآيتان (٧٤، ٧٥).

الأول من مسلمي مكة الذين أسلموا مع الرسول، خلال الحقبة المكية، فقد آمنوا وهاجروا وجاهدوا، ثم الأنصار الذين آووا ونصروا، وحكم الله عليهم جميعا بأنهم المؤمنون حق الإيمان، وكانت رابطتهم أخوية، تعادل أخوة الدم، بل هي أكثر وأشد.

وكما يشير ابن حجر العسقلاني على هذه الرابطة وهي الإخوة الإسلامية: « لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينةَ آخى بين المهاجرين (بعضهم بعضا)، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وضرب الأنصار أروع الأمثلة في الإيثار، منها قصة سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف. وقد كان الإخاء في المسجد، بقول الرسول (صلى الله عليه وسلم): تآخوا في الله أخوين أخوين. وقد شرعت المؤاخاة لإرفاق بعضهم بعضا، ولتأليف قلوب بعضهم على بعض.. فآخى بين الأعلى والأدنى، ليرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى»[١].

فدلالة المؤاخاة وفعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتعضيدها آمرا أصحابه بعبارته الخالدة: تآخوا في الله أخوين أخوين، فقد كانت السبيل الأقوى من أجل تأليف قلوب المجتمع الإسلامي الوليد، في بيئة عربية بدوية لا تعرف إلا رابطة الدم والنسب، وتضعها في المقام الأول، لأنها أساس العصبية القبلية، ثم تنظر إلى ما عداها من روابط مثل التحالفات أو الاستجارة وما شابه. فجاء فعل المؤاخاة ليكون رابطة جامعة بين المهاجرين والأنصار، أقوى من رابطة القبلية،

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ج٧، ص٢٧١.

مساوية لرابطة الدم، ومن أجل تحقيق أكبر قدر من المحبة والألفة والتعاضد بين أعضاء الصف المسلم، على اختلاف قدراتهم المالية ومكانتهم الاجتماعية، وجهادهم لنصرة الإسلام.

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ الذينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ الذينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

فالآية السابقة جامعة بين المهاجرين والأنصار، مؤكدة على دور كل فئة في بناء الوحدة الإسلامية الأولى، التي كانت وستظل نموذجا ونبراسا يهتدي به المسلمون في كل العصور، وهو نموذج الإخوة الإسلامية، التي ترتقي فوق علاقة النسب وعصبية العشيرة، وسائر الروابط الدنيوية التي تجمع الناس. فالإخوة الإسلامية قوامها الولاية بين المؤمنين جميعا، مثلما أشارت الآية السابقة بتعبير ﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾، والولاية في الإسلام صلة عظمى، والولاية لغويا تعني النصرة، والتولي[2] والنصرة تعني تدبير الأمر، والمناصرة وعدم الخذلان، والتولي يعني القدرة على الفعل والمسؤولية عمن هم مشمولين بالولاية. فالمؤمنون من المهاجرين والأنصار بينهم ولاية مشتركة متبادلة في الحقوق والواجبات، ينتصرون فيها لله ولدينه، وليس

---

(١) سورة الأنفال، الآية (٧٢).

(٢) القاموس المحيط، مادة ولي، ص١٧٣٢.

لدواعي العصبية القبلية أو الأمور الدنيوية التي بها منافع مادية، التي قد تخالف أوامر الله، أو تأتي بمظالم ومفاسد.

تشير الآية السابقة إلى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ﴾، فهؤلاء طائفة صدقّوا بالله ورسوله ولكنهم لم يهاجروا، وظلوا مع قومهم، غير مفارقين لدار الكفر إلى دار الهجرة، فيكون الحكم -الموجه إلى مسلمي المدينة المهاجرين- أنهم ما عليهم من ولايتهم أي من نصرتهم وميراثهم. فقد أصبحت الهجرة مع الإسلام سببا للنصرة، وسببا أيضا للتوارث بين المسلمين أنفسهم، فقد كان المسلمون يتوارثون بالهجرة، وآخى النبي صلى الله عليه وسلم بينهم، فكانوا يتوارثون بالإسلام والهجرة. وكان الرجل الذي يسلم ولا يهاجر، لا يرث أخاه. قال ابن عباس (وأيضا الضحاك): ترك النبي صلى الله عليه وسلم الناس يوم توفي على أربع منازل: مؤمن مهاجر، والأنصار، وأعرابي مؤمن لم يهاجر، إن استنصره النبي صلى الله عليه وسلم نصره، وإن تركه فهو إذنه، وإن استنصر النبي صلى الله عليه وسلم في الدين كان حقا عليه أن ينصره، والرابعة: التابعون بإحسان[1]. وقد أكد المولى تبارك وتعالى على هذا بقوله جل شأنه: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الذين اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[2]. فصفة الهجرة ميزت المسلمين بالرسالة، حتى بعد تمكين الله تعالى للمسلمين، وإقامة

(١) تفسير الطبري، ج١٤، ص٨٢، ٨٣.

(٢) سورة التوبة، الآية (١٠٠).

دولة إسلامية كبرى، يقودها الرسول، ثم خلفاؤه الراشدون المهديون من بعده. وجاءت صفة الهجرة في أولى المراتب وأعلاها، فقد اختص بها أهل مكة الذين تحملوا الأذى والعنت، ثم الهجرة بمشاقها وما فقدوه من أموال، وفارقوه من أهل وولد، ثم الجهاد. وجاء من بعدهم الأنصار لما لهم من فضل في النصرة والتمكين والثبات والعطاء، ثم الأعراب المؤمنون الذين توافدوا معلنين إيمانهم بالرسالة تباعا، وهؤلاء جميعا نالوا شرف الصحبة المباركة مع الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم التابعين بإحسان. وهكذا، نجد أن التقسيم السابق أساسه المفاضلة في الهجرة والجهاد والنصرة. وقد وضحت المفاضلة أكثر بعد فتح مكة، ويروي الإمام أحمد، قول الرسول (صلى الله عليه وسلم): المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة[1].

فقد قرن الرسول الولاية بين المهاجرين والأنصار، فكلاهما أساس وعنوان في الصف المسلم في بنيانه الأوليّ، أما من أسلم متأخرا بعد فتح مكة، ونال عفو الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فهؤلاء وصفوا بالطلقاء (جَمْعُ طَلِيقٍ)، وهم مَنّ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِم يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعهُمْ، وهم الَّذين خَلَّى عَنْهُمْ يَوْمَ فَتْح مَكَّةَ، وأَطْلَقَهُم، فَلَمْ يَسْتَرِقَّهم[2]، فهناك فرق بين الرعيل الأول، وبين

(١) تفسير ابن كثير، ج٤، ص٩٩.

(٢) انظر: التعليق على حديث: (اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ)، وقد تم تضعيف عدد من رواياته، وإن كانت تعضد بعضها البعض بشكل أو بآخر، إلا أن تسمية الذين خلّى عنهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يوم الفتح: «الطلقاء»، ثابت في السنة. على موقع الإسلام سؤال وجواب، https://islamqa.info/ar/answers/290672/A1

من الرعيل الأخير، في المكانة والأجر.

وظاهر الآية السابقة في سورة الأنفال ﴿الذينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾ أنها نزلت ولا يزال هناك بعض المسلمين من أهل مكة باقين فيها، ولم يغادروا، فيكون فعل الهجرة هنا تمييزا لهم عن بقية المؤمنين في مكة، الذين لا يزالون باقين مع أهل الشرك، ولم ينالوا شرف الهجرة، وصحبة الرسول، والمشاركة في تأسيس المجتمع الجديد في المدينة المنورة. يظل هؤلاء في مكة وليس لهم حق النصرة من المؤمنين في المدينة، في توكيد واضح على أن فعل الهجرة هو الأساس في التمييز بين المؤمنين، في المرحلة الأولى من البعثة النبوية، ويظل حدث الهجرة فارقا في دلالته، والدلالة المقصودة في هذه الآية الكريمة هي دلالة الهجرة المكانية من دار الشرك إلى دار الإيمان، فالبقاء في دار شرك، لا مبرر له، إلا الحفاظ على روابط دنيوية تخص أصحابها، ولذا يتوجب عليهم الهجرة إلى دار الإيمان/ الإسلام وهي المدينة المنورة، ليعيشوا جميعا ويبنون مجتمعا إسلاميا صافيا نقيا، خاليا من أدران الشرك، حاميا للمؤمنين.

لقد أطلقت لفظة (المهاجرون) في المجتمع المسلم في المدينة المنورة، تمييزا لهم عن الأنصار الذين هم أهل المدينة، وهم الذين استقبلوا الرسول وصحبه وآووهم، فالمهاجرون -كاصطلاح- هم عدا الأنصار وعدا من أسلم يوم الفتح وهلم جرا، والمقصود بالأنصار -اصطلاحا- هم الأوس والخزرج وحلفاؤهم ومواليهم. وقد شهد

الله لهـم بالصـدق. أمـا فضـل الأنصـار، فهـم الذيـن امتثلـوا الأمـر في نـصره، وكان نـصر الله في حـال التوجـه إلى المدينـة بحفـظ الرسـول مـن أذى المشركـين[1].

فطبقـا لمجريـات السـيرة النبويـة الشريفـة، نـال المهاجـرون مـن مسـلمي مكـة نعتـا، لازمهـم طيلـة التاريـخ الإسـلامي، وفي المدينـة المنـورة تكونـت بـذرة الدولـة المسـلمة، بوحـدة صـف الجماعـة المؤلفـة مـن المهاجريـن المكيـين، والأنصـار المدنيـين.

وُصِـفَ المهاجـرون بثـلاث سـمات وهـي كونهـم: «آمنـوا وهاجـروا وجاهـدوا، مصداقـا لقولـه تعـالى ﴿الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَهَاجَـرُوا وَجَاهَـدُوا فِي سَـبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِـمْ وَأَنفُسِـهِمْ أَعْظَـمُ دَرَجَـةً عِنـدَ اللهِ ۚ وَأُولَـٰئِـكَ هُـمُ الْفَائِـزُونَ﴾[2]، فهـؤلاء آمنـوا، وتحملـوا الأذى مـن قومهـم، حتـى اضطروهـم إلى الخـروج منهـا، ولمّـا هاجـروا إلى المدينـة أمـروا بالقتـال فقاتلـوا وبذلـوا أموالهـم وأنفسـهم في سـبيل الله عـز وجـل؛ لـذ أثبـت الله تعـالى فضلهـم وسـبقهم، فأثنـى عليهـم، وشـهد لهـم بشـهادتين: الأولى: في سـورة الأنفـال:﴿ أُولَـٰئِـكَ هُـمُ الْمُؤْمِنُـونَ حَقًّـا لَهُـمْ مَغْفِـرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيـمٌ﴾[3] والثانيـة في سـورة الحـشر:﴿ أُولَـٰئِـكَ هُـمُ الصَّادِقُـونَ ﴾[4].

وهـو مـا يؤكـده أيضـا قولـه تعـالى:﴿ الذيـنَ هَاجَـرُوا فِي سَـبِيلِ اللهِ ثُـمَّ قُتِلُـوا أَوْ مَاتُـوا لَيَرْزُقَنَّهُـمُ اللهُ رِزْقًـا حَسَـنًا ۚ وَإِنَّ اللهَ لَهُـوَ خَـيْرُ

(١)) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج٧، ص٩. باب فضائل المهاجرين وفضلهم.
(٢) سورة التوبة، الآية (٢٠).
(٣) سورة الأنفال، الآية (٧٤).
(٤) سورة الحشر، الآية (٨).

الرَّازِقِينَ﴾[1]، وجاء في تفسير هذه الآية: أفرد سبحانه تعالى المهاجرين بالذكر تخصيصا لهم بمزيد الشرف وقد قيل عنهم أنهم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة. وقال بعضهم: الذين هاجروا من الأوطان في سرية أو عسكر، ولا يبعد حمل ذلك على الأمرين، والكل من سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا أي في حال المهاجرة، فكان وعد الله لهم (الرزق الحسن)، الذي هو نعيم الجنة الذي لا ينقطع، وقيل: هو الغنيمة لأنه حلال، وقيل: هو العلم والفهم كقول شعيب ورزقني منه رزقا حسنا[2].

تحوي الآية السابقة بشارة للمهاجرين بنعيم الجنة في الآخرة، والدلالة تحتمل أيضا الرزق الطيب الوفير في الدنيا، سواء قتلوا في الجهاد، أو ماتوا، فإن الله لا يضيع أجر من هاجر؛ نال الشهادة مجاهدا أو لقى الله صابرا محتسبا.

فالإيمان لا بدَّ له من دليل وبرهان، وكان دليلُ الإيمانِ الحقِّ والبرهان على صدقِ الصحابة الأوائل (رضي الله عنهم)، هو الهجرة والجهاد. أما الأنصار، فهم كالمهاجرين في الدرجة والأجر؛ لأنهم آمَنُوا وآوَوا ونصَرُوا إخوانهم المهاجرين الذين جاؤوهم فقراء لا شيء معهم إلا إيمانهم الراسخ وعقيدتهم القوية النقية. وقد أثنى الله تعالى على الأنصار في مواضع كثيرة في كتابه، وأثنى عليهم النبي (صلى الله عليه وسلم)، ويكفي مقولة النبي (صلى الله عليه وسلم): لولا الهجرة لكنتُ امرأً مِن الأنصار». وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى

---

(١) سورة الحج، الآية (٥٨).

(٢) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٤م، ج١، ص٩٧١.

الله عليه وسلم: لو أن الأنصار سلكوا واديًا أو شِعبًا، لسلكتُ في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، فقال أبو هريرة: ما ظلم بأبي وأمي، آوَوْه ونَصَرُوه[1]. فنحن إزاء فئتين في الجماعة المسلمة في تكوينها الأوّلي، يبدو أنهما متقابلان في اللفظ (المهاجرون والأنصار)، ولكنهما في الحقيقة متساويان في الجهد، وفي الأجر والمثوبة إن شاء الله. فأي مهاجر فار بدينه، وتارك أمواله وأهله في حاجة ماسة لمن يأويه ويناصره، فكان الأنصار هم القائمون بذلك، باذلين ما يملكونه عن طيب خاطر، وحب، وإيثار. فجاءت كلمات الرسول (صلى الله عليه وسلم) إشادة وتأكيدا على تقديره لفضلهم على المهاجرين والدعوة.

وقد اختار الرسول أن يدفن في المدينة المنورة، بلد المهجر، ولم يدفن في بلده الأصلي مكة، لأن الأرض لله تعالى يورثها من يشاء من عباده. فنالت المدينة شرف احتضان المهاجرين، وكانت اللبنة الأولى في الدولة المسلمة الأولى، وفازت بالحرم الثاني (المسجد النبوي) بعد المسجد الحرام، ونعم الأنصار بجوار رسول الله حيا وميتا.

٥) دلالة المكانة والعطاء:

وهي الدلالة التي لازمت المهاجرين في العطاء تقديرا لمكانتهم في المجتمع المسلم، ولكونهم الركيزة الأساسية في بناء الدولة، فاختصهم الله تعالى بأسهم في الفيء.

على نحو ما جاء تفصيلا في قوله تعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ

(١) فتح الباري، ج٧، ص٨٧، ٨٨.

الَّذِيـنَ أُخْرِجُـوا مِـنْ دِيَارِهِـمْ وَأَمْوَالِهِـمْ يَبْتَغُـونَ فَضْـلًا مِـنَ اللهِ وَرِضْوَانًـا وَيَنْـصُرُونَ اللهَ وَرَسُـولَهُ أُولَـٰئِـكَ هُـمُ الصَّادِقُونَ۞الذيـنَ تَبَـوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَـانَ مِـنْ قَبْلِهِـمْ يُحِبُّـونَ مَـنْ هَاجَـرَ إِلَيْهِـمْ وَلَا يَجِـدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَـةً مِمَّـا أُوتُـوا وَيُؤْثِـرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِـهِمْ وَلَـوْ كَانَ بِهِـمْ خَصَاصَـةٌ وَمَـنْ يُـوقَ شُـحَّ نَفْسِـهِ فَأُولَـٰئِـكَ هُـمُ الْمُفْلِحُـونَ﴾[1].

يذكـر صاحـب الظـلال ملمحـا مهـما في تفسـيره للآيتـين السـابقتين، إن « القـرآن لا يذكـر الأحـكام جافـة مجـردة، إنـما يوردهـا في جـو حـي يتجـاوب فيـه الأحيـاء. ومـن ثـم أحـاط كل طائفـة بصفاتهـا الواقعيـة الحيـة التـي تصـور طبيعتهـا وحقيقتهـا، وتقـرر الحكـم حيـا يتعامـل مـع هـؤلاء الأحيـاء»[2].

فالجديـد هنـا أن الآيـة الكريمـة فصّلـت فضـل كل طائفـة ودورهـا في الدعـوة الإسـلامية، بمفـردات حيـة، تربطهـا بعـالم الحـراك الإنسـاني الـذي صاحـب البعثـة النبويـة الشريفـة، باسـتخدام أفعـال مضارعـة (يبتغـون، ينـصرون)، في دلالـة عـلى الاسـتمرارية التـي كان عليهـا سـلوكهم إرضـاء لله تعـالى ثـم رسـوله، وكذلـك الجملـة الاسـمية (أولئـك هـم الصادقـون)، التـي تعطـي توكيـدا عـلى اطـلاع الله تعـالى عـلى قلوبهـم، فينعتهـم بالصادقـين في سـعيهم وحراكهـم وجهادهـم.

وبالعـودة إلى تعليـق صاحـب الظـلال عـلى الآيـة الكريمـة المتقدمـة، نـراه يصـف جماعـة المؤمنـين بسـمات المجتمـع المسـلم القـدوة، يقـول:

(١) سورة الحشر، الآيتان(٨، ٩).

(٢) في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٥٢٦.

«وهـي صـورة صادقـة تـبرز فيهـا أهـم الملامـح المميـزة للمهاجريـن.. أخرجـوا إخراجـا مـن ديارهـم وأموالهـم. أكرههـم عـلى الخـروج الأذى والاضطهـاد والتنكـر مـن قرابتهـم وعشـيرتهم في مكـة. لا لذنـب إلا أن يقولـوا ربنـا الله ...وقـد خرجـوا تاركـين ديارهـم وأموالهـم يبتغـون فضـلا مـن الله ورضوانـا اعتمادهـم عـلى الله في فضلـه ورضوانـه. لا ملجـأ لهـم سـواه، ولا جنـاب لهـم إلا حمـاه.. وهـم مـع أنهـم مطـاردون قليلـون وينـصرون الله ورسـوله .. بقلوبهـم وسـيوفهم في أحـرج السـاعات وأضيـق الأوقـات. أولئـك هـم الصادقـون، الذيـن قالـوا كلمـة الإيـمان بألسـنتهم، وصدقوهـا بعملهـم»[1].

ومعلـوم أن هـذه الآيـة جـزء مـن آيـات توزيـع الفـيء عـلى المسـلمين، وهـي التـي اسـتند إليهـا عمـر بـن الخطـاب (رضي الله عنـه) في توزيـع أرض السـواد بالعـراق، في اجتهـاد منـه بـأن تبقـى أرض السـواد التـي غنمهـا الفاتحـون المسـلمون في بـلاد العـراق، التـي تشـمل مسـاحات هائلـة مـن الأراضي المنزرعـة، وقـد أطلـق عليهـا العـرب «سـوادا» جريـا عـلى لغتهـم في نعـت الخـضرة بالسـواد، لأنهـا تُـرىَ مـن بعيـد في الصحـراء القاحلـة باللـون الأسـود.

لقـد خـشي عمـر أن يتـم توزيـع الأرض عـلى الفاتحـين، وحرمـان عامـة المسـلمين منهـا، ممـا يجعلهـا حكـرا في أيـدي فئـة بعينهـا، تتوارثـوه جيـلا بعد جيـل، ويحـرم مـن خيرهـا بقيـة المسـلمين. فجـاء اجتهـاد عمـر مسـتندا إلى آيـات سـورة الحـشر، وتُسـمَّى آيـات الفـيء، لأنهـا اسـتوعبت جميـع فئـات

(١) المرجع السابق، ج٦، ص٣٥٢٦.

المسلمين: المهاجرين والأنصار والتابعين، ثم بقية أجيال المسلمين التالية، وقد أيد عمر في فتواه علي بن أبي طالب، وبلال بن رباحة، وغيرهما؛ حرصا على مصلحة المسلمين، بنقل ملكية هذه الأرض إلى مجموع الأمة الإسلامية في حاضرهم ومستقبلهم، لما في ملكية الأرض من فوائد جمة تعود على الدولة المسلمة، اقتصاديا واجتماعيا وسياسيا، فأصبحت أرض السواد وقفا يضرب عليها خراج معلوم يؤخذ منها كل عام، ويقدر حسب طاقة الأرض، ولا يسقط خراجها بإسلام من يستزرعها، أو بانتقال ملكيتها إلى مسلم[1].

إن آية الفيء تشير إلى سمو مكانة المهاجرين والأنصار، بوصفهما الصف الأول في الإسلام، وأنهم متميزون عن عموم الصحابة والتابعين وسائر المسلمين بأن جعل الله لهم أسهما بعينها في الخراج، الذي تدفقت خيراته على المسلمين، مع ازدياد الفتوحات، واتساع رقعة الدولة المسلمة. وإذا كان عمر قد اجتهد وجعل هذه الأرض وقفا لعموم المسلمين، سعيا منه إلى تحقيق المساواة لكل أبناء الأمة المسلمة في حاضرهم ومستقبلهم، مقدما المهاجرين والأنصار، في السبق والمنزلة والعطاء.

وتكون المفارقة في أحداث السيرة النبوية في المدينة المنورة، وفي آيات القرآن، أنه مع ذكر المهاجرين، يُذكَر الأنصار، في تلاحم للجماعة المسلمة يسجله التاريخ، وهما يؤسسان دولة، قدمت مجتمعا فاضلا لا

---

(١) السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، يوسف القرضاوي، ط٢، ١٤١٦هـ، ٢٠٠٥م، ص١٩٩ وما بعدها.

زلنـا نتأملـه، ونسـتفيد منـه دروسـا وعظـات.

ولـذا، يتوقـف صاحـب الظـلال وينشر بأسـلوبه سـمات الأنصـار الذيـن كان لهـم الفضـل بعـد الله سـبحانه وتعـالى في نـصرة الإسـلام والمهاجريـن، يقـول: «هـذه المجموعـة التـي تفـردت بصفـات، وبلغـت إلى آفـاق، لـولا أنهـا وقعـت بالفعـل، لحسـبها النـاس أحلامـا طائـرة ورؤى مجنحـة ومثـلا عليـا قـد صاغهـا خيـال محلـق.. وفي قولـه تعـالى: ﴿يحبـون مـن هاجـر إليهـم ولا يجـدون في صدورهـم حاجـة ممـا أوتـوا﴾ لم يعـرف تاريـخ البشريـة كلـه حادثـا جماعيـا كحـادث اسـتقبال الأنصـار للمهاجريـن، بهـذا الحـب الكريـم. وبهـذا البـذل السـخي، وبهـذه المشـاركة الرضيـة، وبهـذا التسـابق إلى الإيـواء واحتـمال الأعبـاء. حتـى لـيروى أنـه لم ينـزل مهاجـر في دار أنصـاري إلا بقرعـة. لأن عـدد الراغبـين في الإيـواء المتزاحمـين عليـه أكثـر مـن عـدد المهاجريـن! ﴿ولا يجـدون في صدورهـم حاجـة ممـا أوتـوا﴾ ممـا ينالـه المهاجـرون مـن مقـام مفضـل في بعـض المواضـع، ومـن مـال يختصـون بـه كهـذا الفـيء، فـلا يجـدون في أنفسـهم شـيئا مـن هـذا. ولا يقـول: حسـدا ولا ضيقـا. إنـما يقـول: «شـيئا». ممـا يلقـي ظـلال النظافـة الكاملـة لصدورهـم والـبراءة المطلقـة لقلوبهـم، فـلا تجـد شـيئا أصـلا»[1].

وإذا قرأنـا هـذه الصـورة النفسـية المرسـومة عـن الأنصـار، سـنجد مثـالا رائعـا علينـا أن نحتذيـه في عصرنـا، وكل العصـور، ونقدمـه للعـالم أجمـع، الذي يشـكل المهاجـرون قضيـة ملحـة فيه، ونباهي بـأن السـيرة النبويـة قدمت أعظـم نمـوذج في اسـتقبال المهاجريـن من قبـل الأنصـار، وأنهم جميعـا أعلوا

(١) في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٥٦٢.

الأخـوة -قيمة وعمـلا- التي تفـوق مفهوم الجنسـية والمواطنة، وهـو ما نقرأه في بعـض أسـباب النـزول في آية سـورة الحـشر المتقدمة.

فقـد جـاء الأنصـار إلى رسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم) وقالـوا: يـا رسـول الله، اقسـمْ بيننـا وبـين إخواننـا مـن المهاجريـن الأرضَ نصفـين. قـال: لا، ولكنهـم يكفونكـم المؤونـة، وتقاسـمونهم الثمـرة، والأرض أرضكـم. قالـوا: رضينـا. وقـد بلـغ مـن فضـل إيثارهـم أن أهـدي لرجـل مـن أصحـاب رسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم) رأس شـاة، فقـال: إن أخـي فلانـا وعيالـه أحـوج إلى هـذا منـا. فبعـث بـه إليـه. فلـم يـزل يبعـث بـه واحـد إلى آخـر حتـى تداولهـا سـبعة أهـل أبيـات (بيـوت)، حتـى رجعـت إلى الأول، فنزلـت الآيـة ﴿ويؤثـرون عـلى أنفسـهم﴾[1].

هـذه القصـص وغيرهـا كثـير، توضـح متانـة الصـف المسـلم، وكيـف أن القيـم العليـا والمشـاعر السـامية، التـي تجمعهـا الأخـوة، كانـت عنوانـا وملمحـا لهـا، لنخـرج بنتيجـة مفادهـا أن الإسـلام إذا طبّـق كرابطـة وأخـوة وممارسـات، فإنـه يعـوض أصحابـه عـن فـراق أقـرب أقربائهـم، وعـن فـراق بلدانهـم وأوطانهـم، لأنهـم وجـدوا في مسـتقبليهم ومُضيفيهـم خـير عـون، وأرقـى ترحـاب، وأسـمى علاقـة، التـي تفـوق مواثيـق حقـوق المهاجريـن في عصرنـا، لأنهـا تتأسـس عـلى قيـم الإسـلام الرفيعـة، التـي تمـدّ المهاجـر ومسـتقبليه بمرجعيـة أخلاقيـة وقيميـة راقيـة.

ولننظـر عـلى سـبيل المثـال في الحقـوق التـي توجبهـا مواثيـق حقـوق الإنسـان الدوليـة، فيـما يتعلـق بالهجـرة. حيـث تشـتمل عـلى مجموعـة المبادئ

(١) أسباب النزول، ص٤٣٩، ٤٤٠.

الأساسية، على أسس أبرزها: عدم التمييز، وتفعيل العدالة والمساواة، والمسارعة في المساعدة والإنقاذ، وحوكمة الحدود Border governance بمعنى فتح الحدود لكل طالب مساعدة ولاجئ ومهاجر وفار من حروب أو كوارث أو مظالم، وحماية المهاجر من العنف والاستغلال exploitation بكافة أشكالها، وحق شمل العائلات، وحماية حقوق الأطفال المهاجرين، والحق في الصحة والتعليم والغذاء والحصول على المعلومات، مع توفير آليات للرصد والمساءلة Monitoring and accountability للقائمين على شؤون المهاجرين في الدول المختلفة، وأيضا وإيجاد منظومة لحفظ حقوق المدافعين عن المهاجرين، وأيضا جمع البيانات والمعلومات اللازمة وعدم حجبها Data collection and protection [١].

وهي مبادئ وإجراءات وآليات- إن تأملنا فيها- لا يمكن أن تخرج عن شريعة الإسلام وهديه، فالإسلام دين الإنسانية والفطرة والعدالة والمساواة. وإذا كانت هذه الحقوق قد صيغت صياغة عصرية قانونية وإجرائية، فإن المسلمين في العهد الأول، قدموا أروع الأمثلة التي يمكن من خلال دراستها أن نصوغ رؤية إسلامية شاملة تطرح في النقاش الدولي حول قضايا الهجرة والمهاجرين، نستنبطها من مصادر التشريع الإسلامي، واجتهادات الفقهاء والأصوليين، وأيضا نستند في ذلك إلى

(١) PRINCIPLES AND GUIDELINES, SUPPORTED BY PRACTICAL GUIDANCE, ON THE HUMAN RIGHTS PROTECTION OF MIGRANTS IN VULNERABLE SITUATIONS, United Nations, Human Rights, Office of The High Commissioner, March 2018, p1-3 & 7-10.

تجربة الجيل الأول من الصحابة عليهم الرضوان، وكيف أنهم قدموا أمثلة وضيئة وشامخة، تلهم الإنسانية جمعاء، في كيفية التعامل الإنساني مع من يأتي مهاجرا لائذا بهم.

****

لقد تطورت دلالة الهجرة من الجاهلية إلى الإسلام بشكل لافت، مما يدل على عظم التأثير الذي أحدثه الإسلام في الأفئدة والعقول، والأرواح والنفوس، وفي البنية الاجتماعية والحياة السياسية. فقد انحصرت دلالة الهجرة في الاستخدام اللغوي الجاهلي في دلالات مادية وجسدية، تتعلق بمفارقة البادية والعيش في المدن والقرى، وكذلك في المبالغة في الأوصاف الجسدية. وفي السياقات القرآنية تحولت إلى دلالة روحية، تبدأ بالهجرة إلى الله، واللجوء إليه، ثم الدلالة المادية بالانتقال من دار الكفر إلى دار الهجرة/ الإسلام، التي نالت شرف تسميتها المدينة المنورة، وظلت عنوانا لها طيلة التاريخ الإسلامي، كما اكتسبت لفظة الهجرة بإيحاءات جديدة، تتصل بهجرة المعاصي، وترك الآثام، والهجر الجميل في التعامل مع المشركين. أي أنها تجاوزت الدلالة المادية الجاهلية، إلى دلالة مادية، ومكانية، وروحية، وأخلاقية، في الإسلام، بل إنها صارت علامة في التاريخ، والفكر، والثقافة الإسلامية، على مر العصور.

وكما سنرى في المباحث القادمة، فإن دلالات اللفظ في الجاهلية والقرآن، تحققت في أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكذلك

في أحـداث الهجـرة في السـيرة النبويـة، وأيضـا في تجليـات اللفـظ في العلـوم الإسـلامية: فقهـا، وعقيـدة، وتهذيبـا، وأخلاقـا؛ لنكتشـف أن الهجـرة لم تعـد مجـرد لفـظ، يتـم توظيفـه لغويـا، في مواضـع وسـياقات مختلفـة، وإنـما هـو علامـة عـلى مفهـوم متأصل عـن أهميـة الهجـرة إلى الله في كل وقـت، والهجرة مـن أرض الـشرك إلى ديـار الإيـمان، والهجـرة مـن الدنيـا وقـت المحـن، والهجـرة إلى أرض الله الواسـعة، إذا ضـاق الـرزق، والهجـرة لنـشر الإسـلام في إطـار الخلافـة الإسـلامية الواسـعة، التـي تحتـاج إلى الدعـوة للإسـلام، مـن خـلال اسـتقرار المسـلمين في البلـدان الجديـدة. وبذلـك، تكـون الهجـرة متخطيـة جغرافيـة المـكان، وزمنيـة التاريـخ، وثقافـة الإنسـان.

الفصل الثاني

الهجرة في السيرة العطرة

منهجية قراءة السيرة والهجرة:

لا يمكن دراسة مفهوم الهجرة في الإسلام، بدون دراسة السيرة النبوية، وفهم أحداثها المفصَّلة، والعوامل التي أدت إلى هجرة الرسول وأصحابه، ذلك أن سيرة النبي وسنته المطهرة تمثلان تطبيقا للمنهج القرآني في الحياة والسلوك، نعرف من خلالهما كيفية تفاعل الرسول وصحابته مع الظروف المحيطة بالدعوة والضغوط التي تعرضوا لها، ما بين ابتلاءات وعطاءات، وتراجعات وانتصارات، حتى وفقهم الله إلى قيام دولتهم. التي امتدت لتشمل الجزيرة العربية كلها، قبل وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ثم واصل صحابته وخلفاؤه الراشدون من بعده نشر الإسلام في الأرض.

وفي هذا الصدد، علينا إدراك أن قراءة مفهوم الهجرة وتحليله لا ينفك بأي حال عن البعد الديني، شأنه شأن كل الأحداث والمواقف في السيرة النبوية، التي يحاول بعض الكتّاب والمؤرخين العلمانيين تفسيرَها ضمن أطر سياسية وعسكرية بالمنظور الدنيوي، مدعيا الحياد والموضوعية، وهم في الحقيقة يريدون نزع الرؤية الإسلامية عنها، فتأتي القراءة مبتسرة مقتطعة، لا روح ولا فكر وراءها، وإنما مجرد تحليلات جافة المحتوى، غير وافية، لأنها فقدت غطاءها وروحها التي تستقيها

مـن الهـدي القـرآني والإرشـاد النبـوي، والأمـر ينسـحب أيضـا عـلى كثـير مـن مجريـات التاريـخ الإسـلامي. لـذا، فإنـه مـن المهـم بمـكان تبنـي منهجيـة عامـة، وخاصـة لقـراءة السـيرة النبويـة، وأحداثهـا، التـي نقـترح أن تكـون وفقـا للنقـاط الآتيـة:

أولهـا: إن فَهـم مجمـل التاريـخ الإسـلامي وفهـم انتشـار الإسـلام، يسـتلزم العـودة إلى سـيرة النبـي (صـلى الله عليـه وسـلم) بوصفهـا الركيـزة الأساسـية فيـه، لـذا، قـام جـلّ المؤرخـين المسـلمين بتقديـم سـيرة مفصلـة عـن الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم)، إمـا في كتـب مسـتقلة، أو في بدايـات كتبهـم التاريخيـة الموسـوعية. ومـن أبـرز هـؤلاء: ابـن كثـير، في موسـوعته التاريخيـة الكـبرى «البدايـة والنهايـة»، حيـث ظهـر حرصـه عـلى أن تكـون موسـوعته فريـدة في سردياتهـا التاريخيـة توثيقـا وترتيبـا وتمحيصـا، واسـتهلها بكتابـة عميقـة وشـاملة للسـيرة النبويـة، جامعـا الروايـات الـواردة بشـأنها مـن كتـب الحديـث والسـيرة، مـع تحقيقهـا ونقدهـا وتبيـين صحتهـا مـن ضعفهـا، كـما علـق عـلى كثـير مـن الأحـداث تفسـيرا وإيضاحـا. ومـن قبلـه، ومـن بعـده تـم تأليـف كتـب وفـق هـذا المنهـج، ألا وهـو منهـج جمـع الروايـات وترتيبهـا ترتيبًـا زمنيًـا يبـدأ مـن قبيـل بعثـة النبـي وحتـى وفاتـه صـلى الله عليـه وسـلم، حاويـة كل مـا حـدث ووقـع للرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم)، وعندمـا نقرؤهـا، كأننـا نعايـش هـذه الأجـواء المباركـة، ونعـرف مـدى العثـرات والابتـلاءات التـي تعرضـت لهـا الجماعـة المؤمنـة، فـلا عجـب أن تكـون السـيرة فرعـا مسـتقلا مـن العلـوم الإسـلامية، نبـت

واستوى من خلال مئات المؤلفات التوثيقية والتحليلية له.

ثانيها: تُفسِّرُ السيرة النبوية حركة المسلمين في فتوحاتهم، وسعيهم لنشر رسالتهم، بين شعوب الأرض، ونتعرف من خلالها على شخصيات الصحابة الذين تربوا على أيدي الرسول، وعاشوا معه المحنة والمنّة، ثم كيف تسلموا الراية من بعده، ساعين إلى مواصلة رسالة الإسلام ونشرها في أنحاء الأرض. وبعبارة أخرى، لن نفهم أحداث التاريخ الإسلامي إلا بدراسة مفصلة للسيرة النبوية وفقهها لنعرف أسباب حركة المسلمين في الأرض، ونهج المسلمين في إيصال رسالة الإسلام.

ثالثها: إن حدث الهجرة ومفهومه يمثلان محورا أساسيا على المستوى الفكري والحركي في السيرة النبوية، بل كان أساسا في المفاهيم الدينية والسياسية، ذلك أنها تعني -من المنظور المكاني المادي- أمرينِ: حماية الدعوة بالانتقال إلى أرض جديدة، والسعي إلى نشر الدعوة لدى جماعة أو شعب جديد. وقد تحقق الأمران في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، من خلال الهجرتين: الأولى إلى الحبشة، والثانية إلى المدينة. ومن هنا يمكن قراءة حركة الفتوحات الإسلامية الكبرى، في ضوء ما تلقاه الصحابة عليهم الرضوان في مدرسة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، لنعرف أحد الأسباب لحركة الهجرات المتتابعة التي قامت بها القبائل العربية إلى البلدان المفتوحة، حاملةً: الإسلام الدين والرسالة، والعربية اللغة والثقافة، فما كان للإسلام أن ينتشر دون وجود مسلمين مؤمنين به وبقيمه العليا في

هداية الإنسان، وتحريره من العبودية والمظالم، بجانب السعي إلى الانتقال إلى أراض جديدة للعيش الكريم لهم، استطاعوا فيها الدعوة والتعايش والامتزاج مع السكان الأصليين.

رابعها: إن أروع مدارس كتابة السيرة المعاصرة هي مدرسة الكتابات المتخصصة، تلك المدرسة التي تعتمد على تناول الباحث موضوعا ما، ومن ثم يبحث فيه ويعمقه في السيرة والتاريخ الإسلامي، بموضوعية ودون تكلف وبلا اعتماد على روايات ضعيفة[1]، بما يعني أن يتجه الباحثون في السيرة النبوية إلى قراءتها وفق منهجيات جديدة، تسلط الضوء على المستفاد من السيرة وأحداثها، وتستند في ذلك إلى الكتب التي ذكرت الروايات الصحيحة، واستبعدت الضعيف والموضوع منها، وهي كثيرة ومتعددة. أي يتم البناء على ما أنجز على صعيد تحقيق مرويات السيرة النبوية، عبر التركيز على موضوعات معينة، مثل تركيزنا على موضوع الهجرة، وأبعاده، ومسبباته، وتلك هي منهجيتنا في هذا المبحث، حيث سنسعى إلى قراءة (الهجرة) ضمن أحداث السيرة النبوية من خلال دراستها في إطار كلي لأحداث السيرة، وتطوراتها، وعلاقتها مع مشركي مكة، وتآمرهم على الدعوة الإسلامية، لنعيَ أن حدث الهجرة النبوية هو حلقة أساسية في دعوة الرسول للإسلام، وقد سبقته أحداث دفعت الرسول لهذا السبيل، تنفيذا لأمر الله، وحمايةً لدعوته، وتوفيرا للأمن للفئة المؤمنة. هؤلاء

---

(١) مناهج كتابة السيرة النبوية، عبد المنعم منيب، موقع طريق الإسلام، ١٢/ ٤/ ٢٠١٥م
http://iswy.co/e14tqj

هم الجيل الأول من الصحابة، الذين آمنوا بالدعوة، وتحملوا تنكيل الكفار لهم، ثم مناصرتهم للإسلام والرسول؛ وكان هذا الجيل ومعهم الأنصار، وكل من عاصر معارك وغزوات ووقائع التمكين الأولي للإسلام؛ كانوا هم الساعون للفتوحات، فمنهم الخلفاء وقادة الجيوش، الذين اضطلعوا بمواصلة الرسالة، وحماية الدولة في حروب الردة، ثم السعي إلى تحقيق بشارات الرسول(صلى الله عليه وسلم) في فتح بلاد فارس والروم، ونشر الإسلام في الأرض.

ونسعى في هذا الفصل إلى مناقشة الهجرة بوصفها حدثا واستراتيجية محورية في السيرة النبوية، فهي ليست حدثا ضمن أحداث، وإنما هي حدث أساسي، سبقته مقدمات ومسببات، وتبعته نتائج ومآلات.

كما أننا لن نقتصر على استعراض الأحداث والمواقف، وإنما سنقرأ دائما هذه الأحداث برؤية تحليلية ضمن منظور شامل، يتخذ من حدث الهجرة إلى المدينة محورا، ويرنو إلى التغييرات التي حدثت على مستويين: مستوى الصف المسلم الذي تكوّن في المدينة المنورة ومارس شعائره بحرية، ومستوى العرب في القرى، والأعراب في البادية، وكيف تعاطوا وتأثروا بالهجرة. وستكون مناقشتنا على مبحثين، الأول يعتني بالمقدمات التي سبقت الهجرة، والثاني يناقش حدث الهجرة، وآثاره، وصولا إلى فتح مكة، كنتيجة مباشرة له.

المبحث الأول

الدعوة المكية ومقدمات الهجرة

رحمة الرسول ولجاجة المشركين:

لكي نعي حدث الهجرة في السيرة النبوية ونفهم أسبابه؛ يتوجب استعراض مجمل الأوضاع التي عانى منها الرسول وأصحابه في مكة المكرمة، على أيدي المشركين، فقد لقى المؤمنون عنتا وتعذيبا ومغالاة في الخصومة، مع عناد شديد وجدال حاد في الحوار والمسألة، ومع ذلك لم يمل ولم يتوانَ (صلى الله عليه وسلم) عن دعوتهم، ثم إن المشركين طرحوا طلبات تهدف إلى إظهار عجز الرسول، ومنها سؤالهم - كما يروي ابن عباس (رضي الله عنهما)- إلى النبيَ (صلى الله عليه وسلم) « أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحّي عنهم الجبال، فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم»[(١)]. وفي رواية أخرى، قال المشركون لمحمد (صلى الله عليه وسلم): » يا محمد إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء، فمنهم من سخرت له الريح. ومنهم من كان يحيي الموتى، فإن سرك أن نؤمن بك ونصدقك، فادع ربك أن يكون لنا الصفا ذهبا. فأوحى الله إليه: إني قد سمعت الذي قالوا، فإن شئت أن نفعل الذي قالوا، فإن لم يؤمنوا نزل العذاب، فإنه ليس بعد نزول الآية مناظرة،

(١) صحيح السيرة النبوية، للحافظ ابن كثير، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمّان، الأردن- مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ، ص١٥٩ . رواه أحمد والنسائي، والحاكم، وقال صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

وإن شئت أن تستأني قومك استأنيت بها، قال: يا رب أستأني»[1].

فها هم يسألونه أن يجعل جبل الصفا ذهبا، وأن يبعد الجبال عن مكة، لتصبح سهلا يمكن زراعته، فيأتيه الرد أنهم إذا كفروا هذه المرة، فإن الهلاك سيصيبهم، أو سيأتيهم العذاب، فآثر الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يحفظهم، وهو يعلم مدى لجاجتهم، وأن مسألتهم ليست من أجل الإيمان بدعوته، وإنما التحدي له. وتلك من مظاهر رحمته بقومه.

وقد أنزل الله تعالى في هذه المسألة الآية الكريمة: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾[2]، وقد ورد في تفسيرها أن الله تعالى يخبر نبيه أنه ما منعنا أن نرسل بالآيات التي سألها قومك؛ إلا أن كان من قبلهم من الأمم المكذبة، سألوا ذلك مثل سؤالهم؛ فلما آتاهم ما سألوا منه كذَّبوا رسلهم، فلم يصدقوا مع مجيء الآيات، فعوجلوا (أي أهلكوا)، لأنا لو أرسلنا بها إليها، فكذبوا بها، سلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلها. وذُكِر أيضا: أن (هذا) رحمة لكم أيتها الأمة، إنا لو أرسلنا بالآيات فكذبتم بها، أصابكم ما أصاب من قبلكم. وقيل: لم يأت قرية بآية فيكذبوا بها إلا عذبوا، فلو جعلت لهم الصفا ذهبا ثم لم يؤمنوا عُذِّبوا[3].

وجوهر الطلب قمة اللجاجة، ذلك أن الدعوة لرسالة التوحيد،

---

(١) تفسير الطبري، ج١٧، ص٤٧٧.
(٢) سورة الإسراء، الآية (٥٩).
(٣) تفسير الطبري، ج١٧، ص٤٧٧.

هـي جوهـر الإسـلام، وأن القضيـة ليسـت في المعجـزات، إنـما في الإيـمان بـالله تعـالى، وفهـم حقيقـة التوحيـد وتـرك الكفـر، ومظاهـر الـشرك، فـما أكثـر المعجـزات التـي جـاء بهـا الرسـول لأهـل مكـة! والمعجـزة الكـبرى هـي القـرآن الكريـم بإعجـازه اللغـوي والبلاغـي وسـائر أوجـه إعجـازه الأخـرى، وقـد سـأل المشركـون مـن قبـل الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) أن يريهـم معجـزة حسـية، أسـوة بالأنبيـاء مـن قبلـه. بـما يفيـد أنهم اسـتمعوا لـه مـرات ومـرات، وهـو يحدثهـم عـن الأنبيـاء الذيـن سـبقوه، وكيـف جـاءوا بالمعجـزات.

وقـد جاءهـم الرسـول بمعجـزات عديـدة، شـاهدوها جميعـا بـأم أعينهـم، والمثـال عـلى ذلـك -كـما يـروي أنـس بـن مالـك (رضي الله عنـه)- أن أهـل مكـة سـألوا الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) أن يُرِيَهـم آيـة، فأراهـم القمـر شِـقَّتين، حتـى رأوا حِـراء بينهـما[1]، وكان القمـر عنـد انشـقاقه بـدرًا. وقـد سـجل الله ذكـر هـذه المعجـزة في محكـم آياتـه، فقـال جـل شـأنه: ﴿اقْتَرَبَـتِ السَّـاعَةُ وَانْشَـقَّ الْقَمَـرُ* وَإِنْ يَـرَوْا آيَـةً يُعْرِضُـوا وَيَقُولُـوا سِـحْرٌ مُسْـتَمِرٌّ﴾[2]، فأنكـروا مـا هـو حقيقـة أمامهـم، واتهمـوا الرسـول بالسـحر، أي سـحر أعينهـم، ولكـن مـاذا عـن أهـل الآفـاق، والقبائـل، الذيـن تحدثـوا عـن مشـهد شـق القمـر؟

لقـد كانـت هنـاك أسـباب عديـدة تمنـع كفـار قريـش مـن الإيـمان

(١) صحيـح البخـاري، للإمـام أبي عبـد الله محمـد بـن إسـماعيل البخـاري، دار ابـن كثـير، بـيروت – دمشـق، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م، ص٩٤٧، رقـم الحديـث ٣٨٦٨ .

(٢) سورة القمر، الآيتان (١، ٢).

بمحمد، كلها عوامل تتعلق بالدنيا، وبذواتهم المتكبرة، وعنادهم، وحرصهم على استمرار مكانتهم بين قومهم، فعن المغيرة بن شعبة قال: إن أول يوم عرفت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة، إذا لقينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأبي جهل: « يا أبا الحكم، هلمّ إلى الله عز وجل، وإلى رسوله أدعوك إلى الله، قال أبو جهل: يا محمد، هل أنت منتهٍ عن سب آلهتنا؟ هل تريد إلا أن نشهد أن قد بلغت، فنحن نشهد أن قد بلغت، فوالله لو أني أعلم أن ما تقول حق ما اتبعتك. فانصرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وأقبل علي (يقصد أن أبا جهل يحدث المغيرة)، فقال: فوالله إني لأعلم أن ما يقول حقا، ولكن بني قصي، قالوا: فينا الحجابة، فقلنا: نعم، فقالوا: فينا الندوة، فقلنا: نعم، ثم قالوا: فينا اللواء، فقلنا: نعم، قالوا: فينا السقاية، فقلنا: نعم، ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب، قالوا: منا نبي والله لا أفعل »[1].

الحديث السابق يوضح ملمحا أساسيا من حقيقة الصراع بين مشركي قريش، والرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، فقد كان صراعا يحكمه المنطق الدنيوي عند المشركين، خاصة مع رجل مثل أبي جهل، يمثل رأسا من رؤوس الكفر، وواحدا من أبرز سادات

(١) صحيح السيرة النبوية، ابن كثير، ص١٦٢. وذكر الألباني أن الحديث إسناده حسن، والحديث في: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٨ - ١٩٨٨، رقم الحديث ٥٣٩.

قريش. وكنيته أبو جهل جاءت بعد قتله السيدة المسلمة سمية بنت خياط، بطعنها بحربة في سوءتها. وفي الحديث السابق، يناديه الرسول بأبي الحكم، كنيته الحقيقية، ويدعوه إلى الإيمان بالله تعالى ورسوله. والغريب أن أبا جهل يحاوره وهو مدرك أن مهمة الرسول البلاغ عملا بقوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾[1]، فيشهد أبو جهل للرسول بأنه قد بلّغ الدعوة، وأقام الحجة، وينفي أي رغبة له في اتباع الحق، حتى لو علم أنه حق. وتلك مسألة نفسية، تتصل بالمدعو نفسه، أنه غير مبال بالحق ولا البحث عنه، وكما أوضح أبو جهل في حواره مع المغيرة بن شعبة، أنه لا يريد أن يفقد مكانته في قريش، ولا يريد أن يكون بنو قصي حائزين لكل سبق ورياسة وشرف في خدمة البيت، وفي زعامة أهل مكة، ثم في النبوة، وأبو جهل معلوم أنه من بني مخزوم، المنافسين لهم. فشتان بين الموقفين، موقف الرسول، وأبي جهل، الرسول يدعوه إلى الإيمان والخير، والثاني متجمد عند عقيدته، غائص في وحول الجاهلية، حيث العصبية القبلية، والتنافس على المكاسب والزعامات، والقضية ليست في هذا، فهناك من رؤوس الكفر من أسلم، وحسن إسلامه، وكان منهم أبو سفيان بن حرب، وعمر بن الخطاب وغيرهما.

وفي رواية أخرى، عن ابن عباس رضي الله عنهما: « أن الوليد بن المغيرة، جاء إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: يا عم، إن قومك يرون أن

(١) سورة المائدة، الآية (٩٩).

يجمعوا لك مالا، قال: لم؟ قال: ليعطوكه فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله. قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا، قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر له أو أنك كاره له. قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني، ولا أعلم برجزه ولا بقصيدته مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله، إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلا، وأنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: فدعني حتى أفكر فيه، فلما فكر، قال: هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت الآية الكريمة: ذرني ومن خلقت وحيدا[1].

هذه الرواية تشمل حوارا بليغا، بين أطراف ثلاثة: الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، تأثر الوليد بما سمع من تلاوة الرسول لآيات القرآن، فسعى أبو جهل إليه، حتى يصرفه عن دعوة محمد، لأنه يعلم مكانة الوليد بن المغيرة في قريش، وهو على درجة كبيرة من الذكاء والبلاغة والعقل، فعرض عليه المال، فسخر منه الوليد لأنه الأغنى مالا، والأعز جاها وولدا، ووصف القرآن بوصف لا نزال نردده حتى اليوم، ومع ذلك مات الوليد على الكفر.

المفارقة مع كل من: أبي جهل، والوليد بن المغيرة، هي إسلام أولادهما، فيصدق عليهم دعاء الرسول أن يخرج من أصلابهم من

(١) صحيح السيرة النبوية، ابن كثير، ص١٥٨، ١٥٩. وأيضا انظر: دلائل النبوة..، البيهقي، رقم الحديث ٥٣٢.

يوحـد الله ويؤمـن بالإسـلام.

فعـن عائشـة زوج النبـي (صـلى الله عليـه وسـلم) حدثتـه أنهـا قالـت لرسـول الله: يـا رسـول الله هـل أتـى عليـك يـوم كان أشـد مـن يـوم أحـد؟ فقـال: لقـد لقيـت مـن قومـك، وكان أشـد مـا لقيـت منهـم يـوم العقبـة، إذ عرضـت نفـسي عـلى ابـن عبـد ياليـل بـن عبـد كلال، فلـم يجبنـي إلى مـا أردتُ، فانطلقـتُ وأنـا مهمـوم عـلى وجهـي فلـم أسـتفق إلا بقـرن الثعالـب، فرفعـت رأسي فـإذا أنـا بسـحابة قـد أظلتنـي، فنظـرت فـإذا فيهـا جبريـل، فنـاداني فقـال: إن الله عـز وجـل قـد سـمع قـول قومـك لـك ومـا ردوا عليـك وقـد بعـث إليـك ملـك الجبـال لتأمـره بـما شـئت فيهـم. قـال: فنـاداني ملـك الجبـال وسـلم عـلي، ثـم قـال يـا محمـد، إن الله قـد سـمع قـول قومـك لـك وأنـا ملـك الجبـال وقـد بعثنـي ربـك إليـك لتأمـرني بأمـرك فـما شـئت إن شـئت أن أطبـق عليهـم الأخشـبين، فقـال لـه رسـول الله: بـل أرجـو أن يُخْـرِجَ الله مـن أصلابهـم مـن يعبـد الله وحـده لا يـشرك بـه شـيئا[1]، والأخشـبان همـا جبـلا مكـة: أبـو قبيـس، والجبـل الـذي يقابلـه[2].

الحديـث يشـير إلى عـودة الرسـول مـن رحلتـه إلى الطائـف، وقـد لقـي مـن قومهـا مـا لاقـاه مـن عنـت وسـخرية، وكان يومـا شـديدا عـلى نفسـه، ومـع ذلـك كان رحيـما بقومـه، ورفـض أن يتنـزل عليهـم عقـاب الله، وأن يتهـاوى الأخشـبان عـلى رؤوسـهم، فيمحـو صناديـد قريـش. لقـد تمسـك

---

(١) شرح النـووي عـلى صحيـح مسـلم، يحيـي بـن شرف النـووي، دار الخـبر للنـشر والتوزيـع، المملكـة العربيـة السـعودية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، كتـاب الجهـاد والسـير، رقـم الحديـث ١٧٩٥.

(٢) المرجع السابق، حاشية الشارح، ص٤٨٦.

الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالأمل في الجيل القادم، وأن يكون من أصلابهم أبناء موحدين بالله، متطوعين للجهاد، وقد حسن إسلامهم.

نخلص من الصورة المتقدمة عن موقف قريش من الرسول وصحبه إلى أن مشركيها كانوا شديدي العناد والجدال والعنت والتعذيب، وأنهم رأوا أن الإسلام خطر يهدد مكانتهم، خاصة أنهم سدنة البيت الحرام، والبنية القبلية التي كانت عليها عشائر مكة بنية تراتبية اجتماعية واقتصادية، وعرفوا أن الإسلام بالقيم التي يدعو لها سيكون سببا في تهاوي نظام حياتهم، وما ألفوه من شهوات. وتلك مشكلة كبرى، فالنفس البشرية ليس من السهل أن تغير ما اعتادت عليه من إشباع للملذات، خاصة إذا تقدم بها السن، وكانت ذات جاه ومال في قومها، ودعوة الإسلام تمثل التزاما بواجبات وفرائض وأخلاق، ستؤدي إلى تبديل شامل لحياتها. أيضا، فإن الالتزام بالإسلام سينتج نظاما اجتماعيا جديدا، يحطم العصبية القبلية، ويقيم العدالة والمساواة.

والعامل الأهم من قبل ومن بعد، كراهيتهم للإسلام، على الرغم من كل الخيرات التي يدعو لها القرآن الكريم، وما يرونه من الرسول من خلق حسن، وصبر على المحنة، والمقاطعة، والتعذيب، وأيضا عدم رد المسلمين إساءاتهم بعداوة، وإنما بالصبر والجلد، فتلك المرحلة لا تستلزم المواجهة، وإنما تثبيت المؤمنين على التوحيد.

الهجرة إلى الحبشة، الظروف والدروس:

كان لابد أن يحدث تغيير في مسار الدعوة على المستوى المكاني، ومن

هنا جاءت الهجرة الأولى إلى الحبشة، حيث كثر المسلمون وخاف منهم الكفار فاشتد أذاهم للرسول صلى الله عليه وسلم وفتنتهم إياهم، فأنزل الله تعالى: ﴿الذينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[1]، وقد ذكر ابن كثير أنه: يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ فِي مُهَاجَرَةِ الْحَبَشَةِ الَّذِينَ اشْتَدَّ أَذَى قَوْمِهِمْ لَهُمْ بِمَكَّةَ، حَتَّى خَرَجُوا مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِهِمْ إِلَى بِلَادِ الْحَبَشَةِ[2]. ونزلت آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾[3]، حيث يخبر الله تعالى عباده بأن أرضه واسعة، فاهربوا ممن منعكم من العمل بطاعته، وأن أرض الله لم تضق عليكم، كي تقيموا بموضع منها، لا يحل لكم المقام فيه، لما فيه من سوء وكفر وشرك، فإذا عمل بمكان منها بمعاصي الله، فلم تقدروا على تغييره، فاهربوا منه[4].

صيغة الخطاب في الآيتين عمومية، لا تتحدد بزمان أو مكان، ولكن مناسبة نزولها كما ورد في التفسير هو الهجرة إلى الحبشة، ليكون الدرس الأول للجماعة المسلمة، أنه لا ارتباط بأرض يعصى فيها الله، ويتأذى فيها المؤمنون، ولا بعشيرة أو قبيلة تحميه، وإنما الارتباط الأساسي للمسلم هو عقيدته، منها يستمد ثباته، وهي كيانه أينما رحل فإن جنته في قلبه، ما دام على إيمان تام وتوحيد خالص لله تعالى، والدرس الثاني هو أنه لا معنى

(١) سورة النحل، الآية (٤١).
(٢) تفسير ابن كثير، ج٤، ص٥٧٢.
(٣) سورة العنكبوت، الآية(٥٦).
(٤) تفسير الطبري، ج٢٠، ص٥٧، ٥٨.

لعصبية قبلية، وهم يرون قريش يناصبون العداء لأبناء مكة، غير مراعين لانتماءاتهم القبلية والعشائرية إلا في أحوال قليلة.

فكان الإذن لجماعة المؤمنين في مكة بالهجرة إلى الحبشة، حيث قال الرسول لهم: إن بها ملكا لا يظلم الناس عنده. فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلا وأربع نسوة، منهم عثمان بن عفان، وهو أول من خرج ومعه زوجته رقية بنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فأقاموا في الحبشة في أحسن جوار، فبلغهم أن قريشا أسلمت، وكان هذا الخبر كذبا فرجعوا إلى مكة، فلما بلغهم أن الأمر أشد مما كان رجع منهم من رجع ودخل جماعة، فلقوا من قريش أذى شديدا، وكان ممن دخل عبد الله بن مسعود. ثم أُذِن لهم في الهجرة ثانيا إلى الحبشة، فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلا، (إن كان فيهم عمار، فإنه يشك فيه) ومن النساء ثمان عشرة امرأة، فأقاموا عند النجاشي على أحسن حال، فبلغ ذلك قريشا، فأرسلوا عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة في جماعة، ليكيدوهم عند النجاشي، فرد الله كيدهم في نحورهم[1].

وقد ذُكر أن الهجرة الأولى كانت مدتها ثلاثة أشهر، وعاد المسلمون بعدها إلى مكة بسبب وصول أخبار بعثت في نفوس المهاجرين الأمل، حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب(رضي الله عنه)، عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، عصبية لابن أخيه في البدء، ثم شرح الله صدره للإسلام، فثبت عليه، وكان حمزة من أعز فتيان قريش،

---

(١) زاد المعاد، الإمام شمس الدين أبي عبد الله ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م، ج١، ص٩٥.

وأشدهم شكيمة، فلما أسلم عرفت قريش أن عمه سيمنعه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه. ثم أسلم عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، فازداد الرسول والمسلمون منعةً. ولكن قريشا واجهت إسلام حمزة وعمر بتدبيرات جديدة، عنوانها المكر والدهاء من ناحية، والقسوة والعنف من ناحية أخرى، حيث لجأت إلى سلاح المقاطعة الاقتصادية للرسول وصحابته، فعاد المهاجرون إلى الحبشة ثانية، وانضم إليهم عدد كبير، ممن لم يهاجروا من قبل(١).

كان العامل الأساسي في الهجرتين الأولى والثانية إلى الحبشة، هو ما لقيه المسلمون من تعذيب وإيذاء، وقد جاء اختيار الرسول للحبشة، لأن بها ملكا عادلا، وهذا دليل على أن من أراد الهجرة، فعليه أن يختار أرضا بها سلطة تقيم العدل. وقد ذكر هنا الملك، والمقصود هو النجاشي، لأن بيده السطوة والقوة، على إقامة العدل، كما أنه من أهل الكتاب (النصارى)، الذين سيفهمون حتما ما جاء به الإسلام من هداية ربانية، وهو ما ظهر بعد ذلك، عندما لم يقتنع النجاشي بمكر عمرو بن العاص، وفهم رسالة التوحيد، عندما تليت عليه آيات القرآن.

إن أهم الدروس المستفادة من الهجرة إلى الحبشة درسان أساسيان؛ الأول: حماية المؤمنين من التآمر والتعذيب والقهر، الذي يمكن أن يؤدي إلى افتتانهم في دينهم. وهو ما تحقق بالفعل، حيث غادر مكة غالبية الصحابة، ويُقدّر عددهم في كثير من الروايات حوالي ثلاثة وثمانين

---

(١) السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، دار الهدى المحمدي، القاهرة، ط١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م، ج١، ص٢٤٧-٢٤٩.

رجلا، وتسع عشرة امرأة[1]، والثاني: البحث عن مكان آمن يكون قاعدة جديدة للدعوة، وقد ظل عدد من المسلمين في أرض الحبشة، حتى بعد الهجرة إلى المدينة المنورة، ولم يرسل الرسول في طلبهم، بل ظل عدد منهم هناك، ولم يحضروا للمشاركة في غزوات: بدر، وأحد، والخندق، وكذلك في صلح الحديبية[2]، وإنما جاءوا عند فتح خيبر، حيث وفد إليه جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه)، الذي هاجر إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية ومعه امرأته أسماء بنت عميس، فلم يزل بأرض الحبشة حتى هاجر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة، ثم هاجر إليه وهو بخيبر، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): « لا أدري بأيهما أفرح، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟ »[3]، بما يعني استقرارهم في هذه الأرض، على المستوى الفردي أو العائلي، وإقامة شعائر دينهم بحرية، مع تواصلهم المستمر مع الرسول في مكة، حيث كانت تأتيهم الآيات القرآنية المنزلة، فيحفظونها، ويتدارسونها فيما بينهم. إذن، استطاعوا إقامة مجتمع إسلامي مصغر، يعيش في أمن وطمأنينة، وقد عاشوا في أرض الحبشة، وتنعموا بخيرات الله فيها، وتعايشوا مع سكانها، وامتزجوا معهم.

كما أن طول إقامة بعض الصحابة عليهم الرضوان في الحبشة،

---

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء، ط٦، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م، ج١، ص٦٢، ٦٣.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٦٦.

(٣) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، صطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١ هـ، ١٩٩٠، ج٣، رقم الحديث: ٤٨٧٨

التـي بلغـت خمسـة عـشر عامـا؛ تعنـي سـعيهم إلى نـشر الإسـلام هنـاك، ولم تكـن الهجـرة بهـدف النجـاة بأنفسـهم فقـط، وإلا كـما يشـير صاحـب الظـلال: « فلـو كان الأمـر كذلـك لهاجـر إذن أقـل النـاس جاهـا وقـوة ومنعـة مـن المسـلمين، غـير أن الأمـر كان عـلى الضـد مـن هـذا، فالمـوالي المسـتضعفون الذيـن كان ينصـب عليهـم معظـم الاضطهـاد والتعذيـب والفتنـة لم يهاجـروا. إنـما هاجـر رجـال ذوو عصبيـات، لهـم مـن عصبيتهـم- في بيئـة قبليـة -مـا يعصمهـم مـن الأذى، ويحميهـم مـن الفتنـة» وكان عـدد القرشـيين يؤلـف غالبيـة المهاجريـن، منهـم جعفـر بـن أبي طالـب- وأبـوه وفتيـان بنـي هاشـم معـه هـم الذيـن كانـوا يحمـون النبـي (صـلى الله عليـه وسـلم) ومنهـم جعفـر بـن أبي طالـب، وأبـوه (أبـو طالـب عـم النبـي) وفتيـان بنـي هاشـم معـه هـم الذيـن كانـوا يحمـون النبـي (صـلى الله عليـه وسـلم) ومنهـم الزبـير بـن العـوام، وعبـد الرحمـن بـن عـوف، وأبـو سـلمة المخزومـي، وعثـمان بـن عفـان الأمـوي ....، وغيرهـم. وهاجـرت نسـاء كذلـك مـن أشرف بيوتـات مكـة مـا كان الأذى لينالهـن أبـدا، وربـما كان وراء هـذه الهجـرة أسـباب أخـرى، كأن تثـير هـزة في أوسـاط البيـوت الكبـيرة في قريـش، وأبناؤهـا الكـرام المكرمـون يهاجـرون بعقيدتهـم، فـرارا مـن الجاهليـة، تاركـين وراءهـم كل وشـائج القربـى، في بيئـة قبليـة تهزهـا هـذه الهجـرة عـلى هـذا النحـو هـزا عنيفـا؛ وبخاصـة حـين يكـون مـن بـين المهاجريـن مثـل أم حبيبـة، بنـت أبي سـفيان، زعيـم الجاهليـة، وأكـبر المتصدّيـن لحـرب العقيـدة الجديـدة وصاحبهـا، ولكـن مثـل هـذه الأسـباب

لا تنفي احتمال أن تكون الهجرة إلى الحبشة أحد الاتجاهات المتكررة في البحث عن قاعدة حرة، أو آمنة على الأقل للدعوة الجديدة»[1].

يشير الكلام السابق إلى أمور متعددة، تساهم في فهم الهجرة إلى الحبشة وأبعادها، لأنه يدل على وعي الرسول (صلى الله عليه وسلم) بأهمية إيجاد أرض بديلة، تكون حماية للمسلمين من جهة، وتكون أيضا أرضا جديدة لنشر الإسلام فيها، وقد اختار الحبشة لأنها أبعد عن سطوة قريش، فلم يختر مثلا اليمن أو قبيلة من القبائل العربية القريبة أو البعيدة من مكة، نظرا لأن قريشا كانت تتمتع بنفوذ قوي على هذه القبائل، وكان المسلمون لا يزالون قلة، لم يتجاوز عددهم المئة إلا بقليل، فكان اختيار أرض الحبشة اختيارا دقيقا، فهي تحت حكم ملك قوي النفوذ، كتابيّ الديانة، وهي أرض بعيدة نسبيا يتطلب الذهاب إليها عبور البحر.

وقد كان الصحابة المهاجرون على معرفة بالحبشة، لأنها كانت متجرا لقريش، يجدون فيها رفاءً من الرزق وأمنا وسوقا حسنا، وأن قريش كانت ترحل إليها في الشتاء، لأنها أرض دفئة[2]، مما يوفر للمسلمين أيضا إمكانية العمل في أرضها الزراعية، أو في أسواقها، وصناعتها، ومتاجرها. كذلك يسهل التواصل مع الرسول في مكة، من خلال حركة التجارة والسفر المتصلة بين مكة والحبشة.

ولا شك أن المهاجرين المسلمين إلى الحبشة، واجهوا الاختلاف في

---

(١) في ظلال القرآن، ج١، ص٢٩.

(٢) السيرة النبوية، الصلابي، ج١، ص٢٤٢.

اللغـة والديـن والعـادات والتقاليـد عـن بـلاد العـرب، وواضـح أن النجاشي تأثّـر بالإسـلام لوجودهـم، بدليـل أنـه أسـلم، كـما تذكـر روايـات موثوقـة في هـذا الشـأن.

وخـير شـاهد عـلى جهودهم في نشر الإسـلام، ما جـاء حول قصة السـتين الذيـن أرسـلهم النجاشي، بقيـادة ابنه لكن السـفينة غرقت بهم السـفينة. ومن الثابـت أن النجـاشي كتب إلى رسـول الله، قائلا: بسـم الله الرحمـن الرحيم، إلى محمـد رسـول الله، مـن النجـاشي الأصحم بـن أبجر. سـلام عليك يـا نبي الله ورحمتـه وبركاتـه مـن الله الـذي لا إلـه إلا هـو الـذي هـداني إلى الإسـلام. أما بعـد، فقـد بلغنـي كتابك- يا رسـول الله- فيـما ذكرت من أمر عيسـى. فورب السـماء والأرض إن عيسـى مـا يزيـد على ما ذكـرت إنه كما قلـت. وقد عرفت مـا بعثـت بـه إلينا، وقـد قرينـا ابن عمـك وأصحابه، فأشـهد أنك رسـول الله صادقـا مصدقـا، وقـد بايعتـك وبايعت ابن عمك وأسـلمت على يـده لله رب العالمـين. وقـد بعثـت إليـك بابني أرها بـن الأصحم بـن أبجر، فـإني لا أملك إلا نفـسي وإن شـئت أن آتيـك فعلـتُ يـا رسـول الله، فإني أشـهد أن مـا تقول حق. والسـلام عليك يـا رسـول الله»[1]. فالثابت أن النجاشي قد أسـلم عندما دعـاه الرسـول إلى الإسـلام، ولكنه أخفـى إيمانه عـن قومه، لما علمـه فيهم من الثبـات عـلى النصرانيـة، وجمودهـم على عقيدتهـم، وقـد نعى الرسـول (صلى الله عليـه وسـلم) النجـاشي في اليـوم الذي تـوفي فيـه، وخرج مـع أصحابه إلى المصـلى، وصـلى عليـه صـلاة الغائـب، وكان ذلك في سـنة تسـعة مـن الهجرة،

(١) تاريـخ الأمـم والملـوك (تاريـخ الطـبري)، محمـد بـن جريـر الطـبري أبـو جعفـر، تحقيـق: أبـو صهيـب الكرمـي، بيـت الأفـكار الدوليـة، بـيروت، د ت، ج٢، ص٦٦١ .

وقيل سنة ثمانية، قبل فتح مكة[1]. وعن جابر (رضي الله عنه)، قال النبي (صلى الله عليه وسلم) حين مات النجاشي: مات اليوم رجل صالح، فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة[2].

وبالطبع فإن مهاجري الحبشة لم تستمر غالبيتهم في مهجرهم الأول في الحبشة، ذلك لأنهم لما سمعوا بهجرة الرسول إلى المدينة المنورة، رجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلا، وتسع من النساء، ومات منهم رجلان بمكة، وحبس سبعة، وشهد منهم بدرا أربعة وعشرون رجلا[3]، مما يعني أن بعضهم عاد إلى مكة المكرمة أولا، فمنعهم كفار قريش من مغادرة مكة، ومنهم صحابيان جليلان قد مات بمكة، في حين نجح الباقون في اللحاق بالرسول وأصحابه في دار الهجرة الجديد، ليشاركوا في الدعوة والنصرة والجهاد. والشاهد هنا أنهم ما كانوا باحثين عن الأمان فقط، وإلا لظلوا في الحبشة، وإنما كانوا باحثين عن مزيد من الأجر، وصحبة رسول الله.

فكان مشهد الهجرة إلى الحبشة وقتما هاجر المسلمون إلى المدينة المنورة؛ على قسمين: قسم بقي متمسكا بدينه هناك وكأنه يحافظ للمسلمين على علاقتهم بالأحباش وملكها، وقسم هاجر من جديد إلى المدينة مواصلا الدعوة. وكانت العودة الثانية لبقية المهاجرين، بطلب من الرسول في الكتاب الذي وجهه إلى النجاشي، يدعوه فيه إلى الإسلام، وذلك في شهر

(١) السيرة النبوية، الصلابي، ج١، ص٢٥٢، ٢٥٣.

(٢) صحيح البخاري، ص٩٤٩، رقم الحديث ٣٨٧٧.

(٣) مختصر سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، محمد بن عبد الوهاب، نشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف، المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٤١٨هـ، ص٨٨.

ربيع سنة سبعة من الهجرة، ويطلب منه أن يرسل بقية المهاجرين عنده، كما طلب منه أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، التي كانت زوجة لعبيد الله بن جحش، وكان قد تنصر، ومات نصرانيا. فلما قرأ النجاشي الكتاب، أسلم، وقال: لو قدرت أن آتيه لأتيته، وزوّجه أم حبيبة، وأصدقها عنه أربعمائة دينار، وحمل بقية أصحابه المهاجرين في سفينتين، فقدموا إلى رسول الله، بعد فتح خيبر[1].

ولا نظن أن الدعوة للإسلام في الحبشة كانت ميسرة كما ذهبت بعض الكتابات، ذلك لأن ديانة الحبشة نصرانية وراسخة فيها منذ قرون، وفيها كثير من الكنائس والأديرة، يقوم عليها سدنة ورهبان وقساوسة لهم كلمة مؤثرة في الحياة الاجتماعية والسياسية[2]. ولولا حكمة النجاشي، وفهمه العميق للإسلام ورسالته، لكان قد سلّم المسلمين المهاجرين له إلى عمرو بن العاص، بتأثير من البطارقة الذين أغراهم عمرو بالهدايا، وأيضا لأنهم رأوا أن المسلمين يحملون دينا جديدا، يمكن أن يفسد عليهم معتقداتهم، ويحدث بلبلة في المجتمع الحبشي، كما أنه يصعب على المسلمين أن ينشروا رسالتهم في مجتمع نصراني كبير، ويرتكز المُلك فيه على النصرانية.

وقد تعرض المهاجرون إلى الحبشة لضغوط عديدة من البطارقة ومن أهلها من أجل الإيمان بالمسيحية، ونجحت في تنصير عبيد

(١) المرجع السابق، ص٨٩.

(٢) الإسلام في الحبشة، يوسف أحمد، منشورات مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٤م، ص١٩، ٢٠.

الله بن جحش، الذي كان رقيق الإسلام، حسبما تذكر الروايات. تلك الضغوط التي أشارت إليها كل من أم حبيبة وأم سلمة، ذكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ أُولَئِكَ، إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، فَمَاتَ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكِ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَدَّثَنَا» (١)، وقيل إن « الكنيسة التي رأينها أزواج النبي (رضي الله عنهن) كانت تسمى مارية. ولذا، تأتي مقولة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في مرضه الأخير: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(٢).

وذلك هو الفرق بين عقيدة الإسلام والتوحيد، وعقيدة النصارى التي كان عليها أهل الحبشة، فالإسلام يعتمد التوحيد الخالص لله تعالى، دون شرك أو تبرك أو تعظيم لمخلوق، أم النصرانية فقد كانت تعظّم بشرا، كانوا رجالا صالحين، بعمل تصاوير لهم، وبمرور الزمن، يتعلق الناس بالتصاوير والتماثيل، وينسون العقيدة، أو تختلط العقيدة عندهم، فيظنون أن تقديس مثل هؤلاء، جزء من الإيمان، ومن هنا يبدأ الشرك.

ولذا، حذر الرسول من الصلاة من مساجد بها قبور أناس، وإن كانوا صالحين، فالزمن كفيل بأن يجعل العقيدة مهتزة، تخلط ما بين

(١) صحيح مسلم، للإمام الحافظ أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، عناية وترتيب: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤٢٦هـ، ص٢٣٩، رقم الحديث ٥٢٨.

(٢) صحيح مسلم، ص ٢٣٩، رقم الحديث ٥٢٩.

الإيمان بالله، وتقديس صاحب القبر. إذن، كانت أرض الحبشة فيها الكثير مما يعارض الإسلام، ويصعب أن تكون مرتكزا قويا للدعوة، وإلا كان الرسول قد اختار الهجرة إليها منذ أن أعطى النجاشي الأمان للمهاجرين المسلمين، ولكن شاء الله أن تكون يثرب هي المهجر الثاني والأساسي للمسلمين، لأن قبائلها أعلنوا ترحابهم بالرسول، وآمن زعماؤهم بدعوة الرسول قبل الهجرة من خلال بيعتي العقبة الأولى والثانية، ثم انتشر الإسلام بسهولة على أيدي مصعب بن عمير (رضي الله عنه)، كما أن أهل يثرب لم يتأثرون بعقيدة اليهود الذين كانوا يقيمون في قرى محصنة حول المدينة.

على جانب آخر، فإن المهاجرين إلى الحبشة تعرضوا لنظرة أقل من بعض المسلمين في المدينة المنورة، حينما عادوا بعد فتح خيبر، حيث نالوا أسهما مما غنمه الرسول من خيبر. ووفق ما يروي أبو موسى، فقد كان هناك « ناس من الناس، يقولون لنا يعني لأهل السفينة (المهاجرين العائدين من الحبشة): نحن سبقناكم بالهجرة. قال فدخلت أسماء بنت عميس، وهي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي (صلى الله عليه وسلم) زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر إليه، فدخل عمر على حفصة، وأسماء عندها، فقال عمر –حين رأى أسماء-: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس. قال عمر: الحبشية هذه البحرية هذه. فقالت أسماء: نعم. فقال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله (صلى الله عليه وسلم) منكم. فغضبت وقالت كلمة: كذبت يا عمر، كلا، والله كنتم مع

رسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم) يطعـم جائعكم، ويعـظ جاهلكـم، وكنا في دار، أو في أرض البعـداء البغضـاء في الحبشـة وذلـك في الله وفي رسـوله، وايـم الله لا أطعـم طعامـا ولا أشرب شرابـا، حتـى أذكـر ما قلتَ لرسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم)، ونحـن كنا نـؤذَى ونخاف، وسـأذكر ذلك لرسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم) وأسـأله، ووالله لا أكـذب ولا أزيـغ ولا أزيد على ذلـك. قـال فلـما جـاء النبي (صـلى الله عليـه وسـلم)، قالـت: يا نبـي الله، إن عمـر قـال كـذا وكـذا، فقال رسـول الله (صـلى الله عليه وسـلم): ليـس بأحق بي منكـم ولـه ولأصحابه هجـرة واحدة ولكم أنتـم أهل السـفينة هجرتان[1].

تشـير الروايـة السـابقة إلى أمـور عديـدة، تتصـل بمجمـل النظـرة إلى قضيـة الهجـرة إلى الحبشـة، والمهاجريـن فيهـا، أولهـا: إن المهجـر الأسـاسي للمسـلمين كان هـو المدينـة المنـورة، أمـا الحبشـة فكانـت «مهجـرا مؤقتـا» في نظـر بعـض المسـلمين، فلـم يهاجـر الـكل إليهـا، وإنـما البعـض فقـط، غالبيتهـم عـادوا والتحقـوا بالمهاجريـن في المدينـة، حيـث الجهـاد الحقيقـي لإقامـة الدولـة الإسـلامية، ومجابهـة مختلـف التحديـات.

ثانيهـا: إن فكـرة « المهجـر المؤقـت» الـذي كان أمانـا للموجـة الأولى مـن المهاجريـن إلى الحبشـة، هـي التـي أنتجـت مقولـة عمـر (رضي الله عنـه)، فلم تكـن الحبشـة أرضـا للاسـتقرار الدائـم للمسـلمين، ويمكـن إقامـة دولـة تحميهـم، وتقيـم شريعتهـم، وتجابـه الكفـر في الجزيـرة العربيـة، وكانـت المدينـة المنـورة هـي الأنسـب، ففيهـا قبائـل عربيـة آمنـت بالإسـلام، وناصرتـه، وتآخـت مـع المهاجريـن، وتحملـت مكائـد مشركـي مكـة

(١) صحيح مسلم، ص١١٦٨، ١١٦٩، رقم الحديث ٢٥٠٣.

والقبائل المتحالفة معها، ورضت بقيادة الرسول لها، وقد كانت المعارك القبلية لا تنتهي بين الأوس والخزرج، فلما هاجر الرسول ألّف بين قلوبهم، ووحّدهم، وتولى قيادة الدولة الوليدة برضا وتأييد كامل منهم، وهذا لم يكن ليتحقق في الحبشة، لاختلاف الظروف والوضع السياسي والاجتماعي والديني.

ثالثها: إن ما وصف به عمرُ الصحابيةَ الجليلة بأنها الحبشية البحرية، ليس من باب السخرية، حاشا لله، فليس لعمر (رضي الله عنه) أن يقول ذلك، وإنما من باب النعت لرحلتها في الإسلام، والمقصد أنها مكثت فترة طويلة في الحبشة، وجاءت إلى المدينة عبر البحر، وهذا تمييز لها عن مهاجرات المدينة المنورة، اللائي جئن من مكة، بواسطة البر، وعشن سنوات طويلة في المدينة. وجاء غضب أسماء (رضي الله عنها)، لأن عمر قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله، والقصد أنه يفتخر بأنهم من المهاجرين، وبرغبته في أن يكون قريبا من الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فهو تنافس في حب رسول الله. ولكن «أسماء» ردت عليه بوضوح، أنهم لم يكونوا في حالة من البحبوحة والأمان، فشتان ما بين حال مهاجري مكة، ومهاجري الحبشة، فقد نعم مهاجرو مكة برعاية الرسول، ونصحه وإرشاده، بجانب إخوة الأنصار لهم، في بيئة مسلمة، أما مهاجرو الحبشة، فقد كانوا في «أرض البعداء البغضاء»، والمقصود بها كما يقول الإمام النووي: البعداء في النسب، البغضاء في الدين؛ لأنهم كفار إلا النجاشي،

وكان يستخفي بإسلامه عن قومه، ويروّي لهم[1]، وهذا حقيقي، فلم تذكر المصادر الإسلامية إسلام أحد من أهل الحبشة، فقط الحديث عن النجاشي، أما بقية الأحباش، فيبدو أنهم بغضوا المسلمين بينهم، ولولا حماية النجاشي لهم لتعرضوا لفتنة كبرى في دينهم. يضاف إلى ذلك، أن مهاجري الحبشة وإن بقوا على تواصل مع الرسول وصحبه، إلا أنهم عانوا من الغربة، في مجتمع مختلف عنهم عقديا ولغويا واجتماعيا، ناهيك عن قلة المسلمين المتبقين بعد رحيل غالبيتهم.

رابعها: إن رد الرسول على مقولة عمر، صحح الموقف كله، وأرضى «أسماء» على المستوى النفسي، ومنح مهاجرة الحبشة مكانة متميزة، بمقولته الشريفة: «ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»، حيث صححت أسماء لعمر في حوارها معه أنهم كانوا مجاهدين لله ورسوله في هجرتهم للحبشة، أما الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فقد جعل حبه لكل الصحابة، وميّز مهاجرة الحبشة بنعت مختلف بكونهم « أصحاب الهجرتين» وما أجمله من وصف، بل وميزهم أيضا بأنهم أهل السفينة، الذين عبروا البحر هجرة، ثم عودة في سبيل الله.

خامسها: لم ينتشر الإسلام في الحبشة بنفس السرعة التي انتشر بها في المدينة المنورة، نظرا لما تتمتع به الحبشة من موقع جغرافي جعلها في أمان من أي غزو، فالبحر في شرقها يحميها، والهضبة الحبشية محصنة بطبيعتها

(١) شرح النووي على مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل جعفر بن أبي طالب وأسماء بنت عميس وأهل سفينتهم رضي الله عنهم، في شرح الحديث رقم ٢٥٠٣، ص٥٢.

بجبال شاهقة، وأودية سحيقة، ومسالك وعرة، وصحارٍ قاحلة، وأجواء مختلفة تزود عنها، وفيها قبائل تعيش متجانسة، من حيث الجانب العرقي، وهذا ساهم في إقامة مملكة الحبشة قبل الإسلام وقاعدتها «إكسوم»، التي احتلت اليمن مدة سبعين عاما[1]. وقد حاول المسلمون في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فتح الحبشة، فأرسل سرية بقيادة علقمة بن مجزز المدلجي، في سنة ٢٠ هـ، فلم توفق إلى شيء، وأصيبت، فقرر عمر أن لا يحمل في البحر أحدا للغزو، خاصة أن بلاد الإسلام قد تطرفت (أي اتسعت)، وقيل إن السرية كانت في العام ٣١ هـ[2]. وقد أخذ المسلمون خلال العصور المختلفة في التواصل الاقتصادي مع الحبشة، فتدفَّقَ سيل التجار المسلمين على سواحل الحبشة واستوطنوها، وجعلوا يحتلونها شيئًا فشيئًا، فأخذوا جزيرة دهلك، ثم مناطق الزيلع ومصوع، ودأبوا على ذلك حتى أصبحت جميع سواحل الحبشة تحت أيديهم، وقاموا بنشر الإسلام في القبائل الوثنية، ومن ثم في بقية مناطقها، وبالتدريج اشتد الإسلام، وتجاوز عدد المسلمين النصارى، وقد أقيمت ممالك إسلامية بعد ذلك، وصلت إلى قوتها في القرن الثامن الهجري، وامتلأت البلاد بالمساجد والمآذن[3].

وبذلك تكون الحبشة هجرة أولى، وإن كانت مؤقتة، فقد عاد جميع المهاجرين المكيين إلى المدينة المنورة، وظلت أرض الحبشة تفتخر بوجود المسلمين الأوائل فيها، ومكوثهم سنوات طويلة، وأنهم نعموا بوجود

---

(١) الإسلام في الحبشة، ص٢٢.

(٢) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، علي بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري عز الدين أبو الحسن، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، ج٢، ص٤٠٩.

(٣) الإسلام في الحبشة، ص٢٢، ٢٣.

كبار الصحابة بينهم ولو إلى حين.

وإذا كان الإسلام قد تأخر في الوصول إلى أرض الحبشة، على الرغم من قربها الجغرافي من الجزيرة العربية، ومن دار الهجرة في المدينة، وعاصمة الخلافة الإسلامية، إلا أن الإسلام لم ينتشر فيها بحد السيف، ولم تغزُها جيوش المسلمين الفاتحين، مثلما كان الحال مع شمالي أفريقيا، وإنما انتشر الإسلام فيها بشكل سلمي، وحضاري، وعبر القرون المتتابعة، وكم كان رائعا من أجدادنا المسلمين، أن يساهموا في إخراج قبائل الحبشة الوثنية من الكفر إلى جنة الإيمان، وتبارى التجار المسلمون بأخلاقهم واستقرارهم المستمر في سواحل الحبشة في نشر الإسلام، وبناء المساجد، حتى صارت الأغلبية في هذه المناطق مسلمة، دون أن تكون هناك حربا مع النصارى من أهلها، وذلك هو الإسلام، يتمدد وينتشر عندما تحمله أخلاقنا ويتجلى في معاملاتنا.

الطائف والسعي لأرض جديدة:

كما تقدم، فإن هناك عوامل وظروفا كثيرة، دفعت الرسول إلى التفكير في التحرك بعيدا عن مكة، خاصة في السنوات القليلة التي سبقت الهجرة إلى المدينة المنورة، مشركو مكة ضاعفوا م عدائهم للرسول (صلى الله عليه وسلم)، وبلغوا مبلغا غاية في الشدة والسوء، وكما يروي أنس (رضي الله عنه)، قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): « لقد أوذيت في الله، وما يُؤذى أحد، وأُخفت في الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة، وما لي ولبلال

ما يأكله كبد، إلا ما يواري إبط بلال»[1]. والحديث يحوي صيغة الإجمال، ثم التفصيل بمثال، تبدى الإجمال في أن الرسول يذكر أنه لقى أشد حالات الإيذاء، والخوف، والتجويع، ما لم يجده أحد من قبل، وقرن كل ذلك بأنه كان في الله، ولوجه الله تعالى.

أما التفصيل، فهو إشارته (صلى الله عليه وسلم) إلى قضائه شهرا كاملا، لا يأكل هو وبلال الحبشي (رضي الله عنه) إلا النزر القليل، الذي يقيم أودهما.

وقد جاء في شرح الحديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - خرج هاربا من مكة ومعه بلال (وقيل زيد)، إلى عبد ياليل بالطائف ليحميه من كفار مكة حتى يؤدي رسالة ربه. ويستفاد من الحديث أنه «حكاية حال لا شكاية بال» بمعنى أن الرسول كان يحكي حالا مرّ به، ولم يقصد الشكوى، بهدف المقارنة بين حال شدة عانى فيه، ثم رزقه الله حال النعمة. لذا، يقول الشارح: « إنما هو تحدث بالنعمة وتوفيق بالصبر على المحنة إلى أن تنتهي إلى المنحة، على ما تقتضيه المحبة، وتسليةً للأمة لإزالة ما قد يصيبهم من الغم. ولننظر إلى التعبير» إبط بلال»، ويعني أن «الطعام الذي كان معهما، كان يستره بلال ويغطيه تحت إبطه»[2]، أي كناية عن قلة الطعام.

---

(١) صحيح السيرة النبوية، لابن كثير، ص١٥٠. وذكر الألباني: أن الحديث حسن صحيح، أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد القاري، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، كتاب الآداب، باب فضل الفقراء وما كان من عيش النبي صلى الله عليه وسلم، ج٧، ص٣٢٨٨، في شرح الحديث المذكور، رقم ٥٢٥٣ .

أما سبب رحيل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف، فكما يقول ابن القيم، أنه لما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الأذى، ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، فخرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف، يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل»[1].

فهل كانت رحلة الرسول إلى الطائف طلبا للنصرة من قبيلة ثقيف؟ الجواب بالطبع لا، وإنما ذهب يدعوهم إلى الإسلام أولا، لعل الله يشرح صدورهم، ويجد لديهم مناصرة للدعوة. فالرسول لم يتعامل مع ثقيف مثلما يتعامل المجتمع الجاهلي، من خلال البحث عن حلفاء ومناصرين، وإنما كان يضع الدعوة أولا، وذلك لأن هداية الأفئدة، تعني نصرة مباشرة من أهلها للإسلام، أو على الأقل يُسمعِهم الرسول بعض ما جاء به من قرآن وهدى وخير، فيتفكرون فيه، فقد لا تحدث الهداية ساعتها، ولكنها تأتي في موعد تال، تكون النفوس على قناعة بما وعت.

وقد جاء اختيار الرسول للطائف لأسباب عدة، أبرزها أنها أقرب المدن إلى مكة المكرمة، وفيها قبيلة قوية، بينها وبين قريش وشائج ومنافع ومصاهرة.

وتذكر روايات السيرة النبوية أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لما انتهى إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، وهم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة: عبد ياليل بن عمرو بن عمير، ومسعود بن عمرو بن عمير، وحبيب بن عمرو بن عمير بن عوف بن عقدة

(١) زاد المعاد، ج١، ص٩٥.

بـن غـيرة بـن عـوف بـن ثقيـف، وعنـد أحدهـم امـرأة مـن قريـش مـن بنـي جمـح، فجلـس إليهـم رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم، فدعاهـم إلى الله، وكلّمهـم بـما جاءهـم لـه مـن نصرتـه للإسـلام، والقيـام معـه عـلى مـن خالفـه مـن قومـه؛ فقـال لـه أحدهـم: هـو يمـرط ثيـاب الكعبـة إن كان الله أرسـلك. وقـال الآخـر: أمـا وجـد الله أحـدا يرسـله غـيرك وقـال الثالـث: والله لا أكلمـك أبـدا. لئـن كنـت رسـولا مـن الله كـما تقـول، لأنـت أعظـم خطـرا مـن أن أرد عليـك الـكلام، ولئـن كنـت تكـذب عـلى الله، مـا ينبغـي لي أن أكلمـك. فقـام رسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم) مـن عندهـم وقـد يئـس مـن خـير ثقيـف، وقـد قـال لهـم: إذا فعلتـم مـا فعلتـم فاكتمـوا عنـي، وكـره رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم أن يبلـغ قومـه عنـه فيذئرهـم ذلـك عليـه. فلـم يفعلـوا، وأغـروا بـه سـفهاءهم وعبيدهـم، يسـبونه ويصيحـون بـه، حتـى اجتمـع عليـه النـاس، وألجـأوه إلى حائـط لعتبـة بـن ربيعـة وشـيبة بـن ربيعـة، وهمـا فيـه، ورجـع عنـه مـن سـفهاء ثقيـف مـن كان يتبعـه، فعمـد إلى ظـل حبلـة مـن عنـب، فجلـس فيـه. وابنـا ربيعـة ينظـران إليـه، ويريـان مـا لقـي مـن سـفهاء أهـل الطائـف[1]

الموقـف السـابق يختـصر رحلـة الطائـف ونتيجتهـا، فقـد جلـس (صـلى الله عليـه وسـلم) مـع ثلاثـة مـن زعـماء قبيلـة ثقيـف وهـم أخـوة، اسـتمعوا لمـا قـال، وكانـت ردودهـم غايـة في التعـالي والاسـتكبار، مـا بـين التشـكيك في إرسـاله نبيـا كـما فعـل الأول، وأنـه مسـتعد لأن يمـزق ثيـاب الكعبـة

(١) السـيرة النبويـة لابـن هشـام، عبـد الملـك بـن هشـام بـن أيـوب الحمـيري، مؤسسـة علـوم القـرآن، بـيروت، د ت، ج١، ص٤١٩، ٤٢٠.

إذا كان نبيا، والعرب كانوا يقدسون الكعبة وهم على الشرك تأثرا بالديانة الإبراهيمية، أو التهوين من شخصه وكيف اختاره الله تعالى لأداء الرسالة كما ذكر الثاني، وهو في الحالتين: نبيا صادقا أو مدعيا كاذبا فهو خطر في الأمرين، فلا يمكن أن يحدثه كما رأى الثالث. فخرج الرسول (صلى الله عليه وسلم) مكسور الخاطر. فلم يحسنوا الرد، ثم لم يحسنوا الاستقبال، وهو ما يخالف عادة العرب في إكرام ضيوفهم، أيا كانت مكانتهم في قبائلهم، ولكنهم تعاملوا بمنطق قريش في الصد، خوفا أن يجد الرسول قبولا، من قبل الناس في الطائف، كما تعمدوا إهانته، وهو في رحلة العودة. وبالفعل كان موقفا غاية في الألم على رسولنا (صلى الله عليه وسلم)، أن يدعو للإيمان والخير، ويجد غرورا ورفضا واحتقارا، ثم تتبعا لضربه وإهانته، فيقف أهل الطائف يشاهدون النبي، والحجارة تُلقى عليه، مع استهزاء وسباب.

وليس هذا الموقف مستغربا من ثقيف، ذلك أن بينهم وبين قريش مصالح عديدة، بل هم على تواصل دائم مع مشركي قريش، بحكم قرب الطائف من مكة، ووجود مصالح تجارية بين قريش وبين ثقيف، مما يعني معرفتهم المسبقة والمفصلة بالرسول (صلى الله عليه وسلم) وبدعوته ومقولاته، فلجأوا إلى الإنكار والصلف والإعراض.

وكما يقال، فإن الطائف تمثل عمقا استراتيجيا لمكة، ولملأ قريش، الذين كانت لهم أطماع فيها، وسعوا في الماضي إلى ضم الطائف لهم، وقد هاجموا من قبل وادي «وج»، لما فيه من الشجر والزرع، حتى

خافتهم ثقيف وحالفتهم، وأدخلت معهم قبيلة دوس. وكان كثير من أغنياء مكة يملكون الأملاك في الطائف، كما كانت تربط بني مخزوم مصالحُ مالية مشتركة مع ثقيف. لذا، فإن اختيار الرسول للطائف يمثل توجها مدروسا، فإذا استطاع أن يجد فيها موطئ قدم، وعصبة تناصره، فإن ذلك سيفزع قريشا، ويهدد أمنها ومصالحها، وقد يؤدي لتطويقها وعزلها. كما أن رحلة الرسول نفسها إلى الطائف دالة على حرصه على أن يؤسس عصبة تحمي دعوته، وهذا ما يبرر ذهابه مباشرة إلى زعماء ثقيف[1].

لقد كانت الرحلة إلى الطائف هي أول انتقال للرسول خارج مكة في دعوته، فقبل ذلك كان يدعو قريشا، والقادمين إلى مكة من الحجيج أو في أسواقها.

أما هذه المرة، فقد خرج مرتحلا إلى الطائف، التي تبعد ستين ميلا عن مكة، ومعه مولاه زيد بن حارثة في أرجح الأقوال، ماشييَنِ على أقدامهما. وقد استثمر الرسول طريقه، في دعوة القبائل التي تقطن في الطريق، فلم يجد منهم إلا ردودا حادة ورافضة، حتى وصل إلى الطائف، فأقام فيها عشرة أيام، وذهب أيضا إلى بقية أشرافهم، ولكنهم أصروا على المكابرة، وعندما خرج الرسول من الطائف، وقف العبيد والسفهاء في صفين يسخرون منه بكلمات من السفه،

(١) أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، د. التيجاني عبد القادر حامد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ١٤المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م، ص١٧٣.

ويلقـون عليـه الحجـارة، وزيـد بـن حارثـة يقيـه، حتـى شُـجّ زيـد في رأسـه، أمـا الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) فقـد رجّـوا عراقيبـه حتـى اختضـب نعـلاه بالدمـاء، والتجـأ في النهايـة إلى حائـط عنـب يملكـه عتبـة وشـيبة ابنـا ربيعـة، عـلى بعـد ثلاثـة أميـال مـن الطائـف، فعـاد عنـه السـفهاء(١).

إذا نظرنـا إلى تكويـن المجتمـع في الطائـف، سـنعرف أن رفـض زعـماء الطائـف لدعـوة الرسـول أمـر متوقـع، فهـي مدينـة مـن أخصـب مناطـق العـرب، وأكثرهـا زرعـا وثمـرا ومـاء، وكان أهلهـا يخشـون مـن سـطوة قريـش، أو قبيلـة هـوازن أو بنـي عامـر، وكلهـا قبائـل طامعـة في الطائـف، ولكـن تحالـف أهـل الطائـف مـع قريـش بـكل نفوذهـا في الجزيـرة العربيـة يمكّـن لهـا الحمايـة المبتغـاة. كـما أن السـلطة في المدينـة مقتسـمة بـين بطنـين مـن بطـون العـرب: بنـي عمـير، وبنـي مالـك، وقـد اتجـه الرسـول مبـاشرة إلى زعـماء بنـي عمـرو بـن عمـير، المتحالفـين مـع قريـش، ولم يذهـب إلى بنـي مالـك المتحالفـين مـع هـوازن(٢). وهـذا دال عـلى وعـي الرسـول المسـبق بتركيبـة التحالفـات القبليـة في ثقيـف، فذهـب إلى بنـي عمـير، نظـرا لصلاتهـم بقريـش، فربـما إذا سـمعوا منـه، وتأثـروا، أن يمارسـوا وسـاطة أو تواصـلا مـع قريـش. أمـا إذا ذهـب إلى بنـي مالـك، فإنـه يؤجـج المزيـد مـن الـصراع، بـين بطـون ثقيـف مـن جهـة، وبـين قريـش وبنـي مالـك هـوازن مـن جهـة ثانيـة. كـما أن خطـاب دعوتـه منحـصر في إعلامهـم بالتوحيـد

(١) الرحيـق المختـوم: بحـث في السـيرة النبويـة، صفـي الرحمـن المباركفـوري، المكتبـة العصريـة، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م، ص١١٢.

(٢) أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، ص١٧٤، ١٧٥.

وأنـه نبـي، ويحتـاج إلى النـصرة كـي يبلـغ دعـوة الله، دون أن يتطـرق إلى أي صراعـات أو تحالفـات، وهـو مـا يفـسر طلبـه بعدمـا أيـس مـن بنـي عمـير حيـث قـال لهـم: إذا فعلتـم مـا فعلتـم فاكتمـوا عنـي، وكـره رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم أن يبلـغ قومـه عنـه فيذئرهـم (فيغضبهـم) ذلـك عليـه[1]، ولكـي لا تفهـم رحلتـه إلى الطائـف عـلى أنهـا تأليـب ضـد قريـش، مـن خـلال التواصـل مـع حلفائهـم في الطائـف بنـي عمـير، وهـو مـن فقهـه (صـلى الله عليـه وسـلم) العميـق لمـا يمكـن أن ينتـج عـن هـذه الخطـوة إذا علمـت قريـش بهـا.

هـذا، وربـما تكـون الرحلـة بالمقاييـس الدنيويـة لم تحقـق الهـدف منهـا، ولكنهـا بـلا شـك، كانـت نقلـة نوعيـة في حركـة الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم)، فقـد تواصـل مـع القبائـل خـارج مكـة، وأسـمعهم كلمـة الله، وإن وجـد منهـم إعراضـا، ولكـن كان لمـرور شـخصه الكريـم وتعرفهـم عـلى خلقـه القويـم، وكيـف احتمـل الأذى في سـبيل نـشر دعوتـه، وأنـه كان معتمـدا في هـذا التوقيـت عـلى نهـج المداولـة بـين الحـق والباطـل[2].

ونظـن أن هـذا النهـج اسـتمر معـه (صـلى الله عليـه وسـلم) في هجرتـه إلى المدينـة المنـورة، بالسـعي لكسـب المزيـد مـن الأنصـار، ونـشر الدعـوة وإذاعتهـا بـين قبائـل العـرب، وإسـماع القلـوب دعـوة التوحيـد، دون الدخـول في معركـة مـع قريـش أو حلفائهـا، ثـم تطـور هـذا النهـج بعـد ذلـك، حيـث تواصلـت دعوتـه (صـلى الله عليـه وسـلم) وهـو في المدينـة

(١) سيرة ابن هشام، ج١، ص٤١٩.
(٢) أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، ص١٧٦.

المنورة؛ يرشد ويعلّم الناس، ويربي أصحابه، ويقوّي الصف المسلم، حتى إذا استوى على عوده، انطلق في غزواته لقريش، فلابد للحق من قوة تحميه، وأفراد وجماعات ينصرونه، وبلد يتحصنون فيه، وبعبارة أخرى: الإسلام يحتاج إلى دولة، تقيم شريعته وتحمي مؤيديه.

وقد كان الموقف الذي تعرض له الرسول في حائط ابني ربيعة فريدا، وتفاصيله أن صاحبي البستان دعوا غلاما نصرانيا يقال له: عداس. فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم ذهب به حتى وضعه بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ثم قال له: كُل. فلما وضع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يده فيه، قال: بسم الله، ثم أكل، فنظر عداس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد! فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ومن أهل أي بلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟. فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن متى؟! فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ذلك أخي، كان نبيا وأنا نبي. فأكبّ عداس على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقبل رأسه ويديه وقدميه. فقال ابنا ربيعة، أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك. فلما جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس، ما لك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا

سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبي. قالا له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك عن دينك؛ فإن دينك خير من دينه[1].

الموقف يشير إلى أمور عدة، أبرزها: مدى المعرفة التي تحدث بها الرسول مع عداس، وهو يخبره أن نينوى قرية النبي يونس (عليه السلام)، مما جعل عداس يتعجب منه، ويدرك أنه ليس مدعيا، فكلمات الرسول القليلة، صادقة عميقة، والموقف كله مفعم باليقين والإيمان، مما جعل عداس يقبّل قدمي الرسول ويديه، فهو نصراني، على ديانة سماوية، وخطابها يخرج من مشكاة واحدة، ويلتقي مع خطاب الإسلام، مما أثار استغراب صاحبي البستان، وحذرا عداس منه، وهما على الشرك، وقد أدركا مدى الأثر الكبير الذي يحدثه الرسول عندما يجد عقولا وقلوبا تجمع الحكمة، وترنو للإيمان، وتعرف قدر الصادقين. ولكن في المعيار الجاهلي، فإن الإيمان بما يخالف ما ألفه الناس من ديانات ومعتقدات، يكون تغييرا كبيرا يفسد حياتهم.

إن خلاصة هذه المرحلة في مسيرة الدعوة الإسلامية بمكة، أن الرسول كان على يقين كامل بأنه لابد من توسيع رحاب دعوته إلى خارج مكة المكرمة، وبعيدا عن قريش، بعدما بلغ بهم اللجاجة والخصومة إلى أوجها، وأصبح البديل أمام الرسول (صلى الله عليه

(١) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار عالم الكتب، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ج٤، ص٣٤٠.

وسلم) وصحابته عليهم الرضوان، هو الالتجاء إلى أرض أخرى، وهو ما تم بالهجرة الأولى إلى الحبشة، أو برحيل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف، وسعيه إلى دعوة مختلف القبائل القاطنة في الطريق إليها. ولم يكن هذا بمعزل عن أعين قريش، فقد طاردت أصحاب الرسول في الحبشة، وتابعت رحلة الرسول إلى الطائف، وظلت له بالمرصاد، مما يدل على أن المسألة بالنسبة إليها كانت صراعا دينيا ووجوديا، وأنها كانت تخشى من وجود دعم خارجي للرسول يجعله في مركز قوى يهددها، ويعصف بهيمنتها على القبائل العربية، فقد كان المشركون على إيمان بأن انتشار الإسلام سيكون بداية لتغيير في القلوب، وأيضا تغيير في السلوك، وفي المنظومة الاجتماعية والسياسية برمتها.

المبحث الثاني

الهجرة إلى المدينة وبناء المجتمع المسلم

الدعوة والهجرة والنفسية العربية:

إذا أردنا قراءة حدث الهجرة على أنه مجرد انتقال المسلمين من مكة إلى المدينة، حماية لهم من بطش قريش، فإن القراءة تكون غير وافية، لأن الإسلام كان موجها في البداية إلى جميع العرب في الجزيرة العربية، ثم إلى جميع شعوب الأرض. ولأن الله تعالى اختص العرب بالإسلام من خلال بعث الرسول محمد إليهم، وشرّف العربية بإنزال القرآن الكريم بلسانها. لذا، فإن حدث الهجرة، كان يعني نقلة مكانية دعوية إلى مدينة جديدة، وقبائل جديدة، تختلف في طبيعتها ونفسياتها عن قريش.

فقد قضى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ثلاث عشرة سنة في مكة، يدعو فيها إلى الله في مراحل دعوية عديدة، بدأت بالدعوة سرا، ثم جهرا، واكبها حوار وجدال لا ينتهي بين زعماء وأشراف قريش، حول ماهية الدعوة، وما حملته الآيات القرآنية التي خلبت ألباب كل من سمعها، وإن لم يؤمنوا بها. فقد تلقى أهلُ مكة وغيرهم من أبناء القبائل الإسلامَ، من خلال أبعاد أربعة، تشكّل فهمهم للإسلام:

البعد الأول: أنه ثورة في العقيدة، تدعو إلى الله الواحد الأحد، الحي القيوم، وتنفي كل ما عداه من أوثان أو جمادات وماديات تعلّق بها

الكفار والمشركون، كانت الدعوة واضحة سهلة نقية صافية، تذكرهم بدعوة إبراهيم عليه السلام، النبي الذي بنى الكعبة المشرفة، ولا يزال العرب يتبركون بها، ويحجون إليها، ضمن بقايا معتقداتهم عن الديانة الإبراهيمية الحنفية، وأنه في خطابه مختلف عما كان يذيعه اليهود أو من تنصّر من العرب، فدعوة التوحيد تعني نقاء القلب، وطهارة السلوك، وقرآن معجز.

وهو ما تلاءم مع السمات الأساسية للنفس العربية في الجزيرة، التي كانت أقرب إلى المادة الخام، التي لم تنصهر بعد في أي بوتقة، فكانت تتراءى فيها الفطرة الإنسانية السليمة، والنزعة القوية إلى الاتجاهات الإنسانية الحميدة، مثل الوفاء والنجدة والإبانة والعفة. ولكنهم كانوا يعيشون في ظلمة الجهالة البسيطة والحالة الفطرية الأولى، فكان يغلب عليهم أن يرتكبوا بعض الموبقات، لأنهم لا هادي ولا شريعة توجههم[1].

وهذا هو السبب في سرعة انتشار الإسلام في الجزيرة، بعدما تمكن الرسول من الهجرة، وتكوين مجتمع مسلم، تسود فيه المحبة والتآلف، ولا توجد فيه صراعات قبلية، مع سلوكيات وأخلاقيات فضلى، فلم تكن دعوة الإسلام مجرد التزام فردي بالعقيدة والعبادات، وإنما أضحت مجتمعا يحيا فيه المسلمون، مهاجرون وأنصار، في إخوة وإيثار، ويرحبون بكل مسلم جديد، يأتيهم من البادية أو الحضر.

البعد الثاني: تلقى العرب القرآن الكريم بدهشة عظمى، وهم أولو

---

(١) فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - دمشق، ط١٠، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ص٤٦.

ذائقة شعرية وأدبية ولغوية عظمى، فالقرآن ألفاظه سهلة، وتركيبه معجز، وبيانه مدهش، حتى أن الكفار حفظوا الكثير من آياته، وكانوا يحاججون بها الرسول في حوارات دائمة، فالكل شهد على إعجاز النص القرآني، وعجزوا في المقابل عن الإتيان بعشر سور مثله، أو بسورة واحدة، أو حتى بآية واحدة.

البعد الثالث: أن الإسلام ثورة أخلاقية واجتماعية وسلوكية، ذلك أنه جاء بمنظومة كاملة من الأخلاق والفضائل والمبادئ، التي هذّبت نفوس العرب في الجزيرة العربية، وهم أهل بادية، يعيشون على فطرتهم، وإن تلوثت بتأثيرات دينية وثنية، ولكن فطرتهم كانت على الخير، وكان دور الرسول (صلى الله عليهم وسلم) أن ينبش في قلوبهم على ما هو خير، وهو يعلم جيدا أبعادها، لأنه ابن للبيئة، ويعرف طبائع أبنائها.

لم يقدِّم محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه إلى العرب على أنه زعيم قبلي فذ، أو قائد سياسي محنك، أو مصلح اجتماعي لأوضاعهم السيئة، أو رجل صاحب فكرة أو مذهب جديد، بل لم يتخذ طيلة حياته أي سلوك أو مقولة بأنه ذو طموح لمجد شخصي أو منفعة ذاتية. ومن هنا، إذا أردنا دراسة سيرة الرسول، فإن المنطق يفرض علينا أن ندرسه وفق الهوية التي أعلن بها عن ذاته، وهو أنه رسول، لنستجلي منها دلائل الصدق أو عدمه، ونعرف ماذا قدم للعرب وللإنسانية. ولندرك أنه لم يخترع من عنده شريعة أو عقيدة، وإنما كان نبيا مكلفا بأداء الرسالة من الله تعالى، ولنعرف عظمة مسؤولياتنا تجاه الله سبحانه

وتعالى، والرسول (عليه الصلاة والسلام) ورسالته[1].

وهذا منحى نواجه به دعاوى الاستشراق والعلمانية، التي كانت ومازالت غير مدركة إلى الأثر الروحاني الذي أحدثه الإسلام، وجاء به الرسول، واستطاع توحيد العرب، ومن ثم انطلقوا ينشرون الرسالة، فالقضية ليست إقامة دولة، وإنما هداية للإيمان، وإصلاح للنفوس، وإطلاق مكامن الخير من فطرتها.

البعد الرابع: أنه يبشر المؤمنين بنصرة وتمكين في الدنيا، وإقامة وحدة تجمعهم، تكون لهم السيادة في الأرض، وذلك بإيمانهم بالواحد الأحد، ولم شمل قبائلهم التي مزقتها الصراعات القبلية، وشراء الولاءات. وهو ما تم بالفعل، حيث أقيمت دولة الإسلام جامعة قبائل العرب، موحّدة لعموم الجزيرة العربية، من اليمن وعمان جنوبا، إلى الحدود فارس والروم شمالا، وهذا لأول مرة يحدث في تاريخ العرب، وهو ما تم بعد ذلك، من خلال الخلافة الراشدة، ثم الأموية ثم العباسية، ثم انتشار الإسلام ومعه العربية لغة عرب الجزيرة في قارات العالم القديم. وهو ما دفع ابن خلدون، وهو يحلل الإنجاز الهائل الذي حققه العرب من خلال الإسلام، إلى القول بأن « الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة إلى الحق، فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لم شيء، لأن الوجهة واحدة، والمطلوب متساو عند جميعهم، وهم مستميتون عليه» [2].

---

(١) المرجع السابق، ص٤٠، ٤١.

(٢) المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق: عبد السلام الشدادي، نشر: خزانة ابن خلدون، بيت العلوم والفنون، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠١٥م، ج١، ٢٦٧.

ينبه ابن خلدون إلى أثر الإسلام في العرب، ذلك أن حياتهم الاجتماعية كانت تعتمد على العصبية القبلية، فالانتماء للقبيلة، وحرية الفرد مقدمة على كل شيء، بعكس الدول والامبراطوريات حولهم، التي كانت تخضع الشعوب لهيمنتها. فلم يكن سبيل إلى وحدة العرب، وتخليصهم من العصبية القبلية، إلا بتحول كبير في نفوسهم، نحو العاطفة الدينية، وتصويبهم نحو بوصلة جديدة، قوامها الحق والخير، والسعي إلى الفوز بالرفعة لأمة الإسلام في الدنيا، ونيل مرضاة الله وجنات الخلد في الآخرة.

لقد أدرك ابن خلدون أن العرب ما كانوا يتحدون وتتغير حياتهم إلا من خلال تغيير عقيدتهم الدينية، وزرع قيم جديدة فيهم، وهو ما يبرره بقوله إن « الملك إنما يحصل بالتغلب، والغلب إنما يكون بالعصبية، واتفاق الأهواء على المطالبة وجمع القلوب، وتأليفها؛ إنما يكون بمعونة من الله في إقامة دينه. وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا، حصل التنافس وفشا الخلاف، وإذا انصرفت إلى الحق، ورفضت الدنيا والباطل، وأقبلت على الله؛ اتّحدت وجهتها، فذهب التنافس، وقل الخلاف، وحسن التعاون والتعاضد»[(١)].

بالفعل فإن رؤية ابن خلدون نافذة، وترد على كل من يصور تاريخ الإسلام، والهجرة الشريفة على أنها سعي إلى بناء دولة ومجد دنيوي من قبل مسلمي قريش، ذلك لأن التنافس على الدنيا إذا دخل في النفوس تفرقت، وتعاركت، وتقاتلت، وهو ما ينفيه التاريخ،

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦٦.

فنفوس المسلمين ظلت في حالة حب وانسجام وروحانية عالية، منذ الهجرة، ودخول قبائل شتى في الإسلام، وطيلة الفتوحات الكبرى، ثم ما أعقبها من عملية بناء حضاري متميز، أقام به المسلمون ثقافة وحضارة من إسلامهم.

دعوة القبائل وحوار الحكمة:

بدأ الرسول (صلى الله عليه وسلم) دعوة القبائل العربية خارج مكة، بشكل دائم منذ رجوعه إلى الطائف، وقومه أشد ما كانوا عليه في خلافه وفراق دينه، إلا قليل من ممن آمن به من المستضعفين، أما بقية قريش، فكان في حالة من الكبر والعناد، وأطلقوا أذاهم على الرسول وعلى المؤمنين، فكان لابد من فتح مجال جديد للدعوة، حيث حرص رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على عرض نفسه -في موسم الحج والأسواق- على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم الله ما بعثه به [١]، كلما اجتمع الناس بالموسم، أتاهم (صلى الله عليه وسلم) يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الهدى والرحمة، ولا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له، ودعاه إلى الله تعالى، وعرض عليه ما عنده[٢].

ولاشك أن حوار الرسول مع وفود القبائل، يختلف عن حواره

(١) السيرة النبوية، لابن هشام،، ج١، ص٤٢٣.

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ج٤، ص ٣٦٥.

مـع عشـائر قريـش في مكـة، فشـتان مـا بـين قـوم ظـل يحاورهـم سـنوات ممتـدة، ويُسـمعهم آيـات القـرآن الكريـم المنزلـة بشـكل مسـتمر، فالحـوار معهـم موصـول، في قضايـا كثـيرة، هـم لا يكفّـون عـن الجـدال، والرسـول لا يكـفّ عـن إقناعهـم، بالأدلـة، والآيـات، وحسـن القـول، والصـبر عـلى أذاهـم. أمـا دعوتـه لوفـود القبائـل فسـتكون مختلفـة، فسـتكون تعبيراتـه مكثفـة في دلالاتهـا، واضحـة في معانيهـا، توجـز الإسـلام كلـه: عقيـدة وخلقـا وسـلوكا، وموقفـه مـن الأوثـان، حيـث كان الرسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم) يقـف عـلى منـازل القبائـل مـن العـرب، فيقـول: يـا بنـي فـلان، إني رسـول الله إليكـم، يأمركـم أن تعبـدوا الله ولا تشركـوا بـه شـيئا، وأن تخلعـوا مـا تعبـدون مـن دونـه مـن هـذه الأنـداد، وأن تؤمنـوا بي، وتصدقـوا بي، وتمنعـوني، حتـى أبـين عـن الله مـا بعثنـي بـه[1].

فهـو ينـادي مـن يحاورهـم بنسـبهم، ثـم يعلمهـم أنـه رسـول الله، جـاء بعقيـدة الواحـد الأحـد، وتـرك أي نـدٍ لله تعـالى، ويطلـب منهـم تصديقـه، وحمايتـه، حتـى يبـين رسـالته.

فلـم يكـن (صلى الله عليـه وسـلم) يتفـاوض عـلى عـادة العـرب في عقـد تحالفـات، وبنـاء معاهـدات في النظـام القبـلي، وإنـما كان يسـتهل دعوتـه بالتعـرف عـلى مـن يدعوهـم ومـن ثـم يـشرع في التحـاور معهـم، بـكلام عنوانـه الإيجـاز والوضـوح والبسـاطة، وأساسـه بسـط عقيـدة التوحيـد. ولـو فكرّنـا أن الرسـول قـد طـاف عـلى جميـع الوفـود التـي زارت مكـة خـلال هـذه الفـترة، التـي لم تتجـاوز بضـع سـنوات، سـندرك أنـه (صـلى

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ٤٢٣.

الله عليه وسلم) استطاع أن يحدث صدى كبيرا لدعوته، وانتشار خبره في أنحاء الجزيرة العربية، ويكفي أن تردد الألسنة أنه داع للإله الواحد، وأنه رسول من الله؛ وهذا معناه أن جميع العرب قد تهيأت نفسيا لقبول الإسلام، ذلك أن الدعوة الجديدة تعني أسئلة وحوارات، تثار من قبل السامعين، الذين سيكونون ما بين مصدق ومكذب، ولكن حتما فإن الآيات القرآنية ستتلى، على ألسنة المشركين، وهم يستعيدون هذا القرآن المعجز، ويتفكرون في حالهم الديني، وما هم عليه من وثنية، وسوء خلق.

ولنعشْ مع رواية يسردها علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، وقد كان يصاحب الرسول في تطوافه على مضارب القبائل حول مكة، ومع الرسول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه)، يقول علي: « ثم انتهينا إلى مجلس عليه السكينة والوقار، وإذا مشايخ لهم أقدار وهيئات، فتقدم أبو بكر فسلّم، وقد كان أبو بكر مقدَّما في كل خير، فقال لهم أبو بكر: ممن القوم؟ قالوا: نحن بنو شيبان بن ثعلبة. فالتفت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقال: بأبي أنت وأمي، ليس بعد هؤلاء من عزّ في قومهم، وفي رواية: ليس وراء هؤلاء غرر من قومهم، وهؤلاء غرر الناس (المقصود من أعيان القبيلة)، وقد كان في القوم: مفروق بن عمرو، وهانئ بن قبيصة، والمثنى بن حارثة، والنعمان بن شريك. وكان أقرب القوم إلى أبي بكر مفروق وكان مفروق بن عمرو قد غلبهم بيانا ولسانا، وكانت له غديرتان تسقطان على صدره،

فكان أدنى القوم مجلسا من أبي بكر، فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟، فقال له: إنا لنزيد على ألف، ولن تغلب ألف من قلة. فقال له: فكيف المنعة فيكم؟ فقال: علينا الجهد ولكل قوم جد. فقال أبو بكر: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا أشد ما نكون غضبا حين نلقى، وإنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله، يديلنا مرة ويديل علينا مرة. لعلك أخو قريش؟

فقال أبو بكر: إن كان بلغكم أنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فها هو هذا. فقال مفروق: قد بلغنا أنه يذكر ذلك. ثم التفت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال: إلام تدعو يا أخا قريش فتقدم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجلس، وقام أبو بكر يظله بثوبه، فقال (صلى الله عليه وسلم): « أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وأن تؤوني، وتمنعوني، وتنصروني حتى أؤدي عن الله الذي أمرني به، فإن قريشا قد تظاهرت على أمر الله وكذّبت رسوله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد ». قال له: وإلام تدعو أيضا يا أخا قريش؟ فتلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

(١) سورة الأنعام، الآية (١٥١).

فقال له مفروق: وإلامَ تدعو أيضا يا أخا قريش؟ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض، ولو كان من كلامهم لعرفناه. فتلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

فقال له مفروق: دعوتَ والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ولقد أفكَ قوم كذبوك، وظاهروا عليك. وكأنه أحب أن يشركه في الكلام هانئ بن قبيصة، فقال: وهذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا.

فقال له هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وصدقت قولك، وإني أرى أن تركنا ديننا واتباعنا إياك على دينك لمجلس جلستَه إلينا ليس له أول ولا آخر، لم نتفكر في أمرك وننظر في عاقبة ما تدعو إليه؛ زلة في الرأي وطيشة في العقل وقلة نظر في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، وإن من ورائنا قوما نكره أن نعقد عليهم عقدا، ولكن ترجع ونرجع وتنظر وننظر. وكأنه أحب أن يشركه في الكلام المثنى بن حارثة. فقال: وهذا المثنى شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى: قد سمعت مقالتك، واستحسنت قولك يا أخا قريش، وأعجبني ما تكلمت به، والجواب هو جواب هانئ بن قبيصة، وتركنا ديننا واتباعنا إياك لمجلس جلسته إلينا، وإنا إنما نزلنا بين صيرين؛ أحدهما اليمامة، والآخر السمامة.

فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم): وما هذان الصيران؟

(١) سورة النحل، الآية (٩٠).

فقال له: أما أحدهما فطفوف البر وأرض العرب، وأما الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى، وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى أن لا نحدث حدثا ولا نؤوي محدثا، ولعل هذا الأمر الذي تدعونا إليه مما تكرهه الملوك. فأما ما كان مما يلي بلاد العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وأما ما كان يلي بلاد فارس فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول، فإن أردت أن ننصرك ونمنعك مما يلي العرب فعلنا.

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه.

ثم قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أرأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيرا حتى يمنحكم الله بلادهم وأموالهم، ويفرشكم بناتهم، أتسبحون الله وتقدسونه؟

فقال له النعمان بن شريك: اللهم وإن ذلك لك يا أخا قريش. فتلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا*وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[1]. ثم نهض رسول الله صلى الله عليه وسلم قابضا على يدي أبي بكر. ثم التفت إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا علي، أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية، ما أشرفها! بها يتحاجزون فيما بينهم في الحياة الدنيا![2].

عندما نتأمل الموقف السابق، في حوار الرسول مع بني شيبان،

(١) سورة الأحزاب، الآيتان (٤٦، ٤٥).

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ج٤، ص٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩.

سنرصد جملة من الأمور، تجعلنا على بينة من خطاب الرسول إلى قبائل العرب المختلفة، من جهة ما مقدمات الخطاب، وجوهر الخطاب، وردود القوم، وتعقيب الرسول.

فأما الجانب الأول وهو مقدمات الخطاب، فإن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، كان يحسن اختيار من يتحدث إليهم من القبائل، وفي حواره مع بني شيبان، فقد دخل إلى مجلس، رأى فيه جماعة من وجهاء العشيرة، يبدو عليهم الوقار والهيبة. أي أنهم ليسوا شبابا قد يفتقدون إلى الخبرة والحنكة والدراية باللغة، وقد علم من مستشاره في النسب، وصديقه أبي بكر، الذي أعلمه أنهم من خيرة أعيان القبيلة نسبا ومكانة.

فجلس الرسول وصحبه الكريم في مجلس القوم، وبدأوا الحوار معهم، ونلاحظ أن الراوي علي بن أبي طالب، ميّز في روايته شخصيات القوم، حيث ذكر أن مفروق بن عمرو، أحسنهم لسانا وبلاغة، وهو ما ظهر عندما استفسر منه أبو بكر عن المنعة والعدد، فأجابه بإجابة بليغة؛ فقد ذكر عن الحرب: « علينا الجهد ولكل قوم جد»، مستخدما الإيجاز والسجع، وتكثيف الدلالة، فالجهد معناه الاجتهاد في الحرب، الذي سيختلف من قوم إلى قوم، حسب المواجهة. أما عن كيفية الحرب فأجاب مفروق» إنا أشد ما نكون غضبا حين نلقى، وإنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصر من عند الله، يديلنا مرة ويديل علينا

مـرة «. إنهـا إجابـة دالـة عـلى بلاغـة، حيـث تفاخـر بقومـه عندمـا يكونـون في حـالات الغضـب، أي المسـارعة في الحـرب، وجعـل الغضـب واللقـاء (الحـرب) قرينـين، فالإنسـان إذا غضـب، فإنـه يكـون في أعـلى درجـات القتـال والحماسـة. ثـم افتخـر مفـروق أيضـا باقتنـاء الجيـاد والسـلاح، معلنـا أنـه ليـس بكافـر، وإنـما هـو مـشرك، لأنـه ذكـر أن الله قـد يديـر عليهـم النـصر مـرة والهزيمـة مـرة. فالموقـف المبدئـي فيـه افتخـار بالمنعـة والقـوة، وأنهـم ليسـوا مـن الكفـرة، وقـد علـم الرسـول وأبـو بكـر أنهـم قـادرون عـلى منعـه.

وعندمـا ننظـر إلى جوهـر الخطـاب، فنجـد أن مفـروق بـن عمـرو سـأل الرسـول هـل هـو أخـو قريـش؟ فأخـبره الصديـق بأنـه رسـول الله، وقـد كان خـبره قـد فشـا بـين القبائـل الزائـرة إلى مكـة، إمـا بأثـر مـن تطـواف الرسـول عـلى مختلـف القبائـل، أو بـما يتناقلـه العـرب مـن أخبـار عـلى عادتهـم. فتقـدم الرسـول وبـدأ في إسـماع القـوم مـا عنـده، بكلـمات موجزة، قوامهـا: التعريـف بالتوحيـد، والأخـلاق الحميـدة التـي يدعـو إليهـا، وأنـه مكـذَّب مـن قريـش، وطلـب منـه أن يحمـوه ويمنعـوه حتـى يـؤدي رسـالة الله ويبلغهـا. وقـد جذبـت كلماتُـه سـامعيه، فطلبـوا منـه المزيـد، فتـلا عليهم الرسـول آيـات بينـات مـن ﴿ قـل تعالـوا أتـل مـا حـرم﴾ فطلبـوا المزيـد، فتـلا عليهـم قولـه تعـالى ﴿ إن الله يأمـر بالعـدل والإحسـان﴾. ومـن خـلال الآيـات المتلـوة، عـرف السـامعون أنهـم أمـام نبـي حـق، حيـث جـاءت تلاوتـه لآيـات مختـارة، تأمـر بـكل خـير، وتنهـى عـن كل شر، وهـي دالـة

على إعجاز القرآن الذي تحدى به العرب جميعا. أما كلماته التي سبقتها، فإنها على إيجازها غاية في البلاغة، بأسلوب الرسول العذب، الذي تصفه السيدة عائشة (رضي الله عنها) بقولها: « ما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسرد سردكم هذا، ولكنه كان يتكلم بكلام بيّن فصل، يحفظه من جلس إليه». وهو ما يوضّحه أكثر الحسن بن علي، فيما يرويه عن خاله هند بن أبي هالة عن منطق الرسول، فقال:» كلامه فضل، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا المهين»[(١)].

فقد جذب الرسول كلَّ مَن في المجلس إلى حسن منطقه، وجمال كلماته، ودعوته إلى كل ما هو خير، موظفا آيات القرآن، أمام جماعة يعشقون اللغة، ويترنمون بكلماتها، ولديهم القدرة على سبر أغوار من أمامهم؛ إن كان صادقا أم دعيًّا.

ولذا، جاءت ردود القوم معجبة بما قال، حيث علّق مفروق:» دعوت والله يا قرشي إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال»، ومقولة المثنى « قد سمعت مقالتك، واستحسنت قولك يا أخا قريش، وأعجبني ما تكلمت به»، وقال له هانئ: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، وصدقت قولك»، بما يعني أنهم لم يجادلوه في دعواه، وأنهم أصحاب عقل ودراية، غير متبعي الشهوات، ولا من أهل الأهواء، وقد قدّروا للرسول أنه لم يطلب منهم ملكا ولا مالا، وإنما النصرة

(١) شرح شمائل النبي (صلى الله عليه وسلم)، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، شرحها: عبد الرزاق البدر، مكتبة الإمام الذهبي، الكويت، ط١، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م، ص٢٤٥، ٢٤٧، رقم الحديثين: ٢٢٣، ٢٢٥.

فقط، ومن قبلها الإيمان. ولكنهم وكما قالوا، ما كانوا يغيرون دينهم، ولا يعقدون عقدا أو معاهدة، بدون الرجوع إلى قومهم، لأن في ذلك عجلة، وأن مجلسا واحدا مع الرسول ليس بكاف، لكي يعرفوا ماهية دعوته، ولا أبعادها، ولا كل ما فيها خاصة أنهم كانوا على عهد مع كسرى فارس، وأنهم أدركوا بفطنتهم أن دعوة الرسول تعني تحديا للعرب، وأيضا لملك مثل كسرى. على الرغم من أن الرسول قد قال لهم، إنهم إن آمنوا به وناصروه، فسوف يفتح الله عليهم بلاد كسرى بأموالها وأنهارها وخيراتها. ولكنهم آثروا الرد بحكمة، فيها الكثير من البعد السياسي، حتى لا يختلف معهم قومهم عندما يعودون إليهم.

وقد علّق الرسول على ما قالوا مستحسنا ردهم، فقال (صلى الله عليه وسلم): «ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه» فلا يمكن لهم - كما جاء في كلامهم- أنهم أحسنوا فيما قالوا، لأن دين الله متين، ولا يمكن استيعابه في جلسة أو حتى جلسات. وقد أشار الرسول في تعليقه لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه):» يا علي، أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية، ما أشرفها! بها يتحاجزون فيما بينهم في الحياة الدنيا»، والمعنى المقصود أن العرب في الجاهلية كانت لديهم خصال حميدة عديدة، وهو ما ظهرت في حديث بني شيبان مع الرسول، فهم ينصتون بفهم، ويستزيدون من محدّثهم، ويناقشون بوعي، ولا يتسرعون في اتخاذ الحكم، ويراعون المشورة، ولا ينفرد أحد منهم بالقرار، وإنما- كما

رأينا- كانوا يتبادلون الرأي والتعليق فيما بينهم، وهذا من حكمتهم، وفي دلالة على عدم استئثارهم برأي.

وندرك من الموقف السابق أن النصرة التي طلبها الرسول من القبائل كانت مشروطة بأن لا يكون للقبيلة ارتباط بمعاهدات دولية، تتناقض مع الدعوة، ولا يستطيعون التحرر منها، فهذا يعرض الدعوة ذاتها للخطر، وتهديد الدول صاحبة المعاهدة. وفي حالة بني شيبان، فإنهم لن يخوضوا حربا ضد كسرى لو أراد القبض على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ولن يخوضوا حربا ضد كسرى لو أراد الرسول مهاجمته. فكان ردهم حصيفا، واضحا، وتفهّم الرسول موقفهم[1]. ولما أسلم بنو شيبان، كان زعيمهم المثنى بن حارثة من أجرأ المسلمين على قتال الفرس، حيث جاء وفد من بني شيبان، على رأسهم المثنى بن حارثة، وأعلن إسلامه للرسول (صلى الله عليه وسلم)، وذلك في العام التاسع من الهجرة، ثم شارك المثنى في الفتوحات في العراق، وقد عهد إليه خالد بن الوليد بقيادة المسلمين في خلافة أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، عندما كانوا في فتح العراق، وغادر خالد على رأس نصف الجيش لنجدة المسلمين في حروب الشام[2]، وبذلك تحقق لبني شيبان ما وعدهم الرسول به، عندما كان لا يزال يلتمس النصرة من القبائل، وهذا من معجزات الرسول (صلى الله عليه وسلم) في خطابه الدعوي، فما تفوه بشيء إلا وتحقق.

(١) السيرة النبوية، الصلابي، ص٢٩٠.

(٢) الكامل في التاريخ، ج٢، ص٢٥٦، ٢٥٧.

بيعتا العقبة وخطاب جديد:

تمثّل بيعتا العقبة الأولى والثانية بوابة أولى للهجرة النبوية إلى يثرب، وحدثا محوريا الذي غيّر مسار الدعوة الإسلامية، وكان بداية النصرة والتمكين، ويمكن أن نطلق عليها مقدمات الهجرة، التي ما كان لها أن تكتمل إلا من خلال بيعتي العقبة. ذلك لأن الأهمية لا تكون في فعل الهجرة ذاته، فهذا فعل حركي، ولكنها كامنة في أمرين، يتصلان بما بعد الهجرة: الأول: القوم الذين سيعاشرهم الرسول (صلى الله عليه وسلم)، الذين سيحمون الدعوة، ويتكفلون بالذود عنها، ونصرة الرسول بين قبائل العرب، في مجتمع الجزيرة، الذي لم يعرف دولة مركزية قبل الإسلام، وإنما كانت الجزيرة عبارة عن مدن كبرى، تقوم على التجارة مثل مكة المكرمة، أو مدن كبرى تقوم على الزراعة في قرى متجاورة مثل يثرب، أو قبائل عربية تعيش في البادية، وأهل الحضر والبادية يعتمدون على عصبية تحميهم، وتشكل توازن قوى في هذا المجتمع، الذي تعدّ العصبية أساسا في النصرة، وإلا فإن الضعيف سيتعرض للإيذاء والظلم. والأمر الثاني: يتمثل في المكان الذي ستتم إليه الهجرة، من حيث طبيعة المكان، وهل يمكن أن يكون سبيلا لنصرة الإسلام والتمكين لدولته، ودعوة سائر القبائل العربية إليه، وهو ما انطبق على يثرب، حيث تقع جغرافيا بالقرب من مكة المكرمة، وفيها قبيلتا الأوس والخزرج، وتمتازان بأخلاقهما اللينة، وطيب معشرهما، والأهم من كل هذا، أنهما دخلتا الإسلام قبل الهجرة، فلما

هاجر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وجد مجتمعا مسلما متلهفا له، وهو ما سنناقشه حول كيفية تكوين مجتمع مسلم، وترسيخ الدعوة الإسلامية قبل هجرة المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، فلما هاجر إليهم، فوضِعَ الأساس للدعوة والدولة والنصرة، وانتظر البناء أن يكتمل على يد البنّاء المبعوث الرباني.

وقد كانت النتيجة لدعوة القبائل أن انتشر أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في قبائل العرب وبلغ أنحاء الجزيرة كلها، وذُكِرَ بيثرب، فلم يكن حي من العرب أعلم بأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم)- حين ذكر وقبل أن يذكر- من هذا الحي من الأوس والخزرج، وذلك لما كانوا يسمعون من أحبار يهود[1].

هذا، وتشير روايات السيرة العطرة إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) خرج في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب جريا على صنيعه في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطا من الخزرج أراد الله بهم خيرا.

قال لهم (صلى الله عليه وسلم): من أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أمن موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله بهم في الإسلام، أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، وهم أهل كتاب وعلم، والأوس والخزرج أهل شرك وأصحاب أوثان، و قد غزا اليهود بلادهم، فكان إذا كان بين اليهود

(١) المرجع السابق، ج٤، ص٣٨٢.

والأوس والخزرج شيء قالوا لهم: إن نبيا مبعوثا الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم. فلما كلّم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه. فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا وصدقوا[1].

الموقف السابق نستخلص منه دلالات عديدة، تفيدنا في فهم مقدمات الهجرة:

أولها: إنها لحظة التدخل الرباني الذي واكب الدعوة الإسلامية، ليتم اختيار جماعة من الخزرج، الذين ما إن سمعوا ما قاله الرسول إلا وصفت نفوسهم، وآمنت قلوبهم، ونطقوا بالإيمان، بعدما سمعوا آيات القرآن تتلى عليهم، من فم الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وتترقرق في كلمات معجزة، انبهروا بها، مثلما انبهروا بشخصية الرسول، الذي دعاهم للتوحيد والأخلاق الحميدة لنصرته. ثانيها: أنهم لم يطلبوا من الرسول ملكا ولا زعامة ولا سيطرة على العرب، وإنما آمنوا بالله وحده، وبرسوله.

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٤٢٨، ٤٢٩.

ثالثها: أن عيشهم مع اليهود في يثرب جعلهم مطلعين على الرسالات السماوية عامة، وما يتصل بها من مفاهيم مثل: الله في السماء، خالق الكون، وأن هناك كتبا منزلة، ورسلا مبعوثين، وأن هناك حياة بعد الموت، تتضمن حسابا وثوابا وعقابا، وقد كان اليهود يتباهون به على العرب، ولكن ليس من الثابت أن هناك من تهوّد من الأوس والخزرج، وهذا عائد لطبيعة اليهود أنفسهم، حيث يعدّون أنفسهم شعب الله المختار، دون سائر الشعوب، لتكون اليهودية دينا لهم، ولكنها ديانة تكاد تقتصر عليهم وحدهم، دون مؤمنين جدد معهم. وقد عاشوا في واحات حول يثرب، منغلقين على أنفسهم، وكانوا على مهارة كبيرة في الزراعة بالإضافة إلى صناعات وتجارة، وربما كان دورهم السلبي في إشعال الحرب بين الأوس والخزرج سببا في كراهية القبيلتين لهم. ويذكر أحمد أمين أن اليهود في يثرب، كانوا على قسمين، هناك من كانوا من أصول عربية، وهناك من كانوا من أصول أجنبية. فلما هاجر الرسول، نشأت حوارات وجدليات طويلة، أسفرت عن إسلام كل من: كعب الأحبار، ووهب بن منبه وأضرابهما[1].

رابعها: إن الأوس والخزرج كانوا على عبادة سائر قبائل العرب للأوثان، فكان هذا سهلا لانتشار دعوة الإسلام بينهم، فلا عقيدة راسخة لأهل الوثنية، ويسهل دعوتهم وإقناعهم بالتوحيد، بعكس دعوة الكتابيّ ومن هم على شاكلته.

(١) فجر الإسلام، ص٢٤-٢٥ .

خامسها: إن الخطاب اليهودي للأوس والخزرج كان يشتمل على تهديد لهم، بأن هناك نبيا سيبعث، قد أظلّ زمانه، وأنهم سيتبعونه ويقاتلون معه، مما دفع وفد الخزرج إلى فهم دعوة الرسول إليهم، وقد ربطوا بين مقولات اليهود، وكلمات الرسول.

سادسها: لا نتفق مع ما تذهب إليه الرؤية العلمانية، المتأثرة بالاستشراق الغربي، التي تعلي من شأن اليهود في الجزيرة العربية، حيث يذهب أحد الكتّاب العرب إلى أن اليهود كانت لهم « السيطرة الحضارية والمعرفية لأنهم كانوا أصحاب علم وبيدهم كتاب مقدس، ويؤمنون بوحدانية الإله، التي هي لا جدال أكثر تقدما في درجة العقيدة الإيمانية من الوثنية والتعددية الإلهية، التي كانت عليها قبائل جزيرة العرب، قبل اختلاط أفرادها بأصحاب عقيدة التوحيد. فإذا انتهينا إلى ذلك كان القول بتقليد العرب لليهود وتأثرهم بهم وأخذهم عنهم أمرا مقبولا ومستساغا، ذلك أن تقليد الأدنى للأرقى مسلم به»(١).

ونحن نتساءل هل كان لليهود السيطرة الحضارية والمعرفية على القبائل العربية في يثرب؟ والإجابة تكون من الواقع والتاريخ، فالسيطرة تعني هيمنة حضارية وفكرية ومعرفية ناتجة عن إيمان واقتناع من الأوس والخزرج باليهود، وهذا لم يحدث، وإلا كان الوفد قد جادل الرسول فيما طرحه عليهم، وشكك في دعوته وطروحاته، وتمسك بالرؤى اليهودية التي ينبغي أن يكون مقتنعا بها، فالهيمنة

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم، سينا للنشر - القاهرة، الانتشار العربي-بيروت، ط٢، ١٩٩٧م، ص١٥٥.

تعني سيطرة نفسية وفكرية لهم.

كما أن مفهوم التوحيد كان غائما لدى اليهودية، حيث تشير الأبحاث إلى التباس كبير في مفهوم التوحيد في اليهودية، ويظهر ذلك في تعدد الآلهة في التوراة واختلاف أسمائها، فهذا العدد الكبير من الآلهة يشير بشكل ملموس إلى فكرة رئيسية محتواها، دحض فكرة الدين السماوي الموحَّد، وهو ما يدحض مفهوم التوحيد عند اليهود، علاوة على أنه كان لليهود طقوس وثنية الطابع لم ينقطعوا عنها، متأثرين بتراثهم عبادة العجل الذهبي الذي صنعوه في سيناء أثناء خلوته الطويلة مع الإله وعندما عاد وجدهم على عبادة العجل، وهو الأمر الذي دفعه إلى كسر الألواح التوراتية، وقد ظلت آثار هذا الالتباس بعد ذلك في مفهوم الرب، وماهيته[1].

إن الحقائق التاريخية تفيد بأن اليهود كان مستعلين متكبرين على عرب يثرب وغيرهم، ولكنهم لم يسعوا إلى تهويدهم أو حتى نرى آثارا إيجابية عملية في ثقافة الأوس والخزرج من اليهود. وبذلك، تسقط الفرضية التي ساقها الكاتب وهي أن العرب قلّدوا اليهود عندما آمنوا بالإسلام، لأنها فرضية ساذجة، فقد كان الأحرى بهم أن يتبعوا

---

(١) إشكالية التوحيد عند اليهود، عامر هادي الذرب، موقع كتابات ٢٥/ ٧/ ٢٠١٢، https:// 25/07/kitabat.com/2012. ومن نماذج على تلك التسميات نذكر منها على التتابع: أدوناي، ياهو، يهوه، إيل، ألوهيم، بعل، أهيه، وقد كان كتاب التوراة، من الناحية السياسية، أشبه ببرنامج عمل عنصري الجوهر، يسعى القائمون على صياغته لتحقيق أهداف دنيوية، وفي هذا السياق لابد من الإشارة إلى أنَّ الكتاب ذاته لا يتطرق إلى مسألتي الثواب والعقاب الأخرويين، كون التوراة تعبِّر عن دين وضعي وليس ديناً سماوياً، ويهتم بإنجاز أهداف دنيوية بحتة، كما لا تحتوي التوراة على إشارات واضحة إلى مفهوم نهاية الحياة: أي مجيء يوم القيامة، أي مفهوم «اليوم الآخر» الذي «بشَّر» به الدين الإسلامي و«أنذر».

اليهـود، وهـذا لم يتـم، كـما تسـقط فرضيتـه بـأن اليهـود كان الأعـلى والعرب هـم الأدنـى، لأن الواقـع بعـد الهجـرة، أثبـت إيـمان العـرب بشـكل مطـرد بالإسـلام، وإيـمان عـدد مـن أحبـار اليهـود وأفـراد مـن قبائلهـم بالإسـلام، فمـن يكـون لـه المكانـة الأعـلى إذن؟!

إذن، فالكاتـب لم يـأت بجديـد، وإنـما هـو متأثـر بشـكل مبـاشر، بالمدرسـة الاسـتشراقية، التـي كان للمسـتشرقين اليهـود المكانـة الكـبرى فيهـا، وسـيطروا عـلى التوجـه الغـربي في الاسـتشراق، وسرّبـوا فيـه نظرتهـم العنصريـة لأنبيائهـم وعقيدتهـم وتاريخهـم، واعتقادهـم الجـازم أنهـم متفـردون وغيرهـم تبـع لهـم، مـع شـعورهم بالتفـوق والاسـتعلاء عـلى الأمـم الأخـرى، وكـما قيـل: يُعَـدّ الاسـتشراق (اليهـودي) صـورة سـيكولوجيا شـكلا مـن أشـكال الخيـلاء المـرضي. بجانـب كراهيتهـم الدفينـة وعدائهـم المتأصـل للإسـلام وتاريخـه وكذلـك للأمـم الأخـرى، وهـي تكـون سـافرة عنـد بعضهـم، ومضمـرة عنـد آخريـن منهـم[1]، والمشـكلة أن الكتّـاب العلمانيـين العـرب عـلى قناعـة تامـة بهـا، ويجادلوننـا عـلى أساسـها.

ونعـود إلى الوفـد الـذي قابـل الرسـول أولا، فهـؤلاء عـادوا إلى يثـرب، ذكـروا لقومهم رسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم)، ودعوهـم إلى الإسـلام، حتـى فشـا فيهـم. فلـم يبـق دار مـن دور الأنصـار إلا وفيهـا ذكـر رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم، حتـى إذا كان العـام المقبـل، وافى الموسـم

---

(١) الاسـتشراق اليهـودي: رؤيـة موضوعيـة، د. محمـد عبـد الرحيـم الزينـي، دار اليقـين للنـشر والتوزيـع، المنصـورة، مـصر، ط١، ١٤٣٢هــ، ٢٠١١م، ص٢٦٦، ٢٦٨.

مـن الأنصـار اثنـا عـشر رجـلا. والمقصـود أن هـؤلاء الاثنـي عـشر رجـلا شـهدوا الموسـم عامئـذ، وعزمـوا عـلى الاجتـماع برسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم)، فلقـوه بالعقبـة، فبايعـوه عندهـا بيعـة النسـاء، وهـي العقبـة الأولى، وذلـك قبـل أن تفـترض الحـرب عـلى أن لا نـشرك بـالله شـيئا، ولا نـسرق، ولا نـزني، ولا نقتـل أولادنـا، ولا نـأتي ببهتـان نفتريـه بـين أيدينـا وأرجلنـا، ولا نعصيـه في معـروف، « فـإن وفيتـم فلكـم الجنـة وإن غشـيتم مـن ذلـك شـيئا فأمركـم إلى الله إن شـاء عـذب وإن شـاء غفـر »[١].

فكانـت بيعـة العقبـة الأولى تعنـي انتشـارا سريعـا للإسـلام، في أرض جديـدة، وقـد ظلـوا عامـا كامـلا فتعمـق الإيـمان في قلوبهـم، وحـضر عـلى ألسـنتهم، ودار في مناقشـاتهم، وذلـك بجهـود السـفير الـذي بعثـه الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم)، وهـو مصعـب بـن عمـير (رضي الله عنـه)، الـذي اختـار أبـا أمامـة أسـعد بـن زرارة، ليكـون سـاعده الأيمـن في نـشر الدعـوة بيثـرب، حيـث نـزل عليـه في داره، وراح مصعـب يتنقـل بـين دور الأنصـار، يعرّفهـم بالدعـوة، ويتلـو عليهـم القـرآن، ويعلّـم الشريعـة والعبـادات والأخـلاق، كـما دخـل في حـوارات مـع زعـماء الأوس، وبعـض الشـخصيات مـن الخـزرج، بشـكل عقـلاني وهـادئ، ضاربـا المثـل في القـدرة عـلى الإقنـاع، وكسـب الـود، وتأليـف القلـوب.

وهـو مـا ينبغـي أن ندرسـه بعنايـة في فقـه الهجـرة، خاصـة مـع المجتمعـات غـير المسـلمة، التـي سـيختلف حتـما الخطـاب معهـا عـن خطـاب المجتمعـات المسـلمة، وذلـك في ضـوء صعـود الإسـلاموفوبيا التـي

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، ج٤، ٣٧٤، ٣٧٥

تجتـاح الغــرب، وتمتــد آثارهــا إلى الــشرق.

لقــد كان مصعــب (رضي الله عنــه) غايــة في الــذكاء، واحتــواء الغضــب والــرد عــلى القناعــات المسبقة لــدى بعــض أبنــاء قبيلتــي الأوس والخــزرج، وهــذا طبيعــي ومتوقــع، حيــث ســادت يثــرب حالــة مــن اللغــط، بعــد إســلام البعــض، وبقــاء آخريــن عــلى معتقداتهــم، بجانــب السـلوكيات التــي أبداهــا المسـلمون المهتـدون، وكيــف أنهــم تعاملــوا مــع أقربائهــم غــير المســلمين.

ومــن هــذه المواقــف أن ســعد بــن معــاذ ابــن خالــة أســعد بــن زرارة، دخــل حائطــا مــن حوائــط (بســاتين) بنــي ظفــر عــلى بئــر يقــال لــه بئــر مــرق. فجلــس في الحائــط، واجتمــع إليهــما رجــال ممــن أســلم. وكان أســيد بــن حضــير برفقــة ســعد بــن معــاذ، وهمــا يومئــذ ســيدا قومهــما مــن بنــي عبــد الأشــهل، وكلاهمــا مــشرك عــلى ديــن قومــه، فلــما ســمعا بــه، قــال ســعد لأســيد: «لا أبــا لــك، انطلــق إلى هذيــن الرجلــين اللذيــن قــد أتيــا دارينــا ليسـفّها ضعفاءنــا فازجرهمــا، وانهِهــما عــن أن يأتيــا دارينــا، فإنــه لولا أسـعد بــن زرارة مني حيــث قــد علمــت، كفيتــك ذلــك، هــو ابــن خالتــي ولا أجــد عليــه مقدمــا». أخــذ أســيد بــن حضــير حربتــه، ثــم أقبــل إليهــما، فلــما رآه أســعد بــن زرارة، قــال لمصعــب: هــذا ســيد قومــه، وقــد جــاءك فاصــدق الله فيــه. قــال مصعــب: إن يجلــس أكلمــه. قــال: فوقــف عليهــما (أسـيد) متشــتمًا. فقــال: مــا جــاء بكــما إلينــا تســفهان ضعفاءنــا؟ اعتزلانــا إن كانــت لكــما بأنفســكما حاجــة.

وفي رواية أخرى، قال أسيد (لأسعد): علام أتيتنا في دورنا بهذا الوحيد الغريب الطريد يسفّه ضعفاءنا بالباطل ويدعوهم إليه؟ فقال له مصعب: أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره. قال: أنصفتَ. قال: ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن. فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي، فقام فاغتسل، وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن؛ سعد بن معاذ. ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا، قال: قال أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم. فلما وقف على النادي، قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلّمتُ الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت[1].

إذا أردنا قراءة الموقف السابق، وتحليله، سنجد دلالات عديدة. فقد تعرض مصعب بن عمير (رضي الله عنه) لامتحانات عديدة، من قبل لم يسلم. فهذا أسيد بن حضير، يأتيه حاملا حربته، مهددا إياه، وقبل أن يدنو أسيد من مصعب، يقول له رفيقه وصديقه وناصره أسعد

(١) السيرة النبوية لابن كثير-ج٤، ص٣٧٩، ٣٨٠.

بـن زرارة، أن يصـدق الله فيـه، لأنـه ذو مكانـة كبـيرة في قومـه. فلـما وقـف أسـيد عـلى رأس مصعـب، أجـاب عـن تهديـده لـه بـأن دعـاه للجلـوس والاسـتماع، مـن أجـل تصحيـح رؤيتـه أولا، وهـو مـا قـد تـم، وسرعـان مـا تغـير أسـيد، وآمـن، وسـألهما عـن كيفيـة الإسـلام، فأرشـداه: بالغسـل والتطهـر والصـلاة ثـم النطـق بالشـهادتين، ومـن ثـم الدخـول في الإسـلام، وهـو مـا قـام بـه.

كل هـذا يعـود إلى مهـارة مصعـب الشـخصية، وقدرتـه عـلى الدعـوة والإقنـاع، وأنـه اسـتطاع أن يجـذب واحـدا مـن زعـماء يثـرب، الـذي تـولى دعـوة شـخصية كـبرى وهـو سـعد بـن معـاذ (رضي الله عنـه)، الـذي كان سـببا في إيـمان قومـه بعـد ذلـك.

وكانـت النتيجـة أنـه لم تبـقَ دار مـن دور الأنصـار إلا وفيـه رهـط مـن المسـلمين يظهـرون الإسـلام، ثـم ائتمـروا جميعا(اتفقـوا)، قائلـين: حتـى متـى نـترك رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم يطـرد في جبـال مكـة ويخـاف؟ فرحـل إليـه سـبعون رجـلا حتـى قدمـوا عليـه في الموسـم، فواعـدوه شـعب العقبـة، فاجتمعنـا عندهـا مـن رجـل ورجلـين حتـى توافينـا. وقـد جـاء الرسـول ومعـه العبـاس بـن عبـد المطلـب، وهـو يومئـذ عـلى ديـن قومـه، إلا أنـه أحـب أن يحـضر أمـر ابـن أخيـه، ويتوثـق لـه، فلـما جلـس كان أول متكلـم العبـاس بـن عبـد المطلـب، فقـال: يـا معـشر الخـزرج -وكانـت العـرب إنـما يسـمون هـذا الحـي مـن الأنصـار الخـزرج خزرجهـا وأوسـها- إن محمـدا منـا حيـث علمتـم، وقـد منعنـاه مـن قومنـا ممـن هـو عـلى مثـل

رأينـا فيـه، فهـو في عـزة مـن قومـه، ومنعـة في بلـده، وإنـه قـد أبـى إلا الانحيـاز إليكـم، واللحـوق بكـم، فـإن كنتـم تـرون أنكـم وافـون لـه بـما دعوتمـوه إليـه، ومانعـوه ممـن خالفـه، فأنتـم ومـا تحملتـم مـن ذلـك، وإن كنتـم تـرون أنكـم مسـلِّموه وخاذلـوه بعـد الخـروج بـه إليكـم فمـن الآن فدعـوه، فإنـه في عـز ومنعـة مـن قومـه وبلـده .

فقالـوا لـه: قـد سـمعنا مـا قلـت، فتكلـم يـا رسـول الله، فخـذ لنفسـك ولربـك مـا أحببـت.

فتكلـم رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم فتـلا القـرآن، ودعـا إلى الله، ورغّـب في الإسـلام، ثـم قـال: أبايعكـم عـلى أن تمنعـوني ممـا تمنعـون منـه نسـاءكم وأبناءكـم فأخـذ الـبراء بـن معـرور بيـده ثـم قـال: نعـم فالـذي بعثـك بالحـق لنمنعنـك ممـا نمنـع منـه أزرنـا، فبايعنـا يـا رسـول الله، فنحـن والله أبنـاء الحـروب، وأهـل الحلقـة، ورثناهـا كابـرا عـن كابـر.

فقلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟

قـال: تبايعـوني عـلى السـمع والطاعـة في النشـاط والكسـل والنفقـة في العسـر واليسـر، وعـلى الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر وأن تقولـوا في الله لا تخافـون في الله لومـة لائـم، وعـلى أن تنـصروني فتمنعـوني إذا قدمـت عليكـم ممـا تمنعـون منـه أنفسـكم وأزواجكـم وأبناءكـم ولكـم الجنـة «.

فقمنـا إليـه، وأخـذ بيـده أسـعد بـن زرارة، وهـو أصغـر السـبعين. فقـال: رويـدا يـا أهـل يثـرب، فإنـا لم نـضرب إليـه أكبـاد الإبـل إلا ونحـن نعلـم أنـه رسـول الله، وأن إخراجـه اليـوم مفارقـة العـرب كافـة، وقتـل

خياركـم، وأن تعضكـم السـيوف، فإمـا أنتـم قـوم تصـبرون عـلى ذلـك فخـذوه، وأجركـم عـلى الله، وإمـا أنتـم قـوم تخافـون مـن أنفسـكم خيفـة، فبيّنـوا ذلـك، فهـو أعـذر لكـم عنـد الله، قالـوا: أمـط عنـا يـا أسـعد، فـوالله لا نـدع هـذه البيعـة أبـدا، ولا نسـلبها أبـدا. فقامـوا إليـه فبايعـوه.

فاعـترض القـول - والـبراء يكلـم رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم أبـو الهيثـم بـن التيهـان، فقـال: يـا رسـول الله، إن بيننـا وبـين الرجـال حبـالا، وإنـا قاطعوهـا- يعنـي اليهـود - فهـل عسـيت إن فعلنـا ذلـك ثـم أظهـرك الله، أن ترجـع إلى قومـك وتدعنـا؟ قـال: فتبسـم رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم، ثـم قـال: « بـل الـدم الـدم، والهـدم الهـدم، أنـا منكـم وأنتـم منـي، أحـارب مـن حاربتـم، وأسـالم مـن سـالمتم. ثـم قـال رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم: أخرجـوا إلى منكـم اثنـي عـشر نقيبـا يكونـون عـلى قومهـم بـما فيهـم. فأخرَجـوا منهـم اثنـي عـشر نقيبـا، تسـعة مـن الخـزرج، وثلاثـة مـن الأوس(١).

تبـدو في الموقـف دلائـل عديـدة، تكشـف مواقـف الرجـال، ومعـادن النفـوس، وعقائـد القلـوب، والصـدق في القـول. فالأنصـار جـاء وفـد منهـم مـن أجـل مبايعـة الرسـول، وقـد آمنـوا جميعـا، وسـعوا إلى نـصرة الرسـول، والترحيـب بـه في يثـرب، وحمايتـه في قومـه. وقـد تواعـدوا للقـاء رسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم) خـارج، فجـاء الرسـول ومعـه عمـه العبـاس بـن عبـد المطلـب، الـذي كان لا يـزال عـلى ديـن قومـه، ولكـن تبـدو عاطفتـه نحـو ابـن أخيـه الرسـول أشـد، فـأراد أن يسـتوثق مـن هـذه

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ج٤،الصفحات: ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠١

المعاهـدة الجديـدة. أي تقدمـت في نفسـه عاطفـة صلـة الرحـم عـلى مـا عداهـا، هـذا درس نتعلـم منـه أن الهدايـة مـن الله سـبحانه، وأن العبـاس لم يكـن الإيـمان قـد تمكـن مـن قلبـه، ولكـن الرسـول قـد ائتمنـه عـلى سر تحالفـه مـع الأنصـار، ومـا تـم الاتفـاق عليـه.

جـاءت كلـمات العبـاس دالـة عـلى ذكائـه وحنكته، حيـث أبـان للأنصار أن الرسـول في منعـة مـن قومـه، ويعيـش آمنـا في بلـده، عـلى الرغـم مـن الحصـار والتضييـق والتعذيـب الـذي عانـى منـه الرسـول مـع المسـلمين في مكـة، ووفـاة عمـه أبي طالـب، ولكـن ظلـت عشـيرة الرسـول في حالـة عصبيـة لـه، وإن لم يؤمنـوا جميعهـم.

الأمـر الـذي اسـتدعى رد مـن الأنصـار، وأنهـم يرحبـون بـه رسـولا، داعيـا إلى الحـق، وأنهـم سـينصرونه، ويمنعونـه مثلـما يمنعـون أي أذى عـن أهلهـم وأولادهـم، عـلى الرغـم مـن تحذيـر أسـعد بـن زرارة لهـم، ليكـون الـكلام صحيحـا وشـفافا، وليـس مبنيـا عـلى عاطفـة أو حماسـة وقتيـة. والعجيـب أن بيعـة الأنصـار كانـت عـلى التوحيـد الفضائـل كلهـا، وقـد رد الرسـول بأنـه سـيكون معهـم في رابطـة تعـادل رابطـة الـدم.

وقـد كانـت البنـود الخمسـة للبيعـة واضحـة أشـد الوضـوح، وقويـة في معناهـا، كـما أن لغتهـا لا تقبـل التمييـع والتراخـي[1]، حيـث بايـع الأنصـار عـلى السـمع والطاعـة في النشـاط والكسـل، والنفقـة في اليسـر والعسـر، والأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، والقيـام في الله لا تأخذهـم فيـه لومـة لائـم، وعـلى نـصرة الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم).

(١) السيرة النبوية، الصلابي، ص ٣٠٢.

وإذا تأملنا هذه البنود، نجد أنها بيعة إيمان وتسليم لله تعالى، ثم لقيادة رسوله (صلى الله عليه وسلم)، ليس فيها من الدنيا شيء، من صراع على زعامة قبلية أو مجد سيأخذه الأنصار في حالة انتصار الرسول، وإظهار دعوته. أي أن الرسول سيغادر مكة، وسيتولى قيادة المسلمين فيها، بوصفها دار إسلام وحماية لهم.

ولاشك أن بيعة العقبة الثانية تمثل « فتح الفتوح» في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم)، حيث صارت يثرب دار إيمان، في مواجهة دار الكفر في مكة وما عداها، وبات الأنصار بمثابة الجيش الحامي للرسول، وأنها أرض صلبة قوية، لن تسيخ فيها قدم مؤمن، وتهيأت المدينة لحدوث أكبر تغيرات في تاريخ الإسلام[1].

ويجب أن نسجل أن الأنصار جاءوا مبايعين للرسول، مرحبين بقدومه ونصرته، وقد أخذوا فترة من الزمن حوالي عامين، تفكروا فيها، وآمنوا، واقتنعوا اقتناعا خالصا، وصاروا على استعداد كامل للتضحية والفداء، على الرغم من أن معرفتهم بالنبي (صلى الله عليه وسلم) كانت لا تزال بسيطة، فمن قابله في البيعتين كانوا في النهاية عدد قليل، ولم يعايشوا الرسول إلا فترة بسيطة من الوقت، خلال لقاءاتهم معه.

وبذلك تسقط دعاوى الرؤية العلمانية التي ترى أن «هذه البيعة حملت كل طقوس التوافق القبلي، بدءا من الكلمات، وانتهاءً بالبيعة

---

(١) محمد رسول الله: منهج ورسالة، بحث وتحقيق، محمد الصادق عرجون، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، ج٢، ص٣٩٥.

بالـضرب عـلى يـد الرسـول»[1]، فهـي دعـوى تبحـث عـن الجاهليـة وتنتـصر لهـا، وتقـف عنـد ظاهـر الكلـمات والحـركات ولا تغـوص في الجوهـر، والجوهـر هـو التوحيـد وروحانيـة الإسـلام، وصفـاء العقيـدة، وهـو مـا ظهـر في أركان البيعـة، حيـث تـرددت كلـمات الإيـمان والسـمع والطاعـة والالتـزام بالمعـروف، ونبـذ المنكـر، فـأي جاهليـة هـذه يتحـدث عنهـا الكاتـب. ولـو تأمـل المـدون في كتـب السـيرة، لوجـد أن كل مـا حـول البيعـة يـشي بـأن هنـاك روحـا جديـدة، تـسري في الأنصـار، جعلتهـم عـلى اسـتعداد لحمايـة الرسـول بـكل الطـرق. وعلينـا أن نقـرر أن الإسـلام لا يلغـي كل تقاليـد الجاهليـة، بـل يحافـظ ويبقـي عـلى مـا يتفـق مـع روحـه وتعاليمـه، ثـم يعلّـم النفـوس كيـف تكـون هـذه التقاليـد نـصرة لله ولرسـوله. فالعـبرة هنـا بالنيـة، التـي تعنـي هـدف المسـلم الكامـن في قلبـه، مـاذا يريـد مـن الفعـل؟ والبيعـة هنـا، كانـت ببعـض مـا تتوافـق عليـه القبائـل في الجاهليـة، ولكنهـا كانـت قلبـا وقالبـا تحمـل الإسـلام، وتنتـصر للرسـول، وتنافـح عـن العقيـدة، وتحتضـن الرسـالة.

إن موقـف الأنصـار، كان ثمـرة لسـفارة مصعـب بـن عمـير، وكيـف أنـه كان سـببا بـأن يجعـل الإسـلام يترقـرق في قلـوب الأنصـار، ويعمّرهـا بالقـرآن الكريـم، وبحـب الرسـول. وهنـاك خلـف أظهرهـم في المدينـة، مـن سـمعوا عـن الرسـول، وأسـلموا، وحفظـوا القـرآن، ولكنهـم لم يـروا الرسـول، أحبـوه دون أن يـروه، فمـنّ الله عليهـم بـأن يهاجـر الرسـول إلى

---

(١) السـلطة والمعارضـة في الإسـلام: بحـث في الإشـكالية الفكريـة والاجتماعيـة، زهـير هواري، المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنـشر، بـيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص٣٤.

مدينتهم، ويتخذها عاصمة لدولته، ثم يكون فيها مسجده ومدفنه.

هذا، وقد كانت بيعتا العقبة الأولى والثانية مفاجأة وضربة استراتيجية بكل المقاييس إلى قريش، فقد حسبوا أنهم حصروا محمد (صلى الله عليه وسلم) في نطاق لا يعدوه داخل مكة، وأنهم أرهقوا المسلمين وأشغلوهم بالمطاردة والتعذيب والحصار[1]، ومع كل محاولات قريش السابقة إلا أن الرسول ومعه جماعة المسلمين، استطاعوا كسر الحصار، والخروج من مكة مرات عديدة، إما بالهجرتين إلى الحبشة، أو برحلة الطائف، أو بالطواف على القبائل في مواسم الحج، وأخيرا بالاتفاق مع وفد الأنصار، الذي كان اتفاقا نهائيا، وبيعة في الأعناق، في دلالة على نجاح الرسول في خطته، بنقل الدعوة إلى خارج مكة، في أرض جديدة، وأناس جدد، وبيئة جديدة، وأن الرسول اتخذ كافة الاحتياطات والسبل البشرية من أجل تنفيذ ما خطط له. وهو من الأمور التي ينبغي أن نتعلمها في حياتنا، خاصة على صعيد الهجرة لأي داع من الدواعي، فلابد من استنفاذ كافة أسباب الجهد البشري، مع التوكل الكامل على رب العزة، والتسلح بالعزيمة.

ثم إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمر أصحابه من المهاجرين من قومه، ومن معه بمكة من المسلمين، بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها، واللحوق بإخوانهم من الأنصار، وقال: إن الله عز وجل قد جعل لكم إخوانا ودارا تأمنون بها. فخرجوا أرسالا، وأقام رسول الله

(١) الهجرة النبوية ودورها في بناء المجتمع المسلم: دراسة تحليلية في ضوء الكتاب والسنة، د.سعد المرصفي، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م، ص١٢٠، ١٢١.

صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة، والهجرة إلى المدينة [1].

فجاء خروج الصحابة المكيين متتابعين في هجرات متتابعة، غالبيتها كانت سرية، وقليلها كان علانية، وباتت قريش أمام مأزق كبير، فالرسول تركهم، واختار أرضا جديدة، ناصره أهلها، وأدركت قريش أنها بداية نصرة للرسول ولو بعد حين.

هجرة الرسول إلى المدينة:

كان المشهد قبل هجرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) متسارع الأحداث، فقد تلاحق المهاجرون إلى المدينة المنورة، فلم يبق بمكة منهم أحد، إلا مفتون أو محبوس، ولم يوعب أهل هجرة من مكة بأهليهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلا أهل دور مسمَّون: بنو مظعون من بني جمح؛ وبنو جحش بن رئاب، حلفاء بني أمية؛ وبنو البكير، من بني سعد بن ليث، حلفاء بني عدي بن كعب، فإن دورهم غلّقت بمكة هجرة، ليس فيها ساكن[2].

فالباقون من المسلمين في مكة قلة، لديهم من يحميهم من العصبية والعشائرية، أو لديهم أعذار خاصة منعتهم من الهجرة. ولكن الثابت في المشهد أن دار الإيمان الجديد باتت تعج بالمسلمين، ويُصدَح فيها بكلمات التوحيد، والناس في تشوف إلى هجرة رسول الله. ما أعظمها

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١،س٤٦٨.
(٢) المرجع السابق، ج١، ص٤٩٩، ٥٠٠

مـن لحظـات! عندمـا يكـون للمسـلم موطئـا، يعيـش فيـه بأمـان وينعـم فيـه بالعبـادة، ويـرى الإسـلام حيـا أمامـه: عبـادات، وشريعـة، وأخلاقـا، وفوق ذلـك أمـران رائعـان، لمـن عـاش هـذه الحقبـة المفصليـة في تاريـخ الإسـلام، فالقـرآن الكريـم يتنـزل، والرسـول يغـدو بـين النـاس، وتاريـخ جديـد يتـم صنعـه، والـكل في حالـة مـن الروحانيـة الخالصـة، وهـم يـرون الإسـلام ينتـصر، والآيـات القرآنيـة تنسـاب عـلى ألسـنة الصغـار والنسـاء والرجـال، وتكـوّن المجتمـع المسـلم، الـذي حلمـت بـه الأفئـدة في مكـة سرا، فهـا هـو يتمثـل أمامهـا جهـرا، وتحققـه نفـوس مـن المهاجريـن والأنصـار، كانـوا غايـة في السـمو الخلقـي والتعبـدي والروحـي، تلـك الحقيقـة التـي مهـما فاضـت الأقـلام في وصفهـا، فلـن تـوفي بحقهـا، وهـذا مـا لا تدركـه أصحـاب النفـوس الضعيفـة، مـن الأقـلام العلمانيـة، والنفـوس الرديئـة مـن المستشرقين، الذيـن يقـرأون السـيرة العطـرة، وأحـداث الهجـرة، باحثـين عـن الدنيـا ومفاتنهـا، في مجتمـع أخـرج الدنيـا مـن قلبـه، فجاءتـه جاثيـة تلاحقـه بخيراتهـا، التـي أفـاء الله بهـا، وشـتان مـا بـين مـن يركـض وراء الدنيـا، ومـن تركـض الدنيـا وراءه. الأول عابـد لهـا يلاحقهـا، والثـاني عابـد لله وهـي تلاحقـه.

ولا نتصـور مـدى الفرحـة العامـرة التـي مـلأت قلـوب المسـلمين، بعدمـا علمـوا بـدار الهجـرة، وأن صبرهـم عـلى الأذى أثابهـم الله عليـه في الآخـرة، ونصرهـم في الدنيـا، بالأنصـار في المدينـة المنـورة، الذيـن بايعـوه عـلى السـلم والحـرب[1]، فلاشـك أن كل مهاجـر كان يخـرج سرا أو جهـرا،

(١) محمد رسول الله، محمد الصادق عرجون، ص٤١٢.

كان قلبه ممتلئا بالإيمان، عامرا بالغبطة، يملأه الأمل، ويكسي الحبور وجهه، كيف لا؟ وهو مهاجر إلى مدينة، سيرى الإسلام فيها حيا في أخلاق المسلمين من حوله. فيمكن أن نقرر أن الحزن لم يكن له وجود وقتها، وأن الهجرة كانت تعني أمانا وطمأنينة، وسعادة وتفاؤلا.

لن نفصّل كثيرا في أحداث الهجرة، فما أكثر الكتب التي فصّلت وتناولت أحداثها، ولكننا نورد إشارات، نسعى من خلالها إلى فهم الأحداث والمآلات.

وقد مكث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بمكة بعد أصحابه من المهاجرين منتظرا الإذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس أو فتن، إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق (رضي الله عنهما)، وكان أبو بكر كثيرا ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحبا، فيطمع أبو بكر أن يكون الرسول[1].

تطلع الصديق أبو بكر (رضي الله عنه) للهجرة، متشوقا إلى دار الإيمان الجديدة، والرسول (صلى الله عليه وسلم) يستمهله، وهو الذي يستعجل جميع المؤمنين لكي يلحقوا بإخوانهم الذين سبقوهم إلى المدينة المنورة. ثم يتشرف أبو بكر بصحبة الرسول، بعدما يأذن الله لهما بالهجرة، في أحداث تم ترتيبها بعناية فائقة من قبل الرسول، ولا تزال تقدما لنا دروسا في التخطيط والحيلة لإنجاح الدعوة.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٤٨٠.

لقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة انطلق إلى الغار، ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه، وساعة خلفه، حتى فطن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فقال: يا أبا بكر، ما لك تمشي ساعة بين يدي، وساعة خلفي «. فقال: يا رسول الله، أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثم أذكر الرصد فأمشي بين يديك. فقال: يا أبا بكر، لو كان شيء لأحببت أن يكون بك دوني؟. قال: نعم الذي بعثك بالحق. فلما انتهيا إلى الغار؛ قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ لك الغار . فدخل فاستبرأه حتى إذا كان في أعلاه، ذكر أنه لم يستبرئ الجحرة، فقال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ. فدخل فاستبرأ، ثم قال: انزل يا رسول الله. فنزل. وفيه أن أبا بكر جعل يمشي بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تارة، وخلفه أخرى، وعن يمينه، وعن شماله[1]. وفيه أنه لما حفيت رجلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حمله الصديق على كاهله، وأنه لما دخل الغار سدد تلك الجحرة كلها، وبقي منها جحر واحد، فألقمه كعبه، فجعلت الأفاعي تنهشه ودموعه تسيل، فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم): لا تحزن إن الله معنا[2].

هذا المشهد دال على عظم الصديق أبي بكر، رفيق الرسول في الهجرة، ومستوى الحب بينهما، أبو بكر يفديه بكل جسده، ويتفانى في راحة الرسول، ليكون مثلا أعلى لكل رفيق في السفر، ولكن من

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير، ج٤، ص: ٤٤٩، ٤٥٠

(٢) المرجع السابق، ج٤، ص٤٥٥.

ترافق في هجرة، ونعرف من الموقف السابق، كيف أن الله كان معهما في كل لحظة، يحميهما، تتدخل الرعاية الربانية عندما يستنفذ البشر كل ما عندهم، وما مقولة « لا تحزن إن الله معنا » إلا دالة على ذلك.

«أقام الرفيقان في الغار ثلاثة أيام ليسكن الطلب عنهما؛ وذلك لأن المشركين حين فقدوهما كما تقدم، ذهبوا في طلبهما كل مذهب من سائر الجهات، وجعلوا لمن ردهما أو أحدهما مائة من الإبل، واقتصوا آثارهما حتى اختلط عليهم، وكان الذي يقتص الأثر لقريش سراقة بن مالك بن جعشم، كما تقدم، فصعدوا الجبل الذي هما فيه، وجعلوا يمرون على باب الغار، فتحاذي أرجلهم لباب الغار ولا يرونهما؛ حفظا من الله لهما، وهذا أبو بكر يقول للنبي (صلى الله عليه وسلم) ونحن في الغار: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا تحت قدميه. فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما[1]، إنه الإيمان المطلق، والتسليم الكامل، وحسن التوكل على الله، والثقة في النصر.

ونرى أيضا مدى الحقد الذي عليه جماعة الكفر، وكيف أنهم طاردوا الرسول لقتله، بعدما أغشى الله أعينهم، فخرج الرسول من بين أيديهم، وهم لا يبصرون. مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۞ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۞ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۞ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ

(١) السيرة النبوية لابن كثير- ج٤، ص: ٤٥٥.

فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[1].

لما عاد أبو جهل إلى أصحابه، ولم يصل إلى النبي (صلى الله عليه وسلم)، وسقط الحجر من يده، أخذ الحجر رجل آخر من بني مخزوم وقال: أقتله بهذا الحجر. فلما دنا من النبي (صلى الله عليه وسلم) طمس الله على بصره فلم ير النبي، فرجع إلى أصحابه فلم يبصرهم حتى نادوه[2]. والمعنى يمتد ليشمل الدنيا، وأحوالها، لمن ارتكن عليها، وأسرف به الأمل.

وصل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة، وذلك في شهر ربيع الأول، إلى صفر من السنة الداخلة، حتى بُني له فيها مسجده ومساكنه، واستجمع له إسلام هذا الحي من الأنصار، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها، إلا ما كان من خطمة، وواقف، ووائل، وأمية، وتلك أوس الله، وهم حي من الأوس، فإنهم أقاموا على شركهم[3].

بما يعني أن المشركين تواجدوا، ومع ذلك قبلهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المجتمع الجديد، فالقضية في النفوس، وليست في العدد، وهؤلاء ظلوا على شركهم، وهم يرون القيادة في المدينة تؤول إلى الرسول، والكل يتبعه، وتتابع الأحداث والغزوات، فمنهم من آمن، ومنهم من نافق، والرسول معتن ببناء الدولة، وتربية المجتمع

(١) سورة ياسين، الآيات (٩-١٢).

(٢) تفسير القرطبي، ج١٥، ص١١.

(٣) السيرة النبوية، لابن هشام، ج١، ص٥٠٠.

المدني الجديد على معاني الإيمان والتقوى، حيث ذابت العصبية، وأصبحت الدعوة إلى الله علانية، ونشط الشباب والكهول والنساء في الدعوة، والتبشير بقدوم الرسول، ثم التعاون التام مع الرسول عند وصوله. وبالطبع لا توجد مقارنة بين دار الهجرة المؤقتة في الحبشة، ودار الهجرة الدائمة في المدينة المنورة، فالوضع في الحبشة كان أقرب إلى اللجوء السياسي، ووجود الجالية الأجنبية فيه، أكثر مما كانت تحمل طابع المجتمع المسلم الكامل، ذلك أنهم كانوا معزولين عن المجتمع الحبشي، ولذلك، هاجر معظم مهاجري الحبشة إلى المدينة. فقد ضمت المدينة القاعدة الصلبة التي بذل الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقتا وجهدا في تربيتها بمكة المكرمة، بدأت تعطي ثمارها، في المدينة المنورة، حيث صهر الرسول الجميع - المهاجرين والأنصار - في بوتقة الجماعة[1]، فتآلفت وتلاحمت وتآخت.

وهذا لا يمنع من وجود فئات أخرى كانت معارضة لحضور الرسول وإقامته وانتشار الإسلام، وهما اليهود، والمنافقون. وفي ذلك يقول صاحب الظلال: « كانت هناك طائفة المنافقين، ووجود هذه الطائفة نشأ مباشرة من الأوضاع التي أنشأتها الهجرة النبوية إلى المدينة في ظروفها التي تمت فيها ولم يكن لها وجود بمكة.

فالإسلام في مكة لم تكن له دولة ولم تكن له قوة، بل لم تكن له عصبة يخشاها أهل مكة فينافقونها، على الضد من ذلك كان الإسلام مضطهدا، وكانت الدعوة مطاردة، وكان الذين يغامرون بالانضمام إلى

---

(١) السيرة النبوية، الصلابي، ج١، ص٣١٨، ٣١٩.

الصف الإسلامي هم المخلصون في عقيدتهم، الذين يؤثرونها على كل شيء ويحتملون في سبيلها كل شيء. فأما في يثرب التي أصبحت منذ اليوم تعرف باسم المدينة - أي مدينة الرسول- فقد أصبح الإسلام قوة يحسب حسابها كل أحد ويضطر لمصانعتها كثيرا أو قليلا- وبخاصة بعد غزوة بدر وانتصار المسلمين فيها انتصارا عظيما- وفي مقدمة من كان مضطرا لمصانعتها نفر من الكبراء، دخل أهلهم وشيعتهم في الإسلام وأصبحوا هم ولا بد لهم لكي يحتفظوا بمقامهم الموروث بينهم وبمصالحهم كذلك أن يتظاهروا باعتناق الدين الذي اعتنقه أهلهم وأشياعهم»[1].

ومن هنا نقرر أن وجود مثل هذه الفئات أمر طبيعي في المجتمع المسلم، وإذا كنا نتحدث عن مثالية هذا المجتمع، فهذا لا يعني عدم الواقعية، وإنما المثالية داخل الصف المسلم الطاهر، الذي ينبذ كل مظاهر العداوة والنفاق والتآمر داخله، ولكنه يواجهها بقوة وحنكة خارجه. وهنا لابد أن تهدأ العاطفة والحماسة، لننظر إلى واقع المجتمع المسلم الذي ستكون فيه عاهات نفسية من نفاق للمسلمين، ومداهنة لهم، لأن القضية قضية قلوب، وليست مواقف وشعارات، وإذا كانت الهداية لم تلامس شغاف قلوبهم، فذلك لأنهم لم يكونوا على استعداد لها، ولا راغبين فيها. ومع ذلك، فعليهم أن ينصاعوا للدولة المسلمة التي أسسها الرسول وقادها.

وكانت المؤاخاة التي بين المهاجرين والأنصار عنوانا لما يسمى

(١) في ظلال القرآن، ج١، ص٣١.

بالتجمع في عضوية حركية، منفصلة عن الجاهلية حولهم بكل أشكالها وصورها، وتمتاز بخصائصها الدينية[1]، والرابطة الروحية التي تجمع بين قلوب أعضائها.

وتبدت دعائم دولة الإسلام ممثلة في بناء المسجد الأعظم لتقام فيه شعائر الإسلام، وتعاون المسلمون فيه مع رسولهم لوضع لبناته، وتنظيم بنائه، ثم أقيم الآذان، وصدح به بلال بصوته العذب، الذي جذب الآذان وأسعد القلوب.

وجاءت وثيقة المدينة بمثابة دستور للتعايش والتلاقي والتسامح بين كل قاطني المدينة، وقد كتب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كتابا بين المهاجرين والأنصار من جهة، وأشرك فيه يهود وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم، واشترط عليهم، ونص الكتاب: » بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من محمد النبي صلى الله عليه وسلم، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم، فلحق بهم، وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين؛ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط

(١) الهجرة النبوية ودورها في بناء المجتمع الإسلامي، د. سعد المرصفي، ص١٣٨.

بـين المؤمنـين؛ وبنـو جشـم عـلى ربعتهـم يتعاقلـون معاقلهـم الأولى، وكل طائفـة منهـم تفـدي عانيهـا بالمعـروف والقسـط بـين المؤمنـين؛ وبنـو النجـار عـلى ربعتهـم يتعاقلـون معاقلهـم الأولى، وكل طائفـة منهـم تفـدي عانيهـا بالمعـروف والقسـط بـين المؤمنـين، وبنـو عمـرو بـن عـوف عـلى ربعتهـم يتعاقلـون معاقلهـم الأولى، وكل طائفـة تفـدي عانيهـا بالمعـروف والقسـط بـين المؤمنـين؛ وبنـو النبيـت عـلى ربعتهـم يتعاقلـون معاقلهـم الأولى، وكل طائفـة تفـدي عانيهـا بالمعـروف والقسـط بـين المؤمنـين، وبنـو الأوس عـلى ربعتهـم يتعاقلـون معاقلهـم الأولى، وكل طائفـة منهـم تفـدي عانيهـا بالمعـروف والقسـط بـين المؤمنـين؛ وإن المؤمنـين لا يتركـون مفرحـا بينهـم أن يعطـوه بالمعـروف في فـداء أو عقـل[(١)].

بهـذه الوثيقـة تحولـت المدينـة المنـورة إلى أرض اسـتقرار، وأسـاس للدولة المسـلمة، التـي تحـوي في رعاياهـا المسـلمين، والوثنيـين، وأهل الكتـاب. وتم تحديـد مفهـوم الأمـة بأنهـا تضـم المسـلمين جميعـا، مهاجريهـم وأنصارهـم، ومـن تبعهـم ممـن لحـق بهـم، وجاهـد معهـم، وهـذا جديـد في الحيـاة السياسـية في الجزيـرة العربيـة، حيـث تجـاوزت المفهـوم القبـلي، وصـار الانتـماء إلى دولـة وحاكـم. وقـد حـرص الرسـول عـلى أن يجعـل الجماعـة المسـلمة تتخلـص بالتدريـج مـن الإرث الوثنـي الجاهـلي، ومـن تأثرهـم ببعـض أفـكار اليهـود، فـكان دائـم النصـح لهـم بـأن يخالفـوا اليهـود في كـذا وكـذا. عـلى الرغـم مـن اعتبـار الوثيقـة اليهـود جـزءا مـن مواطنـي الدولـة، أي مقيمـين عـلى أرضهـا، ولهـم حقـوق منصـوص عليهـا في حقـوق أهـل

---

(١) المرجع السابق، ج١، ص٥٠٢.

الكتاب، وكلها تعتمد على التعايش والتسامح، واحترام العقيدة، ولذا، شددت الوثيقة على الحريات وحقوق الإنسان، وعدم السماح بالمظالم، ولا بالعودة إلى حكم الجاهلية، وأعراف العرب في ذلك. أيضا، فقد نصت الوثيقة أيضا على أن تكون المرجعية العليا لله ولرسوله، فنصف القرآن تقريبا تنزل في المدينة المنورة، واستوى الإسلام واكتمل فيها، وكان الحكم لله ولرسوله، ورأى المسلمون كيف أن الرسول مؤيد من الله في كل كلمة وخطوة وقرار وإرشاد.

وبذلك، صارت الهجرة عنوانا على دولة الإسلام، مكتملة الأركان، قيادة وشعبا، ومرجعية، وتكون لها جيش يحميها، ويأخذ حقوق أهلها، حتى انتشر الإسلام في الجزيرة كلها.

فتح مكة وإسلام أهلها:

كان مشهد فتح مكة عظيما عندما نقرأه في منظور الهجرة، فالرسول عائد ليفتح البلد التي ولد فيها، وشهدت بعثته، وسنواته الأولى من الدعوة، ثم طاردته، وتآمرت على قتله، وها هو يعود من مهجره في المدينة المنورة، وقد دانت له قبائل العرب، من اليمن إلى حضرموت، ومن نجد إلى تهامة، وصارت المدينة عاصمة للدولة المسلمة، ومقر الرسول القائد والهادي والبشير، والوفود تتوالى عليها تعلن الإسلام، والدخول في طاعة الرسول. أما أهل مكة، فيا لحسرتهم، وهم يرون واحدا من أبنائهم، قد أقام دولة كبرى، ودانت له الرقاب طوعا، وآمنت به القلوب هداية، وهم لا يحملون في صدورهم إلا غلا،

وميراثا من العداوة، ظنوا أنه محمدا (صلى الله عليه وسلم) لن يمحوه، لأنه بشر. وقد سارع أبو سفيان بالسفر إلى المدينة المنورة، يرجو شفاعة عند رسول الله، ولكن ابنته أم حبيبة رفضت أن يجلس على فراش رسول الله، ورفض أن يشفع له المهاجرون: أبو بكر، وعمر، وفاطمة بنت محمد، أما علي بن أبي طالب فقد نصحه. وكما يروي أبو سفيان: « ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم، وقد أشار علي بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت. قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك[1].

ثم كان فتح مكة، وانضمت القبائل إلى جيش المسلمين بقيادة النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولننظر إلى المشهد كيف شاهده بعض أهل مكة، فقد دخلت القبائل المسلمة على راياتها، كلما مرت قبيلة قال أبو سفيان: يا عباس، من هذه؟ فأقول: سليم، فيقول: مالي ولسليم، ثم تمر القبيلة فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: مالي ولمزينة، حتى نفدت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته بهم، قال: مالي ولبني فلان، حتى مر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في كتيبته الخضراء، وفيها المهاجرون والأنصار، رضي الله عنهم، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قال: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين

(١) سيرة ابن هشام، ج٢، ص٣٩٧.

والأنصـار، قـال: مـا لأحـد بهـؤلاء قبـل ولا طاقـة، والله يـا أبـا الفضـل، لقـد أصبـح ملـك ابـن أخيـك الغـداة عظيـما، قـال: يـا أبـا سـفيان إنهـا النبـوة. قـال: فنعـم إذن[1].

مـا أروع هـذا المشـهد، قبائـل العـرب قـد أعلنـت إسـلامها، وتسـابقت لنيـل شرف دخـول مكـة مـع رسـول الله، وكان أروع مـا في المشـهد، أن المهاجريـن والأنصـار، قـد سـاروا بجانـب الكتيبـة الخـضراء للرسـول (صلى الله عليـه وسـلم)، لنـدرك أن الهجـرة كانـت حدثـا محوريـا في مسـيرة الدعـوة، وهـا هـم المهاجـرون مـع الأنصـار يسـيرون في لحمـة واحـدة، وقـد تقـوى الصـف المسـلم بالمزيـد مـن القبائـل المسـلمة.

ثـم يـأتي المشـهد الأخـير، حيـث يقـف الرسـول عنـد الكعبـة، وحولـه المسـلمون: المهاجـرون أبنـاء مكـة، وهـم يـرون عظـماء قريـش مطأطئـي الـرؤوس، ويتأملـون حـال مكـة، وهـي في أشـد حـالات ذلهـا، والرسـول في أشـد مواقـف قوتـه، وقـد نـصره، وأتـم الدعـوة. قـال الرسـول للمجتمعين مـن قريـش: « يـا معـشر قريـش، إن الله قـد أذهـب عنكـم نخـوة الجاهليـة، وتعظمهـا بالآبـاء، النـاس مـن آدم، وآدم مـن تـراب، ثـم تـلا هـذه الآيـة: ﴿ يَـا أَيُّهَـا النَّـاسُ إِنَّـا خَلَقْنَاكُـمْ مِـنْ ذَكَـرٍ وَأُنْـثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُـعُوبًا وَقَبَائِـلَ لِتَعَارَفُـوا إِنَّ أَكْرَمَكُـمْ عِنْـدَ اللهِ أَتْقَاكُـمْ ﴾ الآيـة كلهـا. ثـم قـال: يـا معـشر قريـش، مـا تـرون أني فاعـل فيكـم؟ قالـوا: خـيرا، أخ كريـم، وابـن أخ كريـم. قـال: اذهبـوا فأنتـم الطلقـاء» [2].

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٤٠٤.

(٢) المصدر السابق، ج٢، ص٤١٢.

كلمات الرسول الأخيرة، ليست موجهة لقريش وحدها، وإنما تخص الأمة بأسرها، وتكون رسالة لعموم البشرية كلها، فقد أسقط الاعتزاز بالأنساب، والتعصب لما كان عليه الآباء، فالكل عائد إلى آدم، وآدم خلق من تراب، وضرب الرسول مثلا حيا أمام الناس جميعا، حيث وقف حوله المهاجرون والأنصار، دون تفرقة بين عظيم النسب أو ضعيفه، الكل سواء في الإسلام. وكان الموقف الذي يعبر عن قمة رحمة الرسول هو عفوه عن أهل مكة، وجعلهم من الطلقاء، لم يرغمهم على الإسلام، بل ترك لهم الحرية، فسُمُّوا الطلقاء، وتلك قمة الحرية عندما يكون الإسلام حاكما، فالقلوب بين الرحمن، ولا هداية بإجبار، ولا إيمان دون اقتناع.

ولننظر إلى مثال لما جرى مع ابن واحد من صناديد الكفر، ألا وهو عكرمة بن أبي جهل، الذي ظل معاندا على الكفر، متبعا خطوات أبيه، حتى يوم فتح مكة، فقد ظل على موقفه، وكما جاء في السيرة: « أن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو كانوا قد جمعوا ناسا بالخندمة ليقاتلوا، وقد كان حماس بن قيس بن خالد، أخو بني بكر، يعد سلاحا قبل دخول رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ويصلح منه، فقالت له امرأته: لماذا تعد ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، قالت: والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء[1]»، فلاذوا بالفرار، والرسول (صلى الله عليه وسلم) يحيط يعتلي جبال مكة، ثم يدخل إلى الكعبة، محطما الأوثان فيها.

---

(١) المصدر السابق، ج٢، ص٤٠٨.

كانت امرأة عكرمة سيدة عاقلة، تدعى أم حكيم بنت الحارث بن هشام، وقد أعلنت إسلامها، ثم سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الأمان لزوجها، فأمرها برده، فخرجت في طلبه وقالت له: جئتك من عند أوصل الناس، وأبر الناس، وخير الناس، وقد استأمنت لك فأمنك، فرجع معها، فلما دنا من مكة، قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأصحابه: « يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنا مهاجرا، فلا تسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت»، فلما بلغ باب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) استبشر ووثب له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قائما على رجليه فرحا بقدومه[1]. ربما يكون قد تأخر إسلام زوجة عكرمة، ولكنها حكيمة سارعت بالإسلام مع فتح مكة، وطلبت أمانا لزوجها، وهي مدركة حجم العداء الذي أظهره هو وأبوه للنبي، ومع ذلك عفا عنه النبي، فلا ثارات ولا أحقاد في الإسلام، الذي يجبُّ ما قبله. وسنجد كرامات الرسول، وهو ينبئ أصحابه بقدوم عكرمة، وطلب منهم ألا يعيروه بأبيه، فإسلامه هو بداية جديدة لكل شخص، أيا كانت عداوته للإسلام.

الملمح هنا، أن هناك كثيرا من القرشيين تأخر إسلامهم، وظلوا في مكة المكرمة، على عنادهم وكفرهم، وهم يتابعون أخبار المسلمين في مهجرهم بالمدينة المنورة، وربما يكونون قد شاركوا في الغزوات التي جرت بين الرسول وكفار مكة. وعندما حانت لحظة الهداية،

(١) المستدرك على الصحيحين، كِتَابُ مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، رقم الحديث ٥٠٠٩

أسلموا، دون أن يرغمهم الرسول على الإسلام بعد فتح مكة، لتكون الرسالة واضحة: أن الإسلام لا ينتشر قهرا، وإنما هو هداية وقناعة، وأن فتح مكة لا يعني إسلام أهل مكة كلهم، وإنما إعلان سيطرة المسلمين على الحرم المكي، ولأهل مكة كل الحرية، في أن يدخلوا الإسلام متى شاءوا، فقد نالوا عفو الرسول.

أما عكرمة، فهو نظر نظرة الدنيا إلى فتح مكة، ظن أن الرسول سينتقم من مشركي مكة الذين ظلوا على عداوتهم الشديدة للإسلام ولرسوله، ولكن الرسول نظر إليه، مثلما نظر لأبيه، أن القضية ليست نصرا وهزيمة، وإنما دعوة وهداية.

وهو ما حدث لعكرمة، الذي تترى الروايات حول إسلامه فلم يكن عن خوف، بعد فتح مكة، وإنما جاء عن إيمان. حيث أدركت أم حكيم زوجها ببعض تهامة، وكان قد ركب في سفينة، فلما جلس فيها نادى باللات والعزى، فقال أصحاب السفينة: لا يجوز ها هنا أحد يدعو شيئا إلا الله وحده مخلصا، فقال عكرمة: والله لئن كان في البحر وحده أنه في البر وحده، أقسم بالله لأرجعن إلى محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، فرجع عكرمة مع امرأته عندما جاءته[1]. فقد جاءته لحظة الهداية، وهو يفر عبر البحر، بعدما شاهد أن الإسلام قد قوي وانتشر، وباتت كلمات الشرك منبوذة على الألسنة، مرذول قائلها. ويعني أيضا أن هجرة الرسول للمدينة المنورة كانت البداية الحقيقية لإعلاء كلمة الله، وإقامة دولة الإسلام.

---

(١) المصدر السابق، كِتَابُ مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، رقم الحديث ٥٠١٠

ولنقرأ ما يرويه عكرمة بنفسه، عن كيفية إسلامه، ويقول: «لما انتهيتُ إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قلت: يا محمد، إن هذه (يقصد زوجته أم حكيم) أخبرتني أنك أمنتني، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أنت آمن»، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنت عبد الله ورسوله، وأنت أبر الناس، وأصدق الناس، وأوفى الناس. قال عكرمة: أقول ذلك وإني لمطأطئ رأسي استحياءً منه، ثم قلت: يا رسول الله، استغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو موكب، أوضِعتُ فيه أريد فيه إظهار الشرك، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها، أو موكب، أوضع فيه يريد أن يصد عن سبيلك. قلتُ: يا رسول الله، مرني بخير ما تعلم فأعلمه، قال: قل: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، وتجاهد في سبيله»، ثم قال عكرمة: أما والله يا رسول الله، لا أدع نفقة كنت أنفقتها في الصد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قاتلت قتالا في الصد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله. ثم اجتهد في القتال حتى قتل يوم أجنادين شهيدا في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، وقد استعمله رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عام حجته على هوازن يصدقها، فتوفي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وعكرمة يومئذ بتبالة[1].

اعترف عكرمة بكل العداوة التي بذلها ضد الرسول والإسلام، حيث تحولت رئاسة بني مخزوم إلى إليه بعدما قتل أبوه، ثم إنه

(١) المصدر السابق، كِتَابُ مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، رقم الحديث ٥٠١١

أسلم وحسن إسلامه بالمرة، ويُذكَر عنه أنه كان إذا اجتهد في اليمين قال: لا الذي نجاني يوم بدر، أي من قتل المسلمين له، وإلا لما فاز بالإسلام بعد ذلك، نزل عكرمة يوم اليرموك، فقاتل قتالا شديدا، ثم استشهد، فوجدوا به بضعا وسبعين من طعنة ورمية وضربة. وقيل قتل يوم أجنادين(١).

لقد جاء عفو الرسول عنه لأنه (صلى الله عليه وسلم) يعلم ما في النفوس، وأن الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، وأنه يمكن استعمال عكرمة بعد ذلك في أمور الدولة المسلمة، وقد استخدمه أبو بكر الصديق في الجهاد في حروب الردة، ثم كلفه بقيادة أحد الجيوش الأربعة في فتح بلاد الشام، وهكذا أخرج الله من صلب أبي جهل من يوحّده.

التقويم الهجري:

ربما يكون التقويم الهجري هو أبرز ما يعبر عن الهجرة بوصفها علامة وأيقونة تحيا معنا إلى يومنا، وستستمر إن شاء الله إلى قيام الساعة. فقد اعتمد المسلمون على الهجرة لتكون بداية لتأريخهم، لم يؤرخوا من مبعث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ولا من مولده، ولا من وفاته، وإنما أرّخوا من هجرته الشريفة.

وهو ما يفصله ابن حجر، بأن الصحابة أخذوا التاريخ بالهجرة من قوله تعالى: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ لأنه من

(١) سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ج١، ص٣٢٤.

المعلـوم أنـه ليـس أول الأيـام مطلقـا، فتعـين أنـه أضيـف إلى شيء مضمـر وهـو أول الزمـن الـذي عـز فيـه الإسـلام، وعبـد فيـه النبـي (صـلى الله عليـه وسـلم) ربـه آمنـا، وابتـدأ بنـاء المسـجد، فوافـق رأي الصحابـة ابتـداء التاريـخ مـن ذلـك اليـوم، وفهمنـا مـن فعلهـم أن قولـه تعـالى مـن أول يـوم أنـه أول أيـام التاريـخ الإسـلامي[1].

وهـو معنـى عظيـم، ذلـك لأن التقويـم الـذي أمـر عمـر بـن الخطـاب (رضي الله عنـه) بالعمـل بـه، دال عـلى نقطـة التحـول الأساسـية في الإسـلام، عندمـا تحـول المسـلمون مـن حالـة الاسـتضعاف إلى حالـة القـوة، وتمثلت في المدينـة عاصمـة لهـم، وبهـا المسـجد النبـوي، واتخـذ الرسـول شـعارا ورايـة، وأيضـا نـصرة أهـل المدينـة. وقـد اتفـق الصحابـة عـلى ذلـك، وهـذا مـن وعيهـم العـالي، بمكانـة الهجـرة.

أمـا سـبب الحادثـة، فهنـاك روايـات متعـددة فيهـا، حيـث ذُكِـرَ أن أبـا موسـى كتـب إلى عمـر: إنـه يأتينـا منـك كتـب ليـس لهـا تاريـخ، فجمـع عمـر النـاس، فقـال بعضهـم: أرّخ بالمبعـث، وبعضهـم أرخ بالهجـرة، فقـال عمـر: الهجـرة فرقـت بـين الحـق والباطـل فأرخـوا بهـا، وذلـك سـنة سـبع عـشرة . فلـما اتفقـوا قـال بعضهـم: ابـدءوا برمضـان. فقـال عمـر: بـل بالمحـرم فإنـه منـصرف النـاس مـن حجهـم، فاتفقـوا عليـه. وقيـل: رُفِـع لعمـر صـك محلـه شـعبان فقـال: أي شـعبان؛ المـاضي أو الـذي نحـن فيـه، أو الآتي؟ ضعـوا للنـاس شـيئا يعرفونـه فذكـر نحـو الأول. ثـم جمـع عمـر النـاس فسـألهم عـن أول يـوم يكتـب التاريـخ، فقـال عـلي: مـن يـوم هاجـر

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، ص٣١٤.

رسـول الله (صـلى الله عليـه وسـلم) وتـرك أرض الـشرك، ففعلـه عمـر[1].
فقـد كان الأمـر نتيجـة حادثـة، وهـي فقـدان التاريـخ في المراسـلات، مما استـدعى سـؤال بـما نـؤرخ، واختلفـوا في الإجابـة، وكان الأمـر شـورى بينهـم، وفيـه مخالفـة لمـا جـرت عليـه الأمـم، فالتاريـخ الميـلادي مـؤرخ بميـلاد المسيح، ونحـن نـؤرخ بهجـرة الرسـول، إمعانـا في التميـز عـن سـائر الأمـم والثقافـات.

وبهـذا القـرار المهـم، أسـهم الفـاروق عمـر، ومـن معـه مـن أهـل مشـورته مـن الصحابـة عليهـم الرضـوان، في إحـداث وحـدة زمنيـة شـاملة في الدولـة المسـلمة، بتوحيـد الاتجـاه في التأريـخ الزمنـي، فباتـت الأمـة موحـدة في عقيدتهـا، وقبلتهـا، وفي إزالـة الفـروق بـين طبقاتهـا، مـن أجـل مواجهـة عـدو واحـد، ألا وهـو الكفـر[2]، ومـن أجـل نـشر رسـالة الإسـلام إلى العـالم، بشـخصية حضاريـة وثقافيـة متمايـزة عـن سـائر الأمـم.

*****

يمكـن القـول في نهايـة هـذا الفصـل، إن الهجـرة إلى المدينـة كانـت تحـولا اسـتراتيجيا في السـيرة النبويـة، وأن الرسـول وصحابتـه الكـرام مـن أهـل مكـة اسـتفرغوا كل الجهـد والطاقـة في دعـوة قريـش، وفي دعـوة القبائـل المختلفـة الزائـرة في موسـم الحـج، وأيضـا سـعوا إلى البحـث عـن أرض جديـدة، ونـصرة مختلفـة، حتـى كلـل الله جهودهـم، باختيـار المدينـة المنورة

(١) المرجع السابق، ص٣١٥.
(٢) سـيرة أمـير المؤمنـين عمـر بـن الخطـاب (رضي الله عنـه): شـخصيته وعـصره، د. عـلي محمـد محمـد الصـلابي، مؤسسـة اقـرأ للنـشر والتوزيـع، القاهـرة، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م، ص١٠٩.

لتكــون دار مهجرهــم، وكان الأنصــار نموذجــا في الإســلام والالتــزام والمنـاصرة والمناصحـة، دون أي هـدف دنيـوي خـاص، وكانـت دار الهجـرة النــواة الأولى للمجتمــع المســلم الصحيــح، الــذي مــا زلنــا نرنــو إليــه، ونتأمـل علاقـة النبـي بأصحابـه مهاجريـن وأنصـار، نسـتلهم ونتعلـم في زمننـا وكل أزماننـا.

الفصل الثالث

الهجرة في السنة النبوية المطهرة

النبوة: الأسوة والإرشاد والمفاهيم:

نتناول في هذا الفصل الهجرة بوصفها علامة ومفاهيم وقيما وسلوكيات في السنّة المطهرة مع إشارات في ثناياها إلى ما يتعلق بها في القرآن الكريم و السيرة النبوية، ذلك أن كليهما يتصل اتصالا مباشرا بشخص الرسول (صلى الله عليه وسلم)، قولا وفعلا وتقريرا كما هو في السنة، وأحداثا ومواقف ووقائع كما هي في السيرة، وبالطبع فإن الفصل بين السنة والسيرة، إنما هو فصل للدراسة العلمية، فكلاهما متداخل، بل هما شيء واحد، يتصل بما قام به الرسول، ومعه صحابته الأبرار، ولن نستطيع فهم الإسلام ولا فهم رسالته، إلا بدراسة ما قام به الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أفعال، وما نطق به من توجيهاتك وأقوال، وكيف كانت علاقته بالناس من حوله.

يرى الإسلام في النبوة عونا للبشر في بحثهم عن الحقيقة، ليصبح ذلك البحث أكثر يسرا، كما يرى في التنزيل العزيز تعريفا بإرادة الله تعالى وأوامره، فغرضه المعرفة ولا شيء غير المعرفة، لأنه يقدم هداية نحو الحق، وتحذيرا من الزلل. وقد نشأت العلوم الشرعية من أجل فهم التنزيل بشكل صحيح ودقيق، وهي تأتي على مسارين الأول علوم تتعلق بالقرآن، والثاني: علوم تتعلق بالسنة والسيرة[1]، مع

(١) أطلس الحضارة الإسلامية، ص٣٣٤، ٣٣٥.

الأخـذ في الحسـبان أن مـا بـين القـرآن والسـنة والسـيرة صـلات وروابـط، فالقـرآن منبـع ومرجـع، والسـنة والسـيرة تطبيـق لمـا جـاء فيـه، بـل إننـا لا يمكــن أن نفهــم القــرآن إلا بفهــم السـنة ودراسـتها، والتمعــن في وقائـع السـيرة ومجرياتهـا، كـما هـو واضـح في أسـباب النـزول للآيـات الكريمـة، وكيـف فهـم الرسـول القـرآن، وطبقـه، وعلمـه أصحابـه والمسـلمين. وقـد تطرقنـا في الفصـل الأول إلى تنـاول الآيـات القرآنيـة عـن الهجـرة، وناقشـنا في الفصـل الثـاني أحـداث الهجـرة مفصلـة، في السـيرة النبويـة وكان علينـا أن نواصـل تأصيـل المفهـوم في السـنة، إيضاحـا لكيفيـة تفاعـل الرسـول والصحابـة والمجتمـع المسـلم مـع الهجـرة، ومـا قـام بـه المهاجـرون، وصـدى الهجـرة لـدى المسـلمين: الأنصـار، والأعـراب، والمهتديـن الجـدد، ومـآلات المفهـوم بعـد فتـح مكـة.

ومـن المهـم في هـذا الشـأن الوعـي بأمريـن عـلى جانـب كبير مـن الأهمية، بـل هما محـورا الفهـم الحقيقي للإسـلام عامـة، وللهجـرة ومعانيها ودروسـها خاصـة. الأمـر الأول: إن مـدار الأمـر في الإسـلام هـو العقيدة والديـن، وهما فـوق كل شيء، فـلا قيمـة للأرض والوطـن والجاه والمـال، إذا كانـت العقيدة وشـعائر الديـن مهـددة بالـزوال أو بالحـرب. لـذا، أوجـب الله تعـالى عـلى المسـلمين التضحيـة بـأي شيء، إذا تعـارض مـع المعتقد.

والأمـر الثـاني: إن سـنة الله في الكـون اقتضـت أن تكـون القـوى المعنويـة التـي تتمثـل في العقيـدة السـليمة والديـن الحـق هـي الحافظـة للمكاسـب والقـوى الماديـة، فمهـما كانـت الأمة غنيـة في خلقها السـليم، متمسـكة بدينها

الصحيح؛ فإن سلطانها المادي المتمثل في الوطن والعزة والمال يغدو أكثر تماسكا، وأرسخ بقاء، وأمنع جانبا، ومهما كانت فقيرة في أخلاقها، مضطربة تائهة في عقيدتها؛ فإن سلطانها المادي يغدو أقرب إلى الاضمحلال والزوال(١). وهذا ما يخالف المفاهيم العلمانية بمرجعياتها الدنيوية والمادية، التي تضفي قداسة على الأرض، أو الإنسان ذاته، وتجعل الدين في مرتبة متأخرة، فلا قيمة لأرض يمتهن فيها الإنسان ولا يأمن على حياته ولا نفسه، ولا معتقده، وكذلك المال والجاه وسائر المنافع الدنيوية. فمنظور الإسلام لحركة التاريخ أساسه الروح المعنوية وأركانها المتمثلة في: الإيمان الصحيح، والعمل الصالح، والمجتمع القويم، وكلها كافية لأن تجعل المسلم يعيش في سعادة، برضا الإله، وصحبة الخيرين.

ومن هنا يمكن فهم المنظور الإسلامي للهجرة عامة، ولهجرة الرسول خاصة، من مكة إلى المدينة، فإذا كانت في الظاهر تركا للوطن وتضييعا له، ولكنها كانت في الواقع حفاظا عليه، وضمانة له، ورب مظهر من مظاهر الحفاظ على الشيء يبدو في صورة الترك له والإعراض عنه، فقد عاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد بضع سنوات، إلى وطنه الذي أخرج منه، عزيز الجانب، منيع القوة، وبعدما أقام دولة لها ذات صرح شامخ(٢)، وقاعدة واسعة من المؤمنين بالإسلام، فلا غرو أن يتخذ الصحابة الأبرار من هجرة النبي أساسا لتقويمهم، إدراكا منهم لما أحدثته الهجرة من تغييرات عميقة في نصرة

---

(١) فقه السيرة النبوية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص٢٠٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠١.

الإسـلام والتمكـين لأتباعـه، وفي انتشـاره بعـد ذلـك.

السنة وجوامع الكلم:

تحتـل السـنة النبويـة المكانـة الثانيـة في مصـادر التشريـع الإسـلامي بعـد القـرآن، لكونهـا شـارحة ومفسرة ومطبقـة لما جاء في القـرآن الكريـم مـن هـدي وإرشـاد وألفـاظ.

والسـنة بمعناهـا الخـاص هـي مجموعـة أقـوال الرسـول وأعمالـه وإقـراره. وهـي تشـمل آراءه حـول الأمـور الطيبـة أو الخبيثـة، المرغوبـة أو غيرهـا، بالإضافـة إلى الممارسـات التـي رضي عنهـا (صـلى الله عليـه وسـلم) في مسـلك أصحابـه. ودور السـنة توضيـح أحـكام القـرآن، وتمثيـل غاياتـه وتصويرهـا، فحيثـما تكـون الآيـة القرآنيـة عامـة تقـوم السـنة بتخصيصهـا لتجعلهـا قابلـة للتطبيـق، وعندمـا تكـون الآيـة خاصـة، تعممهـا السـنة لتجعـل الاسـتنتاج منهـا ممكنـا لتفصيـلات أخـرى[1]. فيمكـن القـول، إن السـنة بمثابـة التطبيـق الحـي والفاعـل للآيـات القرآنيـة، وقـد قـدم الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) المثـل والقـدوة لأصحابـه في ذلـك، وكـما وصفتـه السـيدة عائشـة (رضي الله عنهـا): كان خلقـه القـرآن[2].

---

(١) أطلس الحضارة الإسلامية، ص١٧٩.

(٢) مقولـة السـيدة عائشـة رضي الله عنهـا: "إِنَّ خُلُـقَ نَبِـيِّ الله صَـلىَّ اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ كَانَ الْقُـرآنَ". صحيـح مسـلم، رقـم (٧٤٦)، ويـشرح ابـن رجـب الحنبـلي هـذا بقولـه: يعنـي أنـه كان يتـأدب بآدابه ويتخلـق بأخلاقـه، فـما مدحـه القـرآن كان فيـه رضـاه، ومـا ذمـه القـرآن كان فيـه سـخطه، وجـاء في روايـة عنهـا قالـت: كَانَ خُلُقُـهُ الْقُـرآنُ، يَـرضَى لِرِضَـاه، وَيَسْـخَطُ لِسَـخَطِهِ. انظـر: جامـع العلـوم والحكـم في شرح خمسـين حديثـا مـن جوامـع الكلـم، عبـد الرحمـن بـن شـهاب الديـن زيـن الديـن أبـو الفـرج ابـن رجـب الحنبـلي، المحقـق: شـعيب الأرنـاؤوط، وإبراهيـم باجـس، مؤسسـة الرسـالة - بـيروت الطبعـة: السـابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م،ج١، ص١٤٨.

وهـو مـا نجـده مطبقـا في إرشـادات وتوجيهـات، أنتجـت دلالات جديـدة وعديـدة بالنسـبة لمفهـوم (الهجـرة) في السـنة النبويـة، وكلهـا جاءت امتـدادا للهـدي القـرآني ومسـتلهمة منـه، إمـا بتأكيـد المعنـى القـرآني، أو بالزيـادة عليـه، أو بالـترادف معـه.

وفي جميـع الأحـوال، فـإن هـذا يجعـل دراسـتنا لظـلال الهجـرة وإيحـاءات لفظهـا والمعـاني المتولـدة عنـه في السـنة النبويـة؛ إضافـة جديـدة، تنقـل مفهـوم الهجـرة إلى فضـاءات رحبـة، ونحـن نعايـش الإرشـاد النبـوي لصحابتـه الكـرام عنهـا، عندمـا كان الرسـول يغـدو ويمسـي موجهـا الجماعـة المؤمنـة، التـي ضمـت المهاجريـن والأنصـار، والمهتديـن الجـدد للإسـلام مـن الأعـراب وأهـل القـرى، ويربيهـم عـلى أحـكام الإسـلام.

إن القـارئ لـكل مـن سـنة النبـي (صـلى الله عليـه وسـلم) المطهـرة وسـيرته العطـرة، يجـد مـدى العنايـة الهائلـة التـي أولاهـا الـرواة والمدونـون والحفـاظ لتسـجيل كل مـا فعلـه الرسـول مـع صحابتـه: قـولا، وإشـارة، وإقـرارا، وفعـلا، وسـلوكا، وتوجيهـا، وكأننـا ونحـن نقرؤهـا بعـد مـضي قـرون طويلـة عليهـا، نعايـش نبينا(صـلى الله عليـه وسـلم) في علاقتـه الحيـة بالصحابـة وعامـة المسـلمين: رسـولا وهاديـا ومربيـا. واللافـت في الأمـر في مفهـوم الهجـرة أن الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) حوّلـه إلى علامـة عـلى فهـم وعقيـدة، وقيـم وخلـق، وسـلوك وعمـل، وخـرج بـه مـن المعـاني اللغويـة المتوارثـة في الاسـتخدام الجاهـلي، أو في سـياق الآيـات القرآنيـة، إلى آفـاق جديـدة، كلهـا تركـز عـلى علاقـة المسـلم بنفسـه: قلبـا وروحـا،

أو علاقته بالآخرين في تعاملاته، أو بموقفه من الدولة المسلمة، ودوره كفرد مسلم فاعل في أحداثها: جهادا وتضحية وذودا عنها.

أيضا، عندما نقرأ ونتأمل أحاديث الرسول، نلمس بالفعل عمق مقولته التي وصف بها نفسه وكيف بانت في أحاديثه، فقد امتلك النبي (صلى الله عليه وسلم) جوامع الكلم، فهو القائل عن نفسه: «بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب، فبينا أنا نائم أتيت بمفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي»[1]، والمقصود بجوامع الكلم- كما يذكر الزهري-: أنه كان يتكلم بالقول الموجز، القليل اللفظ، الكثير المعاني[2].

وهذا ما نرصده في كل أحاديثه ومقولاته وتوجيهاته، حيث الإيجاز في المعنى، والجزالة في اللفظ، والعمق في الإرشاد، وسهولة التعبير، وجمال الكلمة، وكانت تقال في بيئة اتخذت من الشعر ديوانا لها، فيتسابق الصحابة لحفظ الأحاديث التي يتلقونها مباشرة عن النبي، ومن ثم يعلمون بها بعضهم البعض، وينقلونها للناس جميعا، ضمن حركة تربوية كبرى، يقودها معلم البشرية الأعظم محمد (صلى الله عليه وسلم)، يربي كل من حوله من الصحابة: رجالا ونساء وصبيان وبنيّات، فلا نتعجب عندما كانت المدينة المنورة عالما متكاملا، يطبق الإسلام قولا وعملا وحكمة وجهادا.

(١) متفق عليه. صحيح البخاري، ص ٧٣٤، رقم الحديث ٢٩٧٧، وصحيح مسلم، رقم الحديث ٤٢٣. وفي رواية للبخاري: «أعطيت مفاتيح الكلم»، وفي رواية لمسلم: «أعطيت جوامع الكلم».

(٢) فتح الباري، ج١٣، ٢٤٧.

الهجرة تجارة مع الله:

لقد شكلت الهجرة موقفا اختباريا لكل المسلمين الذين آمنوا وصدقوا الرسول في سنوات البعثة الأولى، حيث اُمتحِنوا امتحانا قاسيا، لأنهم تخلوا عن أموالهم وأهلهم وعشيرتهم وبلدهم، واستولى مشركو مكة على ما تركوه من مال ومتاع. ولننظر إلى مناسبة النزول في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ ۗ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾، قال عبد الله بن عباس، وأنس: نزلت في صهيب بن سنان الرومي، وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة، منعه الناس أن يهاجر بمال، وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر، ففعل. فتخلص منهم وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة. فقالوا له: ربح البيع . فقال: وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية . ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: ربح البيع صهيب، ربح البيع صهيب[1]

صهيب الرومي صحابي جليل، لم يكن من أصل عربي، إنما هو وكما واضح في لقبه، فقد جاء مهاجرا إلى مكة من بلاد الروم، وعاش فيها محترفا صناعة السيوف، التي درّت عليه مالا وفيرا، صار به من الأغنياء، وقد آمن بدعوة الرسول، وتحمل عنت المشركين معه، وهو

(١) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الوفاء، المنصورة، مصر، سنة النشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، ج١، ص٢٥٤ ذكر في المقدمة أنه حديث صحيح.

الـذي لا عشـيرة ولا قـوم يمنعـون عنـه الأذى. وكـم كانـت تضحيتـه عظيمـة، لأنـه آثـر الهجـرة، واللحـاق بمحمـد وصحبـه، عـلى البقـاء جانـب مالـه وصناعتـه. وثمـة روايـات عديـدة عـن موقفـه حِـينَ أَرَادَ الْهِجْـرَةَ إِلَى الْمَدِينَـةِ، حيـث قَـالَ لَـهُ كُفَّـارُ قُرَيْـشٍ: أَتَيْتَنَـا صُعْلُـوكًا، فَكَثُـرَ مَالُـكَ عِنْدَنَـا، وَبَلَغْـتَ مَـا بَلَغْـتَ ثُـمَّ تُرِيـدُ أَنْ تَخْـرُجَ بِنَفْسِـكَ وَمَالِـكَ، وَاللهِ لاَ يَكُـونُ ذَلِـكَ. فَقَـالَ لَهُـمْ: أَرَأَيْتُـمْ إِنْ أَعْطَيْتُكُـمْ مَـالِي أَتُخَلُّـونَ سَـبِيلِي؟ فَقَالُـوا: نَعَـمْ. فَقَـالَ: أُشْـهِدُكُمْ أَنِّي قَـدْ جَعَلْـتُ لَهُـمْ مَـالِي. فَبَلَـغَ ذَلِـكَ النَّبِـيَّ صـلى الله عليـه وسـلم، فَقَـالَ: «رَبِـحَ صُهَيْـبٌ، رَبِـحَ صُهَيْـبٌ»[(١)]. لقـد اسـتقبله كبـار الصحابـة، عمـر بـن الخطـاب، وهـو قـادمٌ مهاجـر، في موضـع بالحـرة، قـرب المدينـة، وهنـأوه أنـه لم يخسر، وإنـما ربـح. وهكـذا شـأن النفـوس الحكيمـة، عندمـا تعـرف سـبيل الحـق، فـلا يهمهـا مـال ولا تشـغلها مصالـح الدنيـا، وقـد كان صهيبـا مـن هـذه النفـوس.

الملاحـظ أن المفـردات المسـتخدمة في الحـوار السـابق، بـين صهيـب وكفـار مكـة، أو بـين صهيـب والصحابـة عليهـم الرضـوان؛ مأخـوذة مـن قامـوس التجـار، لأن الموقـف كلـه يـدور في دائـرة التجـارة، فقريـش تعايـر صهيبـا بأنـه كان صعلـوكا فقـيرا حينـما جاءهـم، وتهـدده بأخـذ أموالـه التي غنمهـا مـن عملـه، فـيرد عليهـم ببسـاطة، أنهـا لهـم، المهـم أن يخلّـوا بينـه ليهاجـرا ليلتحـق بحبيبـه النبـي في دار الهجـرة. لقـد تحـدث مشركـو مكـة

(١) المطالـب العاليـة بزوائـد المسـانيد الثمانيـة، أحمـد بـن عـلي بـن حجـر العسـقلاني أبـو الفضـل شـهاب الديـن، تحقيـق: سـعد بـن نـاصر بـن عبـد العزيـز الشـثري وآخـرون، دار العاصمـة، دار الغيـث، الرياض،١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ج١٦، ص٣٧٨.

معه بمنطق الدنيا، وصهيب تحدث معهم بمنطق الآخرة، والأمل في رضوان الله، وشتان بين الموقفين، وبين الشخصيات فيه، فلا عجب أن تتنزل في صهيب آية كريمة، تخبره برضا الله سبحانه وتعالى، يغبطه عليها الصحابة جميعهم.

واللافت في الموقف السابق أن تعبير «ربح البيع» كان مكررا، على ألسنة الصحابة عليهم الرضوان، ثم كرره الرسول وهو يستقبل أبا يحيي. والتعبير ذاته دارج في معاملات التجار، وبيئة مكة هي بيئة تجارية كبرى، وغالبية الصحابة عملوا بالتجارة فيها كما هو معلوم عنها، فهذه المقولة تطبيق للآية القرآنية الكريمة ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ﴾[1]، وردت فيها لفظة الشراء صريحة، ليشتري أبو يحيي (رضي الله عنه) نفسه ودينه وإيمانه، ابتغاء مرضاة الله سبحانه.

هذا، وهناك روايات عدة، تشير إلى أن صهيبا لم يكن شابا عندما خرج مهاجرا، وإنما كان شيخا كبيرا، وفي سن لا يمكنه المغامرة والتضحية بكل ما جمعه من مال طيلة حياته، ومع ذلك، فقد جاء في بعض أسباب النزول: أن المشركين أخذوا صهيبا فعذبوه، فقال لهم صهيب: إني شيخ كبير لا يضركم أمِنْكم كنتُ أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالي وتذروني وديني؟ ففعلوا ذلك، وكان قد شرط عليهم راحلة ونفقة. وفي رواية أخرى: أن نفرًا من قريش من المشركين اتبعوه، فنزل عن راحلته ونثر ما في كنانته وأخذ قوسه ثم

(١) سورة البقرة، الآية (٢٠٧).

قال: يا معشر قريش، لقد علمتم أني من أرماكم رجلا، وايم الله لا تصلون إلي حتى أرمي بما في كنانتي، ثم أضرب بسيفي ما بقي في يدي منه شيء، ثم افعلوا ما شئتم، فقالوا: دلنا على بيتك ومالك بمكة ونخلي عنك، وعاهدوه إن دلهم أن يدعوه، ففعل[1].

وهاتان الروايتان تضيفان جديدا في موقف صهيب (رضي الله عنه)، فالرواية الأولى تعلمنا كيف أنه فاوضهم على ماله، بعدما عيروه وهددوه. والرواية الثانية توضح أنه كان على استعداد بأن يتنازل عن ماله كله، وأيضا عن نفسه؛ بأن يقاتلهم بسهامه، ثم بسيفه، حتى لا يمنعوه من الهجرة، فما أعظم صهيبا! وما أعظم موقفه!

منزلة الهجرة وحال المهاجر:

لقد كان حدث الهجرة عظيما، وله أصداء كبرى في مجتمع الجزيرة العربية كله، فقد نال المهاجرون مكانة كبرى، عبر العديد من الآيات القرآنية التي تتالت في النزول تمتدح ما فعلوه، وتشيد بجهادهم وصبرهم وتضحياتهم، وتبشرهم بثواب عظيم، وهو ما جعل الرسول يميز المهاجرين بإمامة الصلاة.

فعن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: (يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ الله، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا وفي رواية فَأَكْبَرُهُمْ سِنًّا، وَلَا يَؤُمَّنَّ

(١) أسباب التزول، ص٣٣، ٣٤. حول الآية (٢٠٧) في سورة البقرة.

الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلْطَانِهِ، وَلَا يَقْعُدْ فِي بَيْتِهِ عَلَى تَكْرِمَتِهِ إِلَّا بِإِذْنِهِ) .[1].

هدف الحديث تحديد مراتب من يجب أن يتقدم للإمامة في الصلاة، وقد جاء الترتيب تدريجيا: الأحفظ لكتاب الله، ثم الأعلم بالسنة إذا تساووا في حفظ القرآن، وهذا ترتيب طبيعي، يتسق مع درجات مصادر التشريع في الإسلام: القرآن الكريم، ثم السنة المطهرة، وفي حالة التساوي بينهم في القرآن والسنة، فإن المفاضلة تكون في الهجرة، فإن تساووا في ذلك، فليتقدم الأكبر سنا. والحديث دليل على تقديم الأقرأ لكتاب الله، على الأفقه، وهو وجه قال به الحنفية والحنابلة، لأن القراءة المضبوطة هي المطلوبة في الصلاة، وإن كان يحاجج البعض بأن المقصود بالأحفظ للقرآن هو الأكثر حفظا وعلما بأحكامه، أي الأكثر فقها. وقد قال ابن مسعود: ما كنا نتجاوز عشر آيات (حفظا) حتى نعرف حكمها وأمرها ونهيها[2]. أما الهجرة، فقد وضح فضلها ومكانة المهاجرين، فهي في المرتبة الثالثة، ولا شك أن غالبية المهاجرين كانوا من حفظة كتاب الله، ومن الملازمين للرسول تعلّما وتفقها على يديه. والحديث بالطبع يدور في دائرة زمنية، وهي فترة وجود المهاجرين واجتماعهم في المدينة المنورة، أي في الحقبة النبوية، وما بعدها في زمن الصحابة عليهم الرضوان.

أيضا، فإن الهجرة كانت ضمن القضايا المثارة، خاصة لدى

---

(١) صحيح مسلم، رقم ٦٧٣، ص٣٠٢.

(٢) سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، للإمام محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني، دار الكتاب العلمية، بيروت، د ت، ج٢، ص٦٠، ٦١.

المهتدين الجدد، الذين قدموا للمدينة معلنين إسلامهم، وهم يرون منزلة المهاجرين العليا، فيما سمعوه في الآيات القرآنية، فيغبطون المهاجرين الذين نالوا شرف الهجرة، ويتساءلون كيف يمكن نيل هذه المكانة في الثواب، على نحو ما نراه مطروحا على ألسنة الكثير ممن وفدوا على الرسول، للسؤال والتعلم، فيجيبهم الرسول، ونرصد تحولا في دلالة الهجرة، وإضفاء الجديد من الهدي النبوي الشريف عليها.

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال رجل: يا رسول الله! أي الهجرة أفضل؟ قال: أن تهجر ما كره ربك عز وجل. وقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم الهجرة هجرتان، هجرة الحاضر، وهجرة البادي، فأما البادي فيجيب إذا دعي، ويطيع إذا أمر، وأما الحاضر فهو أعظمهما بلية، وأعظمهما أجرا[1].

علينا أن نشير أولا أنه من أبرز أشكال البناء الفني في الحديث النبوي شكل «الحوار الاستفهامي»، الذي يعني: حوارا يدور بين الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم)، وبين أحد الناس، أو جماعة من الناس، وبين الرسول، وتأتي إجابات الرسول - كعادته- وافية شافية موجزة، تجلي الغامض، وتوضح المبهم، وتشفي غليل السائل، كما أنها تتناول موضوعات بعينها تشغل السائل فكريا ونفسيا، وتوضح

(١) صحيح النسائي، أحمد بن شعيب بن علي النسائي أبو عبد الرحمن، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م، رقم الحديث ٤١٦٥ . وذكر أن إسناده صحيح.

لنا أبرز ما كان يشغل الناس من مسائل وقتها: الصحابة، والأعراب، وأهل القرى، وأهل الكتاب، [1].

والحديث السابق - وأيضا عدد من الأحاديث اللاحقة- تنحو نحو هذا الشكل، وإن كان الحديث السابق، ذو بنية مختلفة نوعا ما، فهو يشتمل على سؤال واحد، يتلوه جواب، ثم تعقيب من الرسول على السؤال. ويبدو أن السائل كان على علم بأن الهجرة غير مقتصرة على الرحيل من مكة إلى المدينة، وربما كان زمن سؤاله بعد فتح مكة، حيث لا هجرة الفتح، بعدما مكّن الله للإسلام، وانتشر في ربوع الجزيرة العربية.

كان سؤال الرجل عن أية الهجرات، والاستفهام يعني بلا شك الهجرة المكانية، والهجرة في مفهومها المعنوي الإيماني والروحاني، الذي ذكر في القرآن الكريم في آيات عديدة، فأجاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) مشيرا إلى أن دلالة الهجرة تعني الترك والبعد عما يكرهه الله تعالى، من معاص وآثام وذنوب، وهو مفهوم أخلاقي تهذيبي في الأساس، وهذا توكيد لما ورد في آيات قرآنية عديدة، مثل قوله تعالى ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[2]، فقوام الأمر في الإسلام هو الإيمان والخلق.

ثم يأتي تعقيب الرسول على موقف عامة المسلمين من الهجرة، وهم ينقسمون بحسب مواضع إقامتهم إلى الحاضر والبادي. فالحاضر

(١) خصائص الأسلوب في صحيح البخاري، مصطفى عطية جمعة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠م، الفصل الرابع، بعنوان: الشكل والإطار (البناء الفني) للحديث النبوي، ص ٢٩٠ وما بعدها.

(٢) سورة المدثر، الآية (٥).

هـو مـن يسـكن في القـرى والمـدن، في بيـوت مبنيـة بالآجـر، وحياتـه مسـتقرة، لا يعـرف ترحـالا. أمـا البـادي فهـو المقيـم في الباديـة، ومـن طباعـه الحـل والترحـال، فهجـرة البـادي (البـدوي) تعنـي أن يطيـع إذا أُمِـر، ويجيـب إذا دعـي، للجهـاد في سـبيل الله عـز وجـل، فـلا يلـزم عليـه أن يـأتي مهاجـرا إلى المدينـة أو أي غيرهـا، وإنـما يعيـش في باديتـه، يقيـم شـعائر الإسـلام، ويلتـزم بـه خلقيـا، فـإذا دعـاه ولي الأمـر لجهـاد فهـو يلبـي. وإذا تعرضـت الدولـة المسـلمة لغـزو، فـإن أهـل الباديـة قـد يكونـون في أمـان نسـبي، بحكـم ترحالهـم الدائـم. وأمـا هجـرة الحـاضر فهـي أعظـم بليـة؛ لأن هـدف العـدو للدولـة المسـلمة تكـون غـزو المـدن والقـرى فيكـون الخطـر عـلى سـاكنيها أعظـم مـن الخطـر عـلى أهـل البـوادي، وعليـه أن ينهـض سـاعتها للدفـاع عنهـا، وفي كلتـا الحالتـين الجهـاد واجـب عـلى البـادي والحـضري.

المعنـى السـابق الـذي أضافـه الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) إلى مفهـوم الهجـرة يعـد جديـدا ونوعيـا وتطبيقيـا لـكل مسـلم، فسـاكنو الجزيـرة العربيـة هـم مـن البـدو أو الحـضر، ولاشـك أن فضـل الهجـرة كان يداعـب كل مسـلم صـادق، يرغـب في التـأسي بالرعيـل الأول مـن المهاجريـن، ولمـا نالـوه مـن فضـل.

وهـو نفـس مـا نجـده في حديـث آخـر، يقـول الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم): إياكـم والظلـم فـإن الظلـم ظلـمات يـوم القيامـة، وإياكـم والفحـش فـإن الله لا يحـب الفحـش، وإياكـم والشـح فإنـه أهلـك مـن كان قبلكـم،

أمرهـم بالقطيعـة فقطعـوا، وأمرهـم بالبخـل فبخلـوا وأمرهـم بالفجـور ففجـروا فقـام رجـل فقـال: يـا رسـول الله أي الإسـلام أفضـل؟ قـال: مـن سـلم -وقـال المسـعودي أن يسـلم المسـلمون مـن لسـانه ويـده- قيـل يـا رسـول الله أي الهجـرة أفضـل؟ قـال أن تهجـر مـا كـره ربـك ثـم قـال: الهجـرة هجرتـان، هجـرة الحـاضر وهجـرة البـادي فأمـا البـادي فيجيـب إذا دعـي ويطيـع إذا أمـر وأمـا الحـاضر فهـو أعظمهـا بليـة وأفضلهـا أجـرا زاد المسـعودي نـاداه رجـل فقـال يـا رسـول الله أي الشـهداء أفضـل؟ قـال: أن يعقـر جـوادك وأن يهـراق دمـك[1].

الحديـث فيـه العديـد مـن الوصايـا والتحذيـر مـن الظلـم، والفحـش، والشـح، والفجـور، ثـم حـوار مـع أحـد الرجـال، ثـم التذكـير بمفهـوم الهجـرة، ودور البـادي والحـضري.

وفي أحاديـث أخـرى، يؤكـد الرسـول المفهـوم الروحـي الأخلاقـي، باجتنـاب المحرمـات، والنـأي عـن المعـاصي. ففـي الحديـث الشريـف عـن عبـد الله بـن عمـرو (رضي الله عنهـما)، عـن النبـي (صـلى الله عليـه وسـلم)، قـال: «المسـلم مَـن سَـلِم المسـلمون مـن لسـانه ويـده، والمهاجـر مَـن هجَـر مـا نهـى الله عنـه»[2].

رسـالة الحديـث الكليـة هـي الحـض عـلى حفـظ الجـوارح عـن إيـذاء النـاس، بالقـول أو بالفعـل، وتـرك كل مـا نهـى الله عـن اجتنابـه مـن

(1) المهـذب في اختصـار السـنن الكبـير، أحمـد بـن الحسـين بـن عـلي بـن موسـى البيهقـي أبـو بكـر شـمس الديـن الذهبـي، المحقـق: يـاسر بـن إبراهيـم أبـو تـمام، دار الوطـن، الريـاض، ١٤٢٢ - ٢٠٠١م، ج٨، رقـم٤٢٦٢. وإسـناده صالـح.

(2) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، ص١٣، رقم الحديث١٠.

منكرات. فالحديث له بعدان، الأول يتصل بالحواس والجوارح، بعدم إيذاء الآخرين وظلمهم، والثاني: بحفظ النفس المؤمنة وعدم ظلمها بارتكاب الموبقات والآثام. أي أن المعنى العام يختص بالفرد المسلم في ممارساته وعلاقاته مع الناس التي يجب أن تكون بالحسنى، وفي علاقته مع نفسه فلا يحمّلها موبقات وآثام، فعليه بترك كل المنهي عنه في القرآن، وبذلك يكون نافعا لنفسه وللناس، جالبا للثواب في كل خير يفعله، وكل منكر يجتنبه.

جاء الحديث بصيغة سهلة شديدة الإيجاز والشمول، عظيمة الهداية والمعنى، من خلال الجناس الناقص، بين الفعل (سلم)، والاسم (المسلم)، والفعل (هجر)، والاسم (المهاجر)، مما يزيد من التعاضد اللغوي والمعنوي، وبما يمهد للمفهوم الجديد الذي يطرحه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حديثه. فالجديد لغويا أن الرسول صاغ مفردات الحديث من المصطلحات الشائعة في المجتمع المسلم وقتئذ، وأبرز مصطلحين هما: المسلم، والمهاجر، فالأول (المسلم) مرتبط بكل من آمن بالإسلام، وفارق الكفر، والثاني (المهاجر) مرتبط بالحدث التاريخي العظيم، وهو الهجرة، إما إلى الحبشة في الهجرة الأولى، أو إلى المدينة المنورة في الهجرة الثانية، وما أروع بلاغة الرسول في إكساب اللفظين معنيين إضافيين ومستجدين على الأفهام!

فالمعلوم أن لفظة المسلم مشتقة من الإسلام، الذي يعني: الاستسلام والخضوع والانقياد لله تعالى، وكلمة (المسلم) معناها المستسلم لأمر الله،

أو المخلص في العبادة، ومعنى المسلم في الحديث السابق أنه دخل في باب السلامة[1]، بأن يسلم الناس من شره وأذاه، وبذلك أضيفت دلالة جديدة على دلالة الانقياد والاستسلام.

ويؤكد ابن حجر العسقلاني أن هذا الحديث مما تفرّد به البخاري عن مسلم، وهدفه محافظة المسلم على ذاته بكفها عن إيذاء الآخرين، وخص اللسان بالذكر، لأنه المعبر عما في النفس. وهكذا اليد، لأن أكثر الأفعال بها. أما المهاجر هنا فهي بمعنى الهاجر (اسم فاعل)، وهذه الهجرة ضربان: هجرة ظاهرة وباطنة، فالباطنة ترك ما تدعو إليه النفس الأمارة بالسوء والشيطان، والظاهرة الفرار بالدين من الفتن، وكأن المهاجرين خوطبوا بذلك، لئلا يتكلوا على مجرد التحول من دارهم، حتى يمتثلوا أوامر الشرع ونواهيه. ويحتمل أن يكون قد قيل، بعد انقطاع الهجرة لما فتحت مكة، تطييبا لقلوب من لم يدرك ذلك[2].

الهجرتان الظاهرة والباطنة دلالتان جديدتان في مصطلحيهما، وإن كانتا لا تخرجان عن الإطار العام لمعنى الهجرة في الإسلام، ولكنهما تعطيان إرشادا حتى لا يُظنّ أن الهجرة الظاهرة، التي تعني الانتقال المكاني من دار الشرك إلى دار الإيمان كافية للنجاة، فمدار الأمر في الإسلام كله هو النية والقلب وليس الظاهر، وربما ركّز الرسول على البعد الروحي/ القلبي للهجرة- كما أشار ابن حجر- من

(١) لسان العرب، ص٢٠٨٠.
(٢) فتح الباري، ج١، ص٧٠، ٧١.

أجل تطييب خواطر من أسلموا بعد الفتح، وفاتهم ثواب الهجرة، ولما رأوه من مكانة المهاجرين في الصف المسلم. ولذا، أعاد الرسول التأكيد على أن العبرة في الإسلام والهجرة، ليس في الارتحال، وإنما في تربية النفس، وترقية الروح، أي الهجرة لله.

وهو نفس المعنى الذي يرويه كل من: معاوية، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنهم) أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: « الهجرة خصلتان إحداهما هجر السيئات، والأخرى يهاجر إلى الله ورسوله، ولا تنقطع الهجرة ما تقبلت التوبة، ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب، فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفي الناس العمل »[1].

كلتا الخصلتين متعلقة بالجانب الروحي، فهجر السيئات والهجرة إلى الله ورسوله أمور تتصل بالقلب، بل إن الرسول يوسع دلالة الهجرة، فهجرة التائب هي انتقاله من حال المعصية إلى حال الإيمان والالتزام بهدي الإسلام، بل ويمددها الرسول زمنيا لتكون إلى قيام الساعة، لتصبح مترادفة للتوبة، فالعبد التائب مهاجر إلى الله، والمهاجر تائب، وهذا اتساع دلالي يتخطى المكان والزمان. فالمضمون المذكور في الحديث الأول المتقدم، يتأكد في عدد من الأحاديث، وكلها تعطي أبعادا تطبيقية وعملية للمسلمين، فمن أهم سمات الأحاديث الشريفة، أن الرسول

(١) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ص٢٥١، رقم الحديث ٩٢٨٠. رواه أحمد، والطبراني في الأوسط والصغير من غير ذكر حديث ابن السعدي، والبزار من حديث عبد الرحمن بن عوف وابن السعدي فقط، ورجال أحمد ثقات.

يجعلها دائما هداية تتجاوز سياق عصره، بل وأحوال السائل، إلى ما يفيد كل مسلم أبد الدهر.

الهجرة جهاد وعبادة:

عزز الرسول (صلى الله عليه وسلم) في أحاديث عديدة مفهوم الهجرة بجعله تركًا للسوء والمعاصي، وزاد عليه مفهوما جديدا، سيتعمق لاحقا في الكثير من التوجيهات والأقوال النبوية، وهو أن الهجرة تعادل الجهاد، بل إن الجهاد أسمى درجات الهجرة، فيما يعني أن الهجرة لها درجات، تبدأ بالهجرة إلى الله تعالى، والدخول في الإسلام، ثم الهجرة إلى دار الإيمان، ثم هجران السوء والآثام، والالتزام بأداء العبادات، ثم الجهاد في سبيل الله. ويكون السؤال: هل ثمة علاقة بين الجهاد والهجرة؟ والجواب: نعم. ثمة علاقات متعددة، فالهجرة والجهاد يلتقيان في مجاهدة النفس من أجل مفارقة ما تألفه من استقرار ودعة وطمأنينة، وتسعى إلى مرضاة الله، إما بالعيش في أرض الإيمان وترك الأوطان التي بها شرك وفتنة، أو بالخروج / الانتقال إلى أرض العدو لقتاله والذود عن دين الله أو نشر الإسلام. فالجهاد هو إعلاء لكلمة الله تعالى، وهو سنام الإسلام، فما أروع أن تكون هجرة المؤمن إلى أعلى درجات الإسلام مكانة وإثابة.

وفي حديث آخر، يسعى الرسول إلى تعزيز وربط مفهوم الهجرة بالجهاد، فعن ابن السعدي أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال:

« لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل »[1]. وهو نفس المعنى الذي أثار التساؤل لدى عدد من أصحاب الرسول، حيث إن رجالا من أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم)، قالوا لبعضهم: إن الهجرة قد انقطعت فاختلفوا في ذلك قال: فانطلقت إلى رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فقلت: يا رسول الله إن أناسا يقولون: إن الهجرة قد انقطعت فقال رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم): إن الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد[2]. إذن الهجرة تصبح جهادا، والجهاد هجرة جديدة، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون من المؤمنين، فميدان الجهاد واسع، خاصة بعد فتح مكة، وانتفاء الهجرة من مكة إلى المدينة المنورة، وانفتاح باب كبير أمام المسلمين، يتمثل في نشر دين الله تعالى إلى مختلف الشعوب، وهو ما صار عليه الصحابة الأبرار، في زمن الرسول ثم الخلفاء الراشدين، وأيضا في الخلافة الأموية.

أيضا، يروي عمرو بن عبسة؛ قال رجل: يا رسول الله، ما الإسلام؟ قال: أن يسلم لله قلبك، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك. قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان. قال: وما الإيمان؟ قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال فأي الإيمان أفضل؟ قال: الهجرة. قال: وما الهجرة؟ قال أن تهجر السوء. قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: الجهاد. قال: وما الجهاد؟

(١) مجمع الزاوئد ومنبع الفوائد، ص٢٥١، رقم الحديث ٩٢٨٠.

(٢) الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين، مقبل بن هادي الوداعي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د ت، ج٣، ص١٧٠. وأيضا مسند الإمام أحمد، ج٤، ص٦٢. وهو حديث صحيح.

قال: أن تقاتل الكفار إذا لقيتهم. قال: فأي الجهاد أفضل؟ قال من عقر جواده وأهريق دمه. قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ثم عملان هما أفضل الأعمال إلا من عمل عملا بمثلها حجة مبرورة أو عمرة مبرورة[1].

يقدم هذا الحديث محاورة بين الرسول ورجل من المسلمين، جاء الرسول سائلا متعلما، وفي الحوار تفصيل واضح لكل القضايا التي كانت مثارة بين أبناء المجتمع المسلم وقتها: الإسلام، والإيمان، والهجرة، والقرآن، والجهاد. أسئلة الرجل متتابعة، وإجابات الرسول دقيقة موجزة واضحة شارحة. ونتوقف عند مفهوم الإسلام، ففيه معنيان، الأول تأكيد للمفهوم الأساسي، وهو الخضوع والانقياد لله تعالى، ولكن التحديد هنا للقلب، فإنما الأعمال بالنيات. وكما جاء في كتب الأصول، « فإن كسب العبد يقع بقلبه ولسانه وجوارحه، فالنية أحد أقسامها الثلاثة وأرجحها، بل هي ثلث العلم وأنها أحد القواعد الثلاث التي ترد إليها جميع الأحكام عنده»[2].

ولذا، كان تركيز الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أن يسلم العبد قلبه لله: بالإيمان، والنية، والهوى، والمشاعر. فأي عمل في الإسلام بلا نية لا قيمة له، ولو كانت الدنيا خلفه فإنه جهدٌ ذاهب سدى، فمدار الأمر في الإسلام كله الاستسلام لله تعالى.

(١) الترغيب والترهيب، الإمام الحافظ عبد العظيم بن عبد القوى المنذري، تصحيح الألباني،: المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٦،١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، كتاب الحج، رقم ٦٨٦، رواه أحمد بإسناد صحيح، ورواته محتج بهم في الصحيح والطبراني، وغيره.
(٢) الأشباه والنظائر، ص٩.

وعن الفرزدق بن حنان القاصّ قال: خرجت أنا وعبيد الله بن حيدة في طريق الشّام، فمررنا بعبد الله بن عمرو بن العاص فقال: جاء رجل من قومكما، أعرابيّ جاف جريء، فقال: يا رسول الله: أين الهجرة؟ إليك حيثما كنت، أم إلى أرض معلومة، أو لقوم خاصّة، أم إذا متّ انقطعت؟ قال: فسكت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ساعة، ثم قال: أين السّائل عن الهجرة؟ قال: هأنذا يا رسول الله، قال: إذا أقمت الصّلاة، وآتيت الزّكاة فأنت مهاجر، وإن متّ بالحضرمة . قال: يعني أرضا باليمامة، ثمّ قام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت ثياب أهل الجنّة، أتنسج نسجا أم تشقّق من ثمر الجنّة؟ قال: فكأنّ القوم تعجّبوا من مسألة الأعرابيّ! فقال: ما تعجبون من جاهل يسأل عالما. قال: فسكت هنيّة، ثمّ قال: «أين السّائل عن ثياب الجنّة؟». قال: أنا. قال: لا بل، تشقّق من ثمر الجنّة[1].

ما أجمل الحوار مع الرسول (صلى الله عليه وسلم)! فالحب يملأ قلوبنا ونحن نقرأ كيف كانت العلاقة بين الرسول وصحابته الأبرار، وحواراته مع عامة المسلمين وبسطاء الناس. رواية الحديث يرويها الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص، لجماعة من المسلمين مروا به في طريقهم إلى الشام، وندرك من خلال صيغة الرواية كيف أن الصحابة عليهم الرضوان، كانوا حريصين على نشر الحديث، وإعلامه

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أحمد بن حنبل أبو عبدالله الشيباني، مؤسسة قرطبة، القاهرة، د ت، ج٢،ص ٢٠٣، رقم الحديث ٦٨٩٠ . وقال شاكر: إسناده صحيح (١١/ ١١٤) وانظر جامع المسانيد والسنن لابن كثير (٢٦/ ٣٥٢) وقال مخرجه: تفرد به الإمام أحمد وإسناده صحيح. والفرزدق بن حنان، صوابه حنان بن خارجة. كما صوبه الشيخ أحمد شاكر.

لكل من يقابلونه، ابتغاء الثواب، وبذلا للعلم. ومهما كانت أسئلة الناس، فإن الرسول لا يتجاهلها، وإنما يجيب عنها، مذكّرًا أصحابه أن دواء العي بالسؤال، وعلاج الجهل بالعلم. وفي الحديث نجد مفهوما جديدا عن الهجرة، فمن التزم بفرائض الإسلام: الصلاة والزكاة، فهو مهاجر، وإن كان في منطقة الحضرمة يعيش، ويلقى الله فيها. وهذا يعني أن الهجرة هي إيمان وطاعة وعبادات بصدق وإخلاص، وسيكون صاحبها مهاجرا إلى الله إذا التزم بها. وبذلك، ينتفي الفهم الشائع لدى البعض بأن الهجرة لأرض أو لجماعة بعينها، ليعود المضمون الأساسي لها، وهو الشق المعنوي، فكل مسلم هو مهاجر إلى الله، أيا كان مكانه أو زمانه.

ورغم أن الحديث يدور عن الهجرة، فإن سؤال الرجل الأخير عن ثياب أهل الجنة له علاقة دلالية به، فغاية المسلم المهاجر إلى الله هو الجنة، ومن حقه أن يسأل عن بعض نعيمها، وماذا سيلبس فيها، وهل النسيج سيكون من ثمار الجنة، فيرد عليه الرسول بالإيجاب، فتتعاظم البشارة، وكأن الجنة ولباسها ماثلة أمام العيون.

ونفس المعنى يؤكده الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) حيث يقول: لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل. فقال معاوية وعبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: إن الهجرة خصلتان إحداهما أن تهجر السيئات والأخرى أن تهاجر إلى الله ورسوله ولا تنقطع الهجرة ما

تقبلت التوبة ولا تزال التوبة مقبولة حتى تطلع الشمس من المغرب فإذا طلعت طبع على كل قلب بما فيه وكفي الناس العمل[1].

إن ظاهر الحديث حوار؛ استرجع به عبد الله بن عمرو مفهوما ذُكر سابقا يربط الهجرة بالجهاد، ثم يتم استحضار حديث آخر للرسول يربط الهجرة ببعدين: الهجرة إلى الله ورسوله، وهجران المعاصي، ثم التوبة، بمعنى أن الهجرة تعادل التوبة، والتوبة ممتدة إلى يوم القيامة، لا يحدها مكان ولا زمان لأي مسلم. وهذه دلالات لا تنفي الأولى المتعلقة بالجهاد، وإنما تجتمع معها، ضمن دلالاتها المتعددة.

وفيما يرويه أبو سعيد الخدري، أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الهجرة، فقال: ويحك إن الهجرة شأنها شديد، فهل لك من إبل؟ قال: نعم، قال: فتعطي صدقتها. قال: نعم، قال: فهل تمنح شيئا؟ قال: نعم، قال: فتحلبها يوم وردها. قال: نعم، قال: فاعمل من وراء البحار، فإن الله لن يترك من عملك شيئا[2].

نتعجب من إجابة الرسول على هذا الصحابي الجليل، بل ومن بنية الحديث نفسها، فمفتتح الحديث سؤال من الأعرابي عن الهجرة، فيرد عليه الرسول مؤكدا أن شأنها شديد. ولأن الإجابة تستلزم إيضاحا، فقد لجأ الرسول إلى الحوار الاستفهامي، هو يلقي الأسئلة على الأعرابي، والأعرابي يرد، ومن خلال مثال من واقع حياة الأعرابي، عن إبله، وهل يعطي صدقتها، وهل يحلبها بشكل دائم.

(١) مسند الإمام أحمد، ج٣، ص١٣٣، رقم ١٦٧٤. وذكر أحمد شاكر أن إسناده صحيح

(٢) صحيح البخاري، ص٦٣٨، رقم الحديث ٢٦٣٣.

ومـن ثـم يصـل الرسـول إلى مبتغـاه، وهـو أن عليـه العمـل، فـالله تعـالى لـن ينقـص مـن أجـره شـيئا. مـا علاقـة المثـل بالهجـرة؟ العلاقـة بسـيطة وواضحـة، فلـم يشـأ الرسـول أن يقـول كلامـا نظريـا، عـن أن الهجـرة تعنـي إقامـة فرائـض الله، وإيتـاء الزكـوات، وإنـما ناقـش الأعـرابي عـن مـدى إيفائـه بحـق الله فيـما يملـك مـن إبـل، فلـم أجابـه الأعـرابي بالموافقـة، بـشره الرسـول بـأن أجـره محفـوظ عنـد الله سـبحانه، وأنـه مهـما عمـل مـن خـيرات، وأوفى بحقـوق الله في المـال والإبـل، فـإن الله لا يضيـع أجـرا، ولا ينقـص ثوابـا.

وخلاصـة الحديـث أن الهجـرة في مفهومهـا المبسـط الـذي صاغـه الرسـول للأعـرابي هـي الالتـزام بأوامـر الله، والامتنـاع عـن نواهيـه، وأداء الـزكاة، وهـم مقيـم في باديتـه.

كـما يمتـد مفهـوم الهجـرة إلى فضـاء جديـد ورحـب، فعندمـا تسـود الفتـن، ويكثـر الهـرج والمـرج، وتعـم المفاسـد، ويتطـاول السـفلة، وينـشرون الرذيلـة، فإنـه يجـب عـلى المسـلم أن يهاجـر إلى ربـه فيلـوذ بـه، لأنـه إذا اختلـط بالنـاس سـاعتها، فربـما يتعـرض للفتنـة، ومـدار الأمـر في الإسـلام هـو إنجـاء المسـلم لنفسـه، والفـوز بمرضـاة الله، ولا طريـق إلا بالعبـادة والتقـى. إذن، معنـى الهجـرة هنـا النـأي عـن المفاسـد، وتجنـب الفتنـة، وتصحيـح البوصلـة نحـو الله سـبحانه، والقيـام بفرائـض الديـن، حيـث يقـول الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) -فيـما يرويـه معقـل بـن يسـار-: »العبـادة في الهَـرْج كهجـرةٍ إليّ« [1].

(١) صحيح مسلم، باب: فضل العبادة في الهَرْج، رقم (٢٩٤٨)، ص١٣٥٠.

قال النووي: المراد بالهَرْج هنا: الفتنة واختلاط أمور الناس، و الناس يَغفلون عن العبادة في هذا الزمن، ويَشتغلون عنها، ولا يتفرَّغ لها إلا أفراد[1].

الهجرة ومكانة الأنصار:

إذا ذُكرت الهجرة، يذكر المهاجرون معها، وأيضا الأنصار، فكلاهما مكونان أساسيان في التمكين لدولة الإسلام. وقد تواترت أحاديث عديدة عن فضل الأنصار، التي تأتي كبرهان على أن الأنصار والمهاجرين على السواء في المكانة والمثوبة وفي قلب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ضد ما يتفوه به بعض المنافقين أو ضعاف النفس في زمن الرسول، وحتى في أزماننا، إنما هو كلام فاسد، ويكفي ما يرويه أبو هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم)، أو قال: أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: لو أن الأنصار سلكوا واديًا، أو شِعْبًا، لسلَكت في وادي الأنصار، ولولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار، فقال أبو هريرة: ما ظلَم بأبي وأمي، آوَوْه ونصَرُوه، أو كلمةً أخرى.[2]. بناء الحديث البلاغي قائم على التشبيه التمثيلي، فإذا تجمع الناس يوما في جماعات، و سلكت كل جماعة شِعبا، فإن الرسول سيسلك شعب الأنصار. التشبيه مأخوذ من البيئة البدوية، ليكون قريبا من الأفهام، فما أجمل مفردات الصورة البلاغية المستوحاة

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، بو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، بيت الأفكار الدولية، الرياض، د ت، ص١٧٠٥.

(٢) صحيح البخاري، ص٩٢٧، رقم الحديث ٣٧٧٩.

مـن واقـع البيئـة المعيشـة للسـامعين، حيـث الأوديـة في الصحـراء متعـددة، وتفضـل كل عشـيرة أن تعيـش في واد خـاص بهـا، أو تسـير فيـه، وفي هـذه الحالـة فـإن الرسـول سـيكون معهـم أينـما كانـوا، وكيفـما سـلكوا، في دلالـة عـلى عظـم مكانـة الأنصـار في نفـس الرسـول. أيضـا يعطـي الرسـول درسـا مهـما، في أنـه لـولا أنـه جـاء مهاجـرا مـن مكـة، لـكان واحـدا مـن الأنصار، منتميـا لهـم، ومقيـما معهـم، وهـو مـا تحقـق بالفعـل، فاتخـذ المدينـة حـاضرة للنبـوة ثـم صـارت عاصمـة للخلافـة الراشـدة مـن بعـده.

ولننتبـه إلى أن صيغـة الخطـاب كانـت بضمـير المتكلـم، لتقطـع الشـك عـن أي افـتراء أو تشـكيك يقولـه البعـض، وهـذا وارد، لأن سـهام المنافقـين كانـت موجهـة إلى شـخص الرسـول، تتهمـه أنـه يحـابي المهاجريـن والمهتديـن الجـدد عـلى الأنصـار.

هـذا، ويتحـول الخطـاب في حديـث آخـر إلى صيغـة ترتبـط بالإيـمان والعقيـدة، فكـما يـروي أنـس (رضي الله عنـه)، عـن النبـي (صـلى الله عليـه وسـلم): « آيـة الإيـمان حـب الأنصـار، وآيـة نفـاق بغـض الأنصـار»، وقـد جـاء في الـشرح: لا يقـع حـب الأنصـار إلا لمؤمـن، وليـس فيـه نفـي الإيـمان عمـن لم يقـع منـه ذلـك. بـل إن فيـه غـير المؤمـن لا يحبهـم، لكونهـم نـصروا رسـول الله. ولم يقابـل الإيـمان بالكفـر الـذي هـو ضـده، وإنـما قابلـه بالنفـاق، إشـارة إلى الترغيـب والترهيـب إنـما خوطـب بـه مـن يظهـر الإيـمان، أمـا مـن يظهـر الكفـر فـلا، لأنـه مرتكـب مـن هـو أشـد منـه[1].

فالحديـث السـابق يربـط محبـة الأنصـار بالإيـمان، لأمـور عـدة، أولهـا

(١) فتح الباري، ج١، ص٦٣.

أنهم أشقاء المهاجرين في تكوين الصف المسلم، وبناء الدولة المسلمة، ولأن فيهم خيرة الصحابة الذين لازموا الرسول وتلقوا العلم والحديث عنه، ورووه للتابعين. كما أنه يمنع أي تشكيك في مكانة الأنصار، فالجماعة المسلمة لا تعرف تفرقة على أساس عرقي أو عشائري أو قومي، لأن الرابطة الإيمانية هي الجامعة، وهي المساوية للجميع، وتعطي المسلم كل حقوقه، بدون النظر عن أصله وانتماءاته. وهذا الحديث يسد أي لون من الشك، لمن أراد أن يطعن في مواقف الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأنه كان يميل للمهاجرين لأنهم قرشيون مثله، فهذا كلام سم زعاف، ينفثه المنافقون قديما، والعلمانيون والمستشرقون حديثا، من أجل تقديم صورة ممزقة عن المسلمين في المدينة المنورة، ويجعل السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي عبارة عن صراعات، قوامها سعي المهاجرين المكيين إلى السيطرة على السلطة، بعد وفاة الرسول، وإقصاء الأنصار، ضمن مخطط من أجل تمكين قريش من الحكم والخلافة[1]، وهو امتداد لكلام المنافقين في زمن الرسول، فهم أهل القعود والتشكيك وقلوبهم ملأى بالنفاق.

ولننظر إلى موقف الرسول ورده على كل ما قيل بعد توزيع الغنائم في غزوة حنين، وإعطائه (صلى الله عليه وسلم) الكثير للمهتدين الجدد، والمؤلفة قلوبهم. يروي عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله صلى الله عليه وسلم يوم حنين، قسّم في الناس في المؤلفة

(١) اليمين واليسار في الإسلام، أحمد عباس صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٣م، ص٥٧، ٥٨.

قلوبهم، ولم يعط الأنصار شيئا، فكأنهم وجدوا إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وكنتم عالة فأغناكم الله بي . كلما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن، قال: ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم). قال: كلما قال شيئا قالوا الله ورسوله أمن، قال: لو شئتم قلتم: جئتنا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار، ولو سلك الناس واديا وشعبا لسلكت وادي الأنصار وشعبها، الأنصار شعار والناس دثار، إنكم ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض(١) .

خطبة الرسول جمعت الإيجاز، والغوص في مكنون النفوس، وإظهار ما يمكن أن يتفوه به ضعاف العقول، وسيئو القلوب، بأن الرسول يحابي الآخرين من المؤلفة قلوبهم على الأنصار. فيذكر الرسول بكل صراحة ظنونهم، من خلال أسئلة متتابعة،

يذكرهم فيها بفضله عليهم بعد هداية الله لهم، ثم يعلن لهم أن الدنيا فانية، وليذهب الناس بالأموال والغنائم، ويعودون هم برسول الله في مدينتهم، ويحذرهم من المستقبل، حيث سيفتح الله الدنيا على المسلمين، وتأتي الأموال والغنائم لهم، فلينتبهوا إلى أن هناك تنافسا على الدنيا. لقد صحح الرسول البوصلة لجماعة الأنصار، وأخرجهم من تصورات الجاهلية، حيث الأحلاف بين القبائل والنصرة في مقابل

(١) صحيح البخاري، ص١٠٥٩، رقم الحديث ٤٣٣٠.

العطـاء، ويؤكـد لهـم رفـض الإسـلام لهـذا التصـور الجاهـلي الدنيـوي، وللتفريـق بـين المسـلمين بسـبب منافـع ماديـة، وإعـلاء لصيحـات قبليـة، تمثـل ارتـدادا إلى دعـوى الجاهليـة المنتنـة.

أيضا، اسـتخدم الرسـول تشـبيها غايـة في الدقة، ألا وهو « الأنصار شـعار والنـاس دثـار، و(الشـعار)-بكسر الشـين- هو الثـوب الذي يلي الجسـد، أما (الدثـار) -بكـسر الـدال- فهـو ثـوب يكـون فـوق ذلـك، والمعنـى المـراد أن الأنصـار هـم الخـواص للرسـول صـلى الله عليـه وسـلم، فأهـم الأقـرب لـه جسـدا، مثـل الشِـعار، وأيضـا روحـا، أمـا عـوام النـاس، فهـم مثـل الدثار. والدلالـة المتوخـاة: أن الأنصـار لكثـرة إخلاصهـم وإحسـانهم يسـتحقون أن يتخذهـم أخـلاء وخواصا لـه أو هم لذلك خـواص بخلاف النـاس الآخرين فـإن غالبهـم لا يسـلمون لذلك بل هم من العـوام. أيضا في دلالـة أخرى، فإن قولـه (شـعبا) بكـسر الشـين، تعني الطريـق في الجبـل، أو انفراج بـين الجبلين، وهـو معنـى آخـر يضاف لمـا تقـدم، والدلالة أنـه (صـلى الله عليه وسـلم) غير راغـب بفراقهم، ولن يسـكن إلا معهـم، ردا على ما زعمـه البعض بأنه (صلى الله عليـه وسـلم) سيسـكن مكة بعـد فتحها.

أيضـا، جـاء في شرح الحديـث، عـن تعبـيره (لـولا الهجـرة) أي لـولا شرفهـا وجلالـة قدرهـا عنـد الله قولـه لـكان الرسـول امـرأ مـن الأنصـار) ولـكان الرسـول نفسـه واحـدا منهـم لكـمال فضلهـم وشرفهـم بعـد فضـل الهجـرة وشرفهـا[1]. والمقصـود الإخبـار بـما لهـم مـن المزيـة، بعـد مزيـة

(١) حاشـية السـندي عـلى ابـن ماجـه، أبو الحسـن الحنفـي الشـهير بالسـندي، دار الجيـل، بيـــروت، د ت، ج١، ص٧١.

الهجـرة، وأنهـا مزيـة يـرضى بهـا الرسـول، وتكـون موضـع فخـارا بالنسـبة إليـه.

وفي نهايــة هــذا الفصــل عــن الهجــرة في الســنة النبويــة، يمكــن أن نسـتخلص كيـف تعـددت دلالات الهجـرة في الأحاديـث النبويـة، فشـملت الدلالـة المكانيـة في التوكيـد عـلى عظـم الهجـرة إلى المدينـة، بـما فيهـا مـن تضحيـات، ثـم الدلالـة المعنويـة التـي تشـمل: التوبـة، وهجـران الذنـوب، والهجـرة إلى الله ورسـوله، وأداء حـق الله في المـال، وأيضـا اجتنـاب الفتـن، والنـأي بالنفـس المؤمنـة عـما يضرهـا في آخرتهـا، ويسـقطها في أدران الدنيـا. وكلهـا دلالات لا تنفـك أبـدا عـما جـاء في الآيـات القرآنيـة، لتتأكـد أمامنـا أن السـنة النبويـة تطبيـق فاعـل وحـي للقـرآن الكريـم. وقـد رأينا حـوارات واسـتفهامات عـن الهجـرة والمهاجريـن والأنصـار، مـع الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم)، وعلمنـا أن الهجـرة كانـت قضيـة مثـارة، والـكل طامـح لنيـل ثوابهـا، معترفـا بـما قدمـه المهاجـرون فـداءً لدينهـم.

وقـد عمّـق الرسـول دلالـة الهجـرة، لتتجـاوز الزمـان والمـكان، وربطهـا بجهـاد النفـس، وجهـاد العـدو، ضمـن الغايـة الكـبرى التـي يرومهـا كل مسـلم وهـي الفـوز بالآخـرة، والنجـاة مـن الدنيـا وفتنتهـا وهرجهـا، لأن المؤمـن الحقيقـي يعلـم أن الدنيـا آتيـة إليـه راغمـة، فرزقـه مكفـول فيهـا، مـا دام الإيـمان معقـود بقلبـه، والآخـرة أكـبر همـه.

الفصل الرابع

الهجرة في الرؤية العلمانية والواقع المعاصر

«تأصيل فقهي وأصولي»

نتابع في هذا الفصل مناقشة الهجرة بوصفها علامة ثقافية وفكرية، ولكن في عصرنا الحديث وواقعنا المعاصر، وذلك في مبحثين: الأول يدور حول الرؤية الاستشراقية والعلمانية للهجرة النبوية، ويهدف إلى الوقوف على رؤيتهم لحدث الهجرة، وكيف قرأوه، وتمثّل في فكرهم. وقد فصّلنا القول فيه بتمهيد حول فلسفات الاستشراق والعلمانية التي قرأت السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي عامة، ثم كيف تعاملوا مع حدث الهجرة خاصة، على قناعة منا، أنه لا يمكن أن نكتفي بتأصيل الهجرة في دائرة الثقافة والرؤية الإسلامية، بدون التعرض لآراء المستشرقين والعلمانيين، الذين يملأون الساحة الفكرية ضجيجا، ومنذ أكثر من قرن من الزمان بدعوات وشعارات، تدّعي أنها ساعية إلى نهضة الأمة، وأن النهضة الحقيقية للأمة، لن تتأتى إلا مثلما فعلت أوروبا، بتوجيه سهام النقد إلى تراثها الديني وإلى تاريخها، وهذا وإن كان حدث في أوروبا بالفعل، وأنتج العلمانية التي فصلت الكنيسة والدين عن الحياة، إلا أنه لا يعني أن أوروبا تخلت عن دينها، ولا عن مرجعيتها المسيحية والتوراتية، وإنما ظلت لها تحيزاتها التي شكلت مركزيتها الثقافية والحضارية، وبها ومنها نظرت إلى العالم عامة، وإلى الإسلام والمسلمين وتاريخهم خاصة. وقد صدّق العلمانيون العرب والمسلمون بهذا التوجه، ورأوا أن يسيروا مثلما سارت أوروبا، فأصبحت

أقلامهم سهاما ورماحا ضد الإسلام وشخصياته وتاريخه وسيرة نبيه. فكانت المحصلة سيرة نبوية نظروا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) على أنه قائد قبلي سياسي محنك، ثم تاريخا ممزقا، غارقا في الحروب، يتمحور حول مؤامرة كبرى حيكت من أجل سيطرة قريش على العرب وعلى الأمم المسلمة، ليخرج القارئ لكتابات العلمانيين بنتيجة واحدة، ألا وهي: ضرورة أن نهيل التراب على هذا التراث والتاريخ والإسلام أيضا، وأن الرسول والصحابة لا قداسة لهم، فهم يتصارعون مثلما يتصارع الناس في الماضي والحاضر والمستقبل، على الدنيا ومنافعها وملذاتها.

أما المبحث الثاني، فهو يشترك مع المبحث الأول في بعدين: الهجرة، والزمن، حيث يتناول قضايا الهجرة في عالمنا المعاصر، خاصة هجرة المسلمين إلى الغرب، وما أثارته من قضايا تتصل بالإسلام وتأثيراته الثقافية والديموغرافية، وظهور نزعات مضادة، تنهل من التراث الغربي المعادي للإسلام، وتقرأ ما كتبه المستشرقون قديما وحديثا من رؤى ضدية وعدائية، وتستشهد في الوقت ذاته بكتابات العلمانيين العرب والمسلمين، الذين تماهوا مع الغرب في قناعاته، أملا في مقاربته حضاريا، فيما يسمى بعملية الاستلاب الحضاري، التي إن تمت عن قناعة من العلماني المسلم فهي تعني منه ذوبانا في الفكر الغربي، وإن تمت عن مصلحة ورغبة واستفادة فهي تعني نفاقا وتزلفا.

المبحث الأول

الهجرة النبوية في الرؤية الاستشراقية والعلمانية

الاستشراق والعلمانية والمعاصرة:

نسعى في هذا المبحث إلى مناقشة كيفية تناول العلمانيين والمستشرقين لحادثة الهجرة النبوية، وقد جمعنا الاستشراق والعلمنة في نقاش واحد، نظرا لتقارب رؤاهم ومنهجياتهم ومنطلقاتهم، وإن كنا نعذر المستشرقين على ما قالوه عن الإسلام والسيرة النبوية، لأنهم يخالفوننا في المعتقد واللغة والإرث والتوجهات، ولكن لا نجد عذرا للفئة العلمانية العربية المسلمة، التي هي نفس معتقدنا، وتتحدث بلغتنا، وتقيم بين أظهرنا، والمفترض أنها تفهم الإسلام كما يفهمه المسلمون، وتعرف أسرار العربية كما يعيها الناطقون، ومع ذلك تسير في نفس الخط الاستشراقي: تبني على طروحاتهم، وتعززها، وتراكم عليها، ثم اتخذها الجيل الجديد من الاستشراق تكأة للتدليل والتعليل.

حيث سنناقش في هذا المبحث نماذج من الكتابات العلمانية حول الهجرة، والرد على التصورات المغلوطة التي قرأت بها حادثة الهجرة. وقد آثرنا أن يحوي هذا الفصل مناقشة للقراءات العلمانية، لأنها تضاد المنظور الإسلامي، الذي نراه واضحا ومؤسسا في القرآن الكريم والسنة النبوية، ذلك أنه يصعب أن تسقط قناعات مادية استشراقية على الإسلام، خاصة أن المناقشين من ديانات أخرى، تنكر الإسلام كدين جديد منزل بعد المسيحية، وترى أن رسالة محمد ما

هـي إلا اجـترار واقتبـاس مـن المسـيحية واليهوديـة، وهـي وجهـة نظـر مـا أيسر الـرد عليهـا، بإعجـاز القـرآن ذاتـه، وبمناقشـة مفصلـة ومقارنـة لمـا بـين الديانـات السـماوية الثلاثـة: الإسـلام والمسـيحية واليهوديـة، في العقيـدة والتشريـع والأخـلاق والقيـم.

ولكـن القضيـة المحوريـة، هـي منظـور العلمانيـين إلى الإسـلام عامـة، وإلى حـدث الهجـرة خاصـة، وتبـدو في قـراءة الإسـلام وسـيرة نبيـه ورجالـه وتاريخـه وأحداثـه قـراءة سياسـية براجماتيـة، تسـعى إلى تفسـير حركـة الإسـلام عـلى أنهـا تحقيـق لمصالـح تخـص العـرب، الذيـن اتخـذوا مـن الإسـلام سـبيلا لإخضـاع القبائـل البدويـة في الجزيـرة العربيـة، مـن أجـل تكويـن دولـة عظمـى. تلـك مشـكلة كـبرى في الفهـم، نعـم كان هنـاك منتفعـون مـن المسـلمين، وكان هنـاك منافقـون، وكان هنـاك مـن تسـابقوا وتقاتلـوا مـن أجـل الحكـم، ولكـن هـذا كلـه، لا يسـاوي شـيئا بجانـب الصادقـين المخلصـين مـن الصحابة(عليهـم الرضـوان) والتابعـين وكل مـن أخلـص في الجهـاد والدعـوة والفـداء، وكل هـؤلاء حملـوا لـواء الإسـلام بأخلاقيـة عاليـة، ودخلـت شـعوب الأرض في الديـن الجديـد، ورضـت بحكـم المسـلمين لهـم، ولـو كان المسـلمون استعماريين عـلى غرار الاسـتعمار الأوروبي الحديـث أو الهيمنـة دولـة الرومـان قديـما، لثـارت عليهـم هـذه الشـعوب، وتعاونـت مـع قـوى أخـرى، ولكـن الواقـع يقـول إن الإسـلام انتـشر، ليسـيطر عـلى أكـبر قارتـين في العـالم (آسـيا وإفريقيـا)، ثـم يتمـدد إلى أوروبـا، وأصبحـت هنـاك شـعوب متعـددة اللغـات والأجنـاس والأعـراق

تؤمـن بـه عقيـدة، وتتخـذ منـه ثقافـة، وهـذا ناتـج في رأينـا عـن مفهـوم الهجـرة الـذي كان حدثـا أساسـيا في السـيرة النبويـة، وكان حدثـا أساسـيا في التاريـخ الإسـلامي، فجيـوش الفاتحـين فتحـت البلـدان، وتبعتهـا القبائـل العربيـة مهاجـرة تحمـل الإسـلام والعروبـة والثقافـة، لتسـتقر فيهـا.

وقـد قُرِئـت أحـداث الهجـرة وفـق هـذه المنطلقـات، التـي تجمـع الفهـم المعـوج والمغلـوط وذي الهـوى ضـد الإسـلام، وكيـف أنهـم فـسروا مجريـات أحـداث السـيرة النبويـة بطريقـة مشـوهة، وهـو مـا سـنتوقف عنـده في قضيـة الهجـرة في هـذا المبحـث، ومـا يتعلـق بهـا مـن أصـداء وأفـكار ومفاهيـم في السـيرة والتاريـخ والفكـر الإسـلامي. مـع أهميـة مناقشـة منهجياتهـم في قـراءة أحـداث الهجـرة، ومواقـف الرسـول والصحابـة فيهـا. والهـدف مـن هـذه النقـاش، أن نتعـرف كيـف نظـر الآخـر (الاسـتشراقي والعلـماني) إلى الهجـرة النبويـة، وكيـف سـعيا إلى تحليلهـا، ضمـن اسـتراتيجية قراءاتهـما التـي تفسر الإسـلام تفسـيرا يظهـر الإسـلام والسـيرة والصحابـة عـلى أنـه تاريـخ مـن الصراعـات عـلى الدنيـا، والتفنـن في الفـوز بالسـلطة والجـاه، وبذلـك يتـم إخـراج البعـد الدينـي الـذي هـو أسـاس في الإسـلام، وجعلـه صراعـا سياسـيا بحتـا، ومـا الإسـلام إلا مطيـة مسـتغلة، لتوحيـد عـرب الجزيـرة سياسـيا، لبنـاء امبراطوريـة كـبرى.

في ضـوء ذلـك، تـأتي منهجيتنـا في هـذا المبحـث منطلقـة مـن العـام إلى الخـاص، بمعنـى أننـا سنبسـط القـول في التوجـه الاسـتشراقي العلـماني العام في قـراءة الإسـلام: عـلى صعيـد الديـن والسـيرة النبويـة والتاريـخ بشـكل

عـام، ومـن ثـم ندلـف إلى كيفيـة نظـر الاسـتشراق والعلمانيـة إلى الهجـرة النبويـة كعلامـة ومفهـوم، وكيـف عالجوهـا في بحوثهـم؛ عـلى قناعـة منـا أن الخـاص ينبـع مـن العـام، ويبرهـن عليـه، وأن العـام يعكـس الفلسـفة والتوجهـات. ذلـك أن بحـث الخـاص الجزئـي دون العـودة إلى العـام الكلي، يكـون أشـبه بمـن يتعامـل بالقطعـة، ولا ينظـر إلى الجملـة، فتـأتي الأحـكام غالبـا ناقصـة مبتـسرة.

إن مـا يميـز السـيرة النبويـة بوصفهـا تاريخـا أن أحداثهـا تمـت في حضـور شـخص الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم)، وبتوجيـه مبـاشر مـن الله تعـالى، مـن خـلال مـا يوحيـه إلى رسـوله، ومـا تتنـزل بـه الآيـات القرآنيـة. فـلا يمكـن فهـم السـيرة دون التوجيـه الربـاني والرسـولي، والبعـد العقـدي الإيـماني، فـكل هـذا حـرّك الأحـداث والمواقـف، وأظهـر معـادن الشـخصيات وجوهرهـا. أمـا قـراءة تاريـخ الإسـلام، فلابـد أن لا تقتـصر عـلى الأحـداث السياسـية والقصـور والعواصـم وسـيرة الخلفـاء والقـادة، عـلى نحـو مـا تسـوقه القـراءات الاسـتشراقية، وتتجاهـل روح الحضـارة الإسـلامية وثقافتهـا التـي بـدأت في زمـن الرسـول (صـلى الله عليه وسـلم)، واتبعهـا الصحابـة والتابعـون وكل مـن التـزم بالإسـلام: دينـا وثقافـة وهدايـة وسـلوكا وقيـما، وتأسسـت الحضـارة الإسـلامية عليهـا، التـي تمتـاز بأنـــها حضـارة إيـمان وتوحيـد؛ حمـت نفسـها بسـياج مـن القيـم الروحية والمثـل الكريمـة. وأنهـا حضـارة تقدميـة بـكل معـاني الكلمـة، لا جمـود فيهـا، ولا رجعيـة، فالإسـلام ثـورة ضـد الظلـم والاسـتغلال والجمـود

والنكوص. وأنها حضارة تتسم بالمرونة وسعة الأفق، غير منغلقة على ذاتها، قابلة للأخذ والعطاء، فقد احترمت تراث الوثنية، فلم تعارض كل الموروث الجاهلي، مثلما فعلت الكنيسة ورجالها في الشطر الأول من العصور الوسطى. مثلما أفادت من الحضارات الفارسية والهندية واليونانية، وكانت معياريتها في ذلك قيمها ومُثُلها وطابعها، ورفضت كل ما لا يقبل التكيف وكل ما لا يتفق مع روحها ومبادئها. وأنها حضارة محبة وسلام وتسامح وتعمير، تحتوي كل الثقافات والأعراق والأجناس، لا تعرف تنافرا ولا معاداة، وتحترم الأقليات الدينية والمذاهب والكتب السماوية، وأيضا أهل الديانات الأرضية والوثنية وتدعوهم للإسلام[1].

إن الرؤية الحضارية والثقافية للإسلام وتاريخه وحضارته غابت أو تجاهلها المستشرقون، أو ربما لم يعوها، نظرا لأنهم انطلقوا من قناعات مسبقة، مأخوذة من التراث الأوروبي المعادي للإسلام، بجانب تحيزاتهم الخاصة، وإسقاطاتهم الفلسفية والمعرفية. هذه الرؤية الحضارية تنبع من الإسلام ذاته، وتعبر عنها سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ومواقفه ومقولاته وإرشاداته. وما تدوين السنة والسيرة النبوية بكل هذه العناية والاهتمام إلا لتكون مصدرا روحيا وقيميا للمسلمين طوال تاريخهم، وهم صانعون لحضارتهم الزاهرة، التي لا ينكر أحد

(١) الإطار العام للحضارة الإسلامية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، بحث ضمن كتاب: دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، د. سعد زغلول عبد الحميد، د. أحمد مختار العبادي، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، ص١٦-١٩.

عطاءها في العلوم والفنون والآداب، ومع ذلك تصرّ أقلام الاستشراق والعلمنة على قراءتها وفق منطق أرضي مادي، يجعل السيرة والتاريخ والحضارة الإسلامية منزوعة الهوية الروحية، مشوهة في الشخصيات والمواقف، مشكوك في رواياتها، تُقرأ في مسارات واحدة، تتخفى من ورائها قناعات فكرية أو فلسفية، تسعى للبرهنة على صحتها ولو كانت على خطأ.

الإرث الممتد في القراءة العلمانية الاستشراقية:

علينا أولا الإدراك بأن القراءة العلمانية هي قراءة مؤسسة على منطق عقلاني نفعي، يعيد كل الأحداث إلى علة دنيوية بشرية، وتظن أن لديها القدرة على إخضاع كل ظاهرة تاريخية أو بشرية، لمقولات التحليل العقلي الخالص حتى لو كانت غيبية تندُّ عن التعليل والتحليل[1]، وهي نتاج للفلسفات الغربية العلمانية التي تمردت على الكنيسة، واتخذت من العقلانية المادية سبيلا لها في تفسير العالم، وطبقوها على الإسلام، وقرأوا بها أحداث السيرة النبوية[2].

وللأسف فإن هذا نهج استشراقي علماني انجرّ خلفه كثيرون تحت دعاوى العصرنة والمنهجية العلمية؛ ليُقرَأ الإسلام كله من هذا المنحى، حيث يفسَّر النبوَّة بأنها ضرب من التخيل الخلاق، وليست اصطفاء

(١) المستشرقون والسنة النبوية، بحث ضمن مناهج المستشرقين، د.عماد الدين خليل، المنظمة العربية للعلوم والثقافة، تونس، ١٩٨٥. ج١، ص١٧٤.

(٢) الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله النعيم، نشرة المعهد العالي للفكر الإسلامي ١٩٩٧م، ص٢٨.

إلهيًا، على نحو هذا ذهب كارل بروكلمان حين جرد النبوَّة من بعدها الديني فزعم أن النبوة فكرة قد نضجت في نفس محمد، ورأى أنه مدعو لأداء رسالة، ثم أعلن ما ظنه وحيًا، وهذا لم يثر اهتمام أتباعه الذين اعتادوا على وجود كاهن في كل قبيلة، يعزو الأحكام والمشكلات الغامضة إلى صاحب له غيبي، ثم يذيعها في الناس نثرًا مسجوعًا، أما حادثة الإسراء والمعراج فهي ضرب من الرؤى المنامية التي تحصل للعرَّاف أثناء تهجده، كما هو حال بعض الشعوب البدائية[1]، وهو أمر ينطبق على الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقط، ولا يتطرق إلى الديانة المسيحية أو اليهودية، ولا يشملها، ليكون الإسلام في النهاية اختراعا بشريا من قبل محمد، يشابه عمل الكهنة لا أكثر.

ولننظر كيف يرى المستشرقون والغرب تاريخ الإسلام، وهم منبهرون من القوة الهائلة التي جعلت المسلمين ينجزون هذه الفتوحات الضخمة، وينشرون دينهم، وثقافتهم، ويقيمون وحدة كبرى تجمع الشعوب المسلمة متعددة الأعراق في مظلتها، ليكون السؤال: هل كان هذا تصارعا على الدنيا من قبل المسلمين؟ أم أنهم كانوا من الصدق والإخلاص والعزيمة، مع فهمهم العميق وتطبيقهم للإسلام: العقيدة والرسالة والشريعة والثقافة والأخلاق والقيم؟ مما جعل شعوب الأرض تتوق للدخول فيه، حتى ولو لم تكن ضمن الحدود السياسية للخلافة الإسلامية. يظل السؤال قائما، ونطرحه على العلمانيين عامة، والعلمانيين العرب خاصة، الذين اتبعوا الرؤية

(١) المرجع السابق، ص٤٩.

الاستشراقية المشرَّبة بالمنظور الغربي: العلماني والكنسي، وقدموا في النهاية قراءات للسيرة والتاريخ والصحابة والفاتحين، لتصبح السيرة النبوية وأحداثها صراعات، وما محمد إلا قائد سياسي ماهر، توسّل بالدين من أجل سلطان الدنيا، ونكتشف أن هذه الفكرة بدأت من الاستشراق العلماني، وتمددت وتعززت - وللأسف - على أيدي العلمانيين العرب، الذين رفعوا دعاوى مبهرة، من قبيل المنهجية العلمية، والتحليل الموضوعي، والتخلص من الروايات الإسلامية التقليدية، وتبنّي روايات حداثية، وقراءة التاريخ والسيرة بروح العصر، وغير ذلك.

ونقول: لو كانت القضية صراعا من قبل الرسول والصحابة، ثم استغلالا من كبار التجار والزعماء القرشيين المكيين لانفضّ العرب عن الدعوة، فما أيسر أن تختلف القلوب وتتقاتل السيوف من أجل الدنيا؟ على نحو ما يذكر المستشرق جب، فقد أشار إلى أن زعماء قريش أسلموا قبل فتح مكة وأثنائه وبعده، من أجل استغلال الإسلام، وقد وجدوا فيه تكليفات تعبدية بسيطة ويسيرة في الجهد والمال والوقت، ورأوا أنه يمكن استثمار الدعوة الإسلامية في تحقيق امبراطورية كبرى يحكمها العرب[1].

وتلك هي المشكلة في الرؤية العلمانية، أنهم لم يتخيلوا أن يبزغ الإسلام ويتمدد -خلال عقود قليلة- هذا التمدد الهائل، الذي أسقط

---

(١) دراسات في حضارة الإسلام، هاملتون جب، ترجمة: د. إحسان عباس، د. محمد يوسف نجم، د. محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م، ص٧

امبراطورية فارس ذات الحضارة العتيدة، وأضعف وأوهن ثم أسقط دولة الرومان المسيحية، وهدد أوروبا المسيحية من شرقها ومن غربها، ومن جنوبها.

فلا نستغرب من هذا الرأي، حيث يرى عتاة المستشرقين أن « المسلمين كانوا يشكلون تهديدا للعالم المسيحي العربي قبل أن يصبحوا مشكلة بزمن طويل. فقد حدث تحول في القوى في الأقسام البعيدة من الشرق، وقام شعب هائج (هم العرب أو السراسنة/ البدو) عُرِف بالسلب والنهب، وهو علاوة على ذلك شعب غير مسيحي، فاجتاح وخرّب أراضي واسعة، وانتزعها من قبضة المسيحية، وقد وصلت الكارثة أخيرا إلى إسبانيا والشواطئ الإيطالية وبلاد الغال» (١).

وهكذا يعالج التاريخ الإسلامي، من منظور عنصري غربي كنسي، ويصدر لنا ضمن الرؤية الاستشراقية، التي تحصر المسلمين في القبائل البدوية القاطنة في الجزيرة العربية، ولا تنظر إلى أثر الإسلام في تهذيب نفوس هذه القبائل، وتحويل عقيدتها إلى التوحيد، وسلوكياتها إلى الرقي، وقد كانوا خلفاء وقادة عسكريين وفاتحين عظام، وأسسوا ثلاث خلافات إسلامية (الراشدية والأموية والعباسية)، وأداروا أمورها وشعوبها باقتدار شديد. كما أن الكاتب نسي أن أوروبا في هذا الوقت كانت قبائل متناحرة، وإمارات متقاتلة، والدولة الرومانية

---

(١) تراث الإسلام، جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث، ترجمة: د.محمد زهير السمهوري، د. حسين مؤنس، د. إحسان صدقي العمد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مايو ١٩٩٨م، ص٣١، ٣٢.

في أضعف حالاتها، ولم تصمد عسكريا ولا عقديا ولا ثقافيا أمام المد الإسلامي الكبير، الذي أقنع هذه الشعوب بالإسلام والعربية. كما أنه لا ينظر إلى الشعوب الأخرى غير العربية التي دخلت الإسلام، وكانت ذات حضارة عريقة، وخدمت الإسلام أي خدمة، وتكونت الحضارة الإسلامية على أيديها.

فالمنظور السابق استعلائي متكبر، ينظر باحتقار إلى المسلمين، فكيف لهؤلاء البدو أن يهاجموا مناطق مسيحية، وتسقط في أيديهم، ويعدّها كارثة كبرى.

وهو نفس التوجه الذي يتعجب منه «جب» مقررًا أن الإسلام (الدين والدولة والانتشار) اتخذ مسيرة معاكسة للتاريخ الأوروبي تثير الاستغراب، فكلاهما (الإسلام وأوروبا الحديثة) قام على أنقاض الامبراطورية الرومانية، في حوض البحر الأبيض المتوسط، ولكن بينهما فرقا أصيلا، فبينما خرجت أوروبا بشكل متدرج لاشعوري من الفوضى التي عاشت فيها في العصور الوسطى، وبعد عدة قرون، تعرضت فيها لغزوات البرابرة، نجد أن الإسلام انبثق انبثاقا مفاجئا في بلاد العرب، وأقام بسرعة تكاد تعزّ على التصديق، وفي أقل من قرن من الزمان؛ امبراطورية جديدة في غربي آسيا وشواطئ البحر الأبيض المتوسط الغربية والجنوبية، وقد استطاع الإسلام بعد سيطرته على بلاد فارس والرومان إدخال هذه البلدان في نظام ثقافي ديني مشترك، قائم على مفهومه العالمي الشامل، وقد استطاع مقاومة التأثير الديني

العالمي السابق للمسيحية، ويضعفه إلى أقصى حد ممكن، وأن يحطم الزرادشتية والديانات الوثنية في فارس وبلاد ما بين النهرين، وأن يقيم حاجزا في وجه انتشار البوذية في أواسط آسيا. واستطاع إنجاز وحدة دينية واجتماعية وثقافية على طول العالم الإسلامي، وتسيدت الأرض في العصور الوسطى، وكلما تفككت عرى الإسلام، عاد وتجمعت في وحدة أخرى[1].

وعلى الرغم من أن «جب» لم ينحُ مثل بروكلمان، وإنما ترددت كلمة ديانة الإسلام كثيرا في بحوثه، إلا أنه يقرأ تاريخ الإسلام بأن الإسلام تم استغلاله من قبل زعماء قريش، لتحقيق آمالهم في السيطرة، فيذكر أن « للإسلام فضلا آخر في نظر أهل مكة، وهو ذلك الحزم الأكيد الذي أخذ به الأعراب، وهم الذين قبلوا الإسلام في المرتبة الثالثة؛ مرتبة الولاء الإجباري المؤيد أولا بالتخويف من العقوبات العسكرية، ثم بتنفيذ هذه العقوبات بعد وفاة الرسول»[2].

وهذا كلام خبيث، فإذا كان قد اعترف بالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، إلا أنه يدسّ مفهوما بأن زعماء قريش، دون تحديد لمن يقصد تحديدا منهم، هل هم المهاجرون الأوائل، أم الذين آمنوا بعد فتح مكة؟ فصيغة الكلام عمومية، وربما تكون متعمدة حتى يلتبس الأمر، فتصبح الغالبية منتفعة وبيدها السلطة، والأقلية المخلصة منبوذة، وتم إقصاؤها. ثم يصنف الإسلام في مراتب، وأن الأعراب (البدو) كانوا في

---

(١) دراسات في حضارة الإسلام، ص٤-٦ .

(٢) المرجع السابق، ص٧.

المرتبة الثالثة، التي تعني أنهم أقرب للعبيد، يسمعون ويطيعون، فإن عصوا فإنهم معاقَبون عقوبات عسكرية. ونلاحظ أنها صيغة فضفاضة غامضة المقصد، ويبدو أنه يشير إلى ما حدث في حروب الردة، التي كانت تمردا واضحا على سلطة الدولة، وخروجا على الإسلام، ونقضا للمواثيق والعهود، والعودة إلى الجاهلية، والتنادي بالعصبيات القبلية، مما يعني تفكك الدولة الإسلامية، وتصديق مدعي النبوة.

وللعلم فإن حروب الردة المشار إليه، تنبأ بها الرسول (صلى الله عليها وسلم) وحذر المسلمين منها. فبعد وفاته (صلى الله عليه وسلم) اشتد النفاق، وارتدت قبائل، ومنعت قبائل أخرى الزكاة، وهناك قبائل ثبت إسلامها، وناصر الخليفة أبا بكر الصديق (رضي الله عنه)، ولكن الصديق تمسك بموقفه، وقرر قتال كل من ارتد ومنع الصدقة[1]،واستطاع أن ينجي الدولة من الانهيار، فقد تصرف (رضي الله عنه) كقائد دولة بامتياز، على الرغم من معارضة كبار الصحابة مثل عمر بن الخطاب، الذين رأوا الحدث كبيرا، والأفضل التفاهم مع المرتدين، ولكن الصديق أبى، وكان الحق معه، وهو ما اعترف به عمر بن الخطاب بقوله: « فو الله ما هو إلا أن رأيت أن الله تعالى قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعرفت أنه الحق، ووالله لقد لرجح إيمان

(١) انظر تفصيلا: الخلافة الراشدة والبطولة الخالدة، أربع مخطوطات مجتمعة من كتاب: «الاكتفا في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفا»، للمؤرخ: أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق: د. أحمد غنيم، دار الاتحاد العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٩٧٩م. ويذكر أن شرق الجزيرة ارتدت مثل البحرين واليمامة، وأن هناك قبائل ظلت على إسلامها مثل طيئ، وهذيل وأهل السراة وبجيلة وخثعم وهوازن وعبد القيس. ص٨- ١٤.

أبي بكـر بإيـمان هـذه الأمـة جميعـا في قتـال أهـل الـردة»[1].

والأمـر بسـيط للغايـة، ذلـك أن حركـة الـردة لم تكـن حركـة دينيـة، لأنهـا التفـت حـول مدعـي النبـوة، مثـل مسـيلمة الكـذاب وسـجاح والأسـود العنسي، أو قبـل بعضهـم بالإسـلام ولكنهـم رفضـوا أداء الـزكاة، فـكان الحـل هـو الحفـاظ عـلى عقيـدة المسـلمين، ومنـع الضـلال، ومحاربـة الإفسـاد، فديـن الله يحتـاج إلى قـوة تمنعـه وتحمـي أتباعـه.

عـلى جانـب آخـر، يثـور سـؤال جـدلي؛ لمـاذا لم يؤمـن العـرب بالديانـات السـماوية: المسـيحية واليهوديـة والحنيفيـة؟ ولمـاذا آمنـوا بالدعوة الإسـلامية؟

وهمـا سـؤالان لم يثرهمـا المسـتشرقون، عـلى الرغـم مـن مشروعيتهـما، وإلحاحهـما وهـم يكتبـون عـن الإسـلام، ويتعجبـون مـن سرعـة انتشـاره في الجزيـرة، ثـم في العـالم.

يدعونـا الجـواب عـن هذيـن السـؤالين إلى النظـر إلى واقـع الديانـات في الجزيـرة العربيـة، حيـث وُجِـدَت في بقـاع مختلفـة، ولكـن ظـل انتشـارها محـدودا، لأسـباب عديـدة، أبرزهـا أنهـا ديانـات فُرِضـت عليهـم مـن الخـارج، بمعنـى أنهـا لم تنبـع مـن الجزيـرة العربيـة، ولم تكـن نصوصهـا مصاغـة بلسـان عـربي يفهمـه العـرب ويعونـه، وتعالـج مشـاكل المجتمـع العـربي. وقـد حـاول الملـك ذو نـواس ملـك الحميريـين في اليمـن إجبـار اليمنيـين عـلى اعتنـاق اليهوديـة، وحـرق أهـل نجـران النصـارى، في حادثـة الأخـدود المعروفـة، وكانـت هنـاك محـاولات مـن الأحبـاش لإحـلال المسـيحية بنـاء عـلى إيعـاز مـن ملـك الـروم، وبنـاء كنيـس القليـس،

---

(١) المرجع السابق، ص١٠.

وإجبار العرب على الحج إليها بدلا من زيارة بيت الله الحرام في مكة، فلما آيسوا من حج العرب، قرر أبرهة الهجوم على الكعبة وتخريبها، في الحادثة الشهيرة، في عام ولادة الرسول (صلى الله عليه وسلم)[1].

أما اليهودية، فقد كانت محصورة في قرى اليهود الذين عاشوا في يثرب وخيبر منعزلين عن العرب، يتكبرون عليهم بدينهم، كما أنهم لم يتطبعوا بطباع العرب، ولم يندمجوا في مجتمعهم، فظلوا جسمًا غريبًا منغلقا على نفسه، يحتكر الصياغة والإقراض بالربا، وبيع الأسلحة، وإثارة الخلافات وإشعال الحروب، والتأرجح في تحالفاتهم بين القبائل.

وقد نظر العرب إلى ما حولهم من الأمم الكبرى خلال رحلاتهم التجارية إلى الشام أو العراق، فوجدوا الروم النصرانيين يعانون من خلافات مذهبية، ويتقاتلون عليها، وشاهدوا الفرس مجوسا يعبدون النار، وكلا الدولتين: الفرس والروم في حروب دائمة، ومجتمعاتهما متفسخة، يسود فيها الظلم، ومظاهر قوتيهما العسكرية تخفي وراءها ضعفا اجتماعيا شديدا، وحين آمن بعض العرب المستنيرين بدين إبراهيم (الحنفية) لم يجدوا من الأنصار ما يجعل دعوتهم دعوة عامة، لأنهم لم يكرسوا أنفسهم لإصلاح سلبيات المجتمع العربي القبلي، بل اقتصروا على الإيمان بالتوحيد وإحلاله محل الوثنية متعددة الآلهة، ولم تدعُ جميع الديانات السماوية إلى وحدة عربية تواجه صلف الروم والفرس في الأطراف الشمالية من الجزيرة العربية. ولذا، سارع العرب

(١) السيرة النبوية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د ت، ج١، ص٢٥- ٢٩.

بالإيمان بالإسلام، فقد نزل القرآن بلسان عربي مبين، بآيات إعجازية، وضرب الرسول القدوة والمثل في الأخلاق والسلوك، وسعى إلى علاج مشكلات القبلية العربية، والرذائل السائدة فيها[1].

لقد لجأ العرب إلى المعتقدات الوثنية، وما تبقى من الديانة الإبراهيمية، لأنهم لم يجدوا دعاة من أهل الكتاب، يقدمون لهم نصوصا دينية مفهومة اللغة، ودعوة للإيمان بالله تعالى مبسطة، تعالج واقعهم ومشكلاتهم. وهذا لم يتطرق إليه المستشرقون في تحيزاتهم المسيحية والتوراتية، وهو موضوع جدير بالنقاش، خاصة أن الإسلام انتشر في بلدان سادت فيها النصرانية قرونا، ومع ذلك سارع أهلها بالدخول في الإسلام، وفي تعلم العربية. بعبارة أخرى: إن الاستشراق لم يسر في الاتجاه المعاكس، ويطرح سؤال لماذا انتشر الإسلام في الجزيرة العربية ولم تنتشر المسيحية أو اليهودية على الرغم من تواجد كلتا الديانتين بشكل أو بآخر على أطراف الجزيرة الشمالية أو الجنوبية، أو في بعض المدن والقرى. ومن جانب آخر، فإن الانطباع السائد عن المسيحية أنها مفروضة عليهم من الخارج، من قبل الأحباش، بتحريض من قيصر الروم، وشكلت حملة أبرهة الأشرم على الكعبة ميراثا سلبيا في النفسية العربية، خاصة بعدما تدمر جيش أبرهة وأفياله. وقد قال عبد المطلب بن هاشم - جد الرسول- لمندوب أبرهة: والله ما نريد حربه، ومالنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام. فإن يمنعه منه فهو حرَمه وبيته، وإن يُخَلِّ بينه

(١) الإنسان العربي والتاريخ، أنور الرفاعي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١م، ص١٥٠-١٥٢.

وبينـه، فـوالله مـا عندنـا دفـع عنـه[1]. وفي حـوار عبـد المطلـب مـع أبرهـة، طلـب منـه أن يـرد عليـه مائتـي مـن الإبـل كان قـد أخذهـا عسـكره، فتعجـب أبرهـة مـن موقفـه، وقـال لـه: لقـد كنـت أعجبتنـي حـين رأيتـك ثـم قـد زهـدت فيـك حـين كلمتنـي، أتكلمنـي في مائتـي بعـير أصبتُهـا لـك، وتـترك بيتـا هـو دينـك وديـن آبائـك قـد جئـتُ لأهدمـه ولا تكلمنـي فيـه؟! فقـال عبـد المطلـب: أنـا رب الإبـل، وإن للبيـت ربـا سـيمنعه. فقـال أبرهـة: مـا كان ليمتنـع منـي. قـال: أنـت وذاك. وردّ أبرهـة الإبـل لعبـد المطلـب[2]، وقـد كان هـلاك جيـش أبرهـة النـصراني سردية كـبرى تـروى بـين القبائـل، وتعظّـم مـن شـأن الكعبـة المكرمـة، وتسـترجع كونهـا رمـزا للديانـة الإبراهيميـة الحنفـاء، حيـث هاجمتهـا الطـير الأبابيـل، وقتلـت أفيالـه وجنـوده، ومـات أبرهـة بمـرض أصابـه وهـو عائـد مـن مكـة إلى اليمـن.

فخلاصـة الـرأي في المنظـور الاسـتشراقي والعلـماني أنـه يتعامـل وفـق تحيـزات وقناعـات مسـبقة ضـد الإسـلام، وأنـه ينظـر بسـلبية إلى الصعـود الإسـلامي في الـشرق، وتكويـن امبراطوريـة ضخمـة، اقتطعـت الكثـير مـن البلـدان المسـيحية، وأن أسـاس قراءتهـم التاريخيـة ماديـة نفعيـة، تقيـس الأمـور بالمكسـب والخسـارة لصالـح أو ضـد فئـة مـا، وتحـصر قراءتهـا في رغبـة قريـش في الاسـتعلاء والهيمنـة عـلى العـرب أولا، ثـم عـلى شـعوب الأرض ثانيـة، ولا حديـث عـن نـشر الدعـوة ورسـالة التوحيـد.

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير، ج١، ص٣٣.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٣٤

غموض المصطلح وضبابية الفهم للهجرة:

نستهل مناقشتنا لمصطلح الهجرة في المنظور الاستشراقي والعلماني بطريقة القراءة التي تتخذ من الصياغة الفلسفية في القراءة والوصف والتحليل، ولا تعبأ كثيرا بضبط المصطلحات، ولا النظر في صحة الروايات المستندة إليها، ولا حتى الاطلاع على كامل الروايات حول الحادثة أو الموقف، وإنما تقتطع منها ما تشاء، دون فهم المناسبة التي ذكرت فيها، ولا الدلالات المقصودة منها، منطلقةً من فرضية مسبقة، تسعى للبرهنة عليها بأي سبيل، فتقفز من الجزئي إلى التعميم، ثم إصدار الحكم.

وأول ما نجده في مثل هذه القراءات، أن مصطلح الهجرة نفسه يكتنفه الغموض في كتاباتهم، ولنأخذ مثالا لأحدهم على ذلك (سليمان البشير) حيث يرى أن «تعبير الهجرة من أكثر المصطلحات غموضا في تاريخ الإسلام، فالرأي السائد يربط هذا التعبير بهجرة الرسول من مكة إلى المدينة، وعلى الرغم مما روي عن الرسول قوله: لا هجرة بعد الفتح. ويلاحظ أن معسكرات الفتح الإسلامي في الأمصار (بعد ذلك في الفتوحات) سميت دور الهجرة»[1].

هنا نجد خلطا غير منطقي وتلاعبا في الألفاظ، وتلك مشكلة الكتابة العلمانية، عندما يكتبها من لا يتمعقون في العربية، ولا يسعون

(١) مقدمة في التاريخ الآخر: نحو قراءة جديدة للرواية الإسلامية، د. سليمان البشير، حقوق الطبع محفوظة للمؤلف، القدس، ١٩٨٤م، ص١٧٥.

إلى دراسة اللفظ وما يرتبط به من مفاهيم، ودلالات، ومعطيات في سياقاته المختلفة، سواء في الأساس اللغوي الجاهلي، أو في الإضافات التي لحقته مع ظهور الإسلام، وما أضفاه عليه القرآن من معان جديدة. ومكمن الغموض- كما يشير الكاتب- أن الرأي السائد عن مفهوم الهجرة يقتصر في رأيهم على هجرة الرسول إلى يثرب، مما يعني أن الكاتب لم يكلف نفسه بالنظر بحثا وتنقيبا في جذور اللفظ وظلاله قرآنيا، وكيف أنه متعدد الدلالات المعنوية والمادية، ومنها دلالة الأمر الرباني للرسول وصحابته بالهجرة إلى المدينة، والغريب أن الكاتب يعطي أحكاما تعميمية عندما يقول (الرأي السائد..)، ولا نعرف على أي كتابات وآراء ارتكز في إطلاق هذا الحكم، وهل يقصد به كتابات العلماء المسلمين أم المستشرقين؟ ويبدو أنه اكتفى بالمعنى الشائع عن الهجرة، مما يعني سطحية رؤيته، وأنه يتعجل إصدار الرأي، قبل أن يتمعن في التفاصيل، وهو ما نرصده بوضوح في كتابه، حيث يريد الصعود قفزا إلى الدرجة الأخيرة من السُلَّم، فيعمم حكمه، الذي يأتي دائنا للسيرة النبوية، دون أن يكلف نفسه بارتقاء درجات سلم البحث النزيه، الذي ينظر إلى الأصل اللغوي، وما اعتراه من تغيير دلالي.

ويعلل الكاتب رأيه عن غموض مصطلح الهجرة، مستحضرا قول الرسول (لا هجرة بعد الفتح)، دون أدنى تفرقة بين دلالة الهجرة في جانبها المعنوي وهذا مذكور - قرآنيا - أو دلالتها المادية المتمثلة في

رحيـل الرسـول ومسـلمي مكـة إلى المدينـة.

أي أن القـرآن جعـل للهجـرة عـدة دلالات، منهـا مـا هـو روحـاني وهـذا ثابـت ودائـم ومسـتمر، ومنهـا مـا هـو مـادي مـكاني، وهـذا مرتبـط بظـروف بعينهـا، وينتفـي عندمـا تذهـب مسـبباته. أمـا مقولـة لا هجـرة بعـد الفتـح، فهـي متعلقـة بـما هـو مـادي مـكاني، فـلا فائـدة للهجـرة إلى المدينـة المنـورة، مـن قبـل مسـلمي مكـة، إذا كان فتـح مكـة قـد تـم بالفعـل، وانتـشر الإسـلام بهـا، وفي غالبيـة أنحـاء الجزيـرة العربيـة قبلهـا، ودخلـت القبائـل في ديـن الله أفواجـا، فالهجـرة للمدينـة كان هدفهـا التمكـين لديـن الإسـلام، وحمايـة المسـلمين، وبنـاء الدولـة المسـلمة الوليـدة، أمـا وقـد تـم بنـاء الدولـة، وفُتحـت مكـة، فـلا هجـرة إذن.

وكـي نـرد عـلى مـا تقـدم بشـأن الهجـرة، وعلاقتهـا بفتـح مكـة، نعـود إلى مقـولات الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) بعـد فتـح مكـة، ونتعـرض لشرحهـا ومناقشـتها تفصيـلا.

يـروي ابـن عبـاس (رضي الله عنهـما) قـال، قـال النبـي صـلى الله عليـه وسـلم يـوم فتـح مكـة: «لا هجـرة ولكـن جهـاد ونيـة وإذا اسـتنفرتم فانفـروا». وقـد جـاء في شرح الحديـث أن فتـح مكـة يوقـف الهجـرة إلى المدينـة أو غيرهـا بغـرض إقامـة الديـن، فـلا تجـب الهجـرة مـن بلـد قـد فتحـه المسـلمون، أمـا قبـل فتـح مكـة فـإن حـال كل مسـلم كان عـلى أحـد ثلاثـة: الأول: قـادر عـلى الهجـرة منهـا لا يمكنـه إظهـار دينـه ولا أداء واجباتـه فالهجـرة منـه واجبـة. الثـاني: قـادر لكنـه يمكنـه إظهـار دينـه

وأداء واجباته فمستحبة لتكثير المسلمين بها ومعونتهم وجهاد الكفار والأمن من غدرهم والراحة من رؤية المنكر بينهم. الثالث: عاجز يعذر من أسر أو مرض أو غيره فتجوز له الإقامة فإن حمل على نفسه وتكلف الخروج منها أجر[1].

إذن، مقولة الرسول تجعل معنى الهجرة جهادًا، وهو ما يتوارد في أحاديث أخرى، قد تقدم ذكرها في المبحث السابق، مما يؤكد أنه لا تعارض في مفهوم الهجرة، وإنما إضافة على المفهوم، فالحدث التاريخي انتهى، بسياقه الزمني، ومسبباته وظروفه، وصار للهجرة دلالات أخرى: معنوية بالهجرة إلى الله، والجهاد في سبيله.

وأكدت ذلك السيدة عائشة رضي الله عنها، فقالت: انقطعت الهجرة منذ فتح الله على نبيه صلى الله عليه وسلم مكة[2]، أي فليظل المسلمون بعد الفتح في قبائلهم وقراهم، وإن دُعُوا إلى جهاد أو نصرة للدين، فيجب عليهم تلبية النداء. وبالفعل تسابق أبناء القبائل والقرى للجهاد مع جيوش الفتوحات الإسلامية بعد ذلك.

وقد جاء الصحابي مجاشع بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فقال: هذا مجالد يبايعك على الهجرة. فقال: لا هجرة بعد فتح مكة ولكن أبايعه على الإسلام[3]. وفي رواية أخرى على لسان مجاشع بن مسعود السلمي، يقول: أتيت النبي صلى الله عليه

(١) فتح الباري، كتاب الجهاد والسير، باب لا هجرة بعد الفتح، ص٢٢٠ ورقم الحديث ٢٩١٢.
(٢) المرجع السابق، ص٢٢٠، حديث رقم ٢٩١٤.
(٣) المرجع السابق، ص٢٢٠، رقم الحديث ٢٩١٣.

وسلم بأخي بعد الفح، قلت: يا رسول الله، جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة . قال: ذهب أهل الهجرة بما فيها. فقلت: على أي شيء تبايعه؟ قال: أبايعه على الإسلام، والإيمان، والجهاد[1]. فالبيعة على الإسلام هي بيعة كلية، شاملة الإيمان، وإقامة شعائره من زكاة وصيام وحج، ومناصرة أهله، والخروج في الجهاد، وفي الروايتين السابقتين دليل على تنافس المسلمين في نيل شرف الهجرة وثوابها، وحرص الرسول على تعديل المفهوم الشائع عن الهجرة بعد فتح مكة.

وبالعودة إلى الشرح المتقدم للحديث، فإن الهجرة للمدينة لم تكن واجبة على الجميع، وإنما لمن استطاع أن يهاجر، ويترك قبيلته أو بلده، ويأتي للإقامة في المدينة المنورة، ومناصرة الصف المسلم، الذي كان يخوض صراعا ضد جبهات متعددة: كفار مكة، والقبائل المتحالفة معهم، اليهود ومؤامراتهم. فأمر الهجرة كان منصرفا إلى مسلمي مكة وإلى بقية المسلمين من الأعراب الذين كانوا يدخلون الإسلام يوما بعد آخر، وكذلك ينصرف بالوجوب إلى مسلمي مكة الذين عانوا الاضطهاد، مثلما كان واجبا على الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث عانى من تآمر مشركو مكة عليه بالقتل، وقبل ذلك بالتعذيب والحصار.

أيضا، كان هناك مسلمون في قبائل وقرى أخرى، وهؤلاء- كما أشار الشارح- على ثلاث حالات، والأمر في كل حالة يتوقف حسب ظروف المسلم الخاصة، وواقع الحال في المجتمع الذي يعيش فيه،

---

(١) صحيح البخاري، رقم: ٤٣٠٥

فالمسلم المهدد في حياته ودينه وغير قادر على تأدية شعائر الإسلام ولا إظهار إيمانه، والمعرض للتعذيب؛ تجب عليه الهجرة، وقد هاجر بالفعل إلى المدينة مسلمون غير مكيين، لأنهم تعرضوا للفتنة في دينهم من قومهم، ومنهم الصحابي الجليل جندب بن جنادة الغفاري، المشهور بأبي ذر الغفاري، وكان خامس خمسة في الإسلام، ثم إنه رُد إلى بلاد قومه، فأقام بها بأمر النبي صلى الله عليه وسلم له بذلك، فلما أن هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، هاجر إليه أبو ذر رضي الله عنه، ولازمه، وجاهد معه[1]، فقد أراد ملازمة الرسول في مكة، والجهر بالدعوة، ولكنه وجد من عنت قريش وتعذيبهم له الكثير. فجاءت هجرته ليكون ضمن الصف المسلم في المدينة المنورة، مجاهدا، متبعا للرسول، وراويا لأحاديثه، ضاربا المثل في الزهد والتضحية والفداء.

والحالة الثانية، تتصل بالمسلم الذي هو آمن في قومه، فهو مخير بين بقائه بينهم لنشر الإسلام بينهم، أو الهجرة إلى المدينة لتكثير سواد

---

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، ج٢، ص٤٦. وقد كان إسلامه مبكرا، كما يرويها ابن عباس رضي الله عنهما، حيث سمع أبو ذر بظهور الرسول في مكة، فجاء إليه، وقابل ابن عباس، فمضى، ومضيت معه، فدخلنا على النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، اعرض علي الإسلام، فعرض علي، فأسلمت مكاني، فقال لي: يا أبا ذر، اكتم هذا الأمر، وارجع إلى قومك، فإذا بلغك ظهورنا، فأقبل، فقلت: الذي بعثك بالحق، لأصرخنّ بها بين أظهرهم. فجاء إلى المسجد وقريش فيه، فقال: يا معشر قريش، إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فقاموا، فضربت لأموت، فأدركني العباس، فأكب علي، وقال: ويلكم تقتلون رجلا من غفار، ومتجركم وممركم على غفار! فأطلقوا عني، فلما أصبحت، رجعت، فقلت مثلما قلت بالأمس، فقالوا: قوموا إلى هذا الصابئ، فصنع بي كذلك، وأدركني العباس، فأكب علي.

المسلمين بها، ومعاونة الرسول وصحابته في جهاده وغزواته. والحالة الثالثة: وتتصل بمن هو قد أسلم، ولكن منعه عن الهجرة عذر شديد، وهذا مخير بين البقاء، أو الخروج.

إن الدعوة للهجرة إلى المدينة قبل الفتح، كانت لتقوية الصف المسلم بها، وتكثير سواده، وقد ورد في السيرة النبوية ما يؤكد هذه الحالة ففي صحيح مسلم: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أميرًا على سرية أو جيش، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمَن معه من المسلمين خيرًا، قال: اغزُوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا مَن كفر بالله، إذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعُهم إلى إحدى ثلاث خصال - أو خِلال - فأيَّتهن ما أجابوك إليها فاقبَلْ منهم وكفَّ عنهم: ادعُهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبَلْ منهم وكفَّ عنهم، ثم ادعُهم إلى التحوُّل من دارهم إلى دار المهاجرين، وأعلمهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين وأن عليهم ما على المهاجرين، فإن أبَوا واختاروا دارَهم فأعلمهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الفيء والغنيمة نصيب، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبَوا فادعُهم إلى إعطاء الجزية، فإن أجابوا فاقبَلْ منهم وكفَّ عنهم، فإن أبَوا فاستَعِن بالله وقاتِلْهم[1].

لدينا حُكمان: حُكم من يظلون في قبائلهم وقد أعلنوا الإسلام، فهؤلاء مؤمنون، ولكن لا ينالوا فيئا ولا غنيمة، إلا في حالة خروجهم

---

(١) كتاب الجهاد والسِّير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث، عن يزيد بن الخصيب الأسلمي (رضي الله عنه)، ص١١١٥، حديث رقم ١٧٣١.

للجهـاد. أمـا إذا قدمـوا مهاجريـن، وأقامـوا في دار الهجـرة، فلهـم كافـة الحقـوق، لأنهـم في حالـة جهـاد وغـزو مـع الرسـول وصحابتـه الأبـرار، ونـصرة للمسـلمين في المدينـة المنـورة، وهـم في طـور التمكـين.

إذن، فـإن دعـوى غمـوض دلالـة الهجـرة التـي تـتردد في الكتابـات العلمانيـة تنتفـي تمامـا، ذلـك أن للهجـرة فقهـا وأحـوالا ووقائـع، كان الجميـع مـدركا لهـا، كـما أن سـؤال الهجـرة حـضر دومـا في استفسـارات المهتديـن الجـدد للإسـلام، وهـم طامحـون لنيـل ثـواب الهجـرة، والمشـاركة في تكويـن المجتمـع المسـلم، الـذي بـدأ يتمـدد مـن المدينـة المنـورة، إلى بقيـة القبائـل العربيـة، واليمـن، وحضرمـوت، ونجـد، ثـم مكـة المكرمـة، بفعـل وفـود القبائـل التـي جاءت معلنـة إسـلامها، ثـم يعـود معهـا أحـد المسـلمين منتدبـا مـن قبـل الرسـول، لتعليـم القبيلـة فـروض دينهـا، ويجمـع صدقاتهـا، ويكـون ممثـلا لحكـم الرسـول في القبيلـة، فـإذا دعـا داعـي الجهـاد، فإنـه يحـض أبناءهـا عـلى إجابـة النـداء. فأصبحـت المدينـة وهـي دار الهجـرة عاصمـة لدولـة الإسـلام، ولهـا عمالهـا ودعاتهـا عـلى القبائـل.

أمـر آخـر، أشـير إليـه فيـما ذكـره الكاتـب (سـليمان البشـير) بـأن معسـكرات المسـلمين في الأمصـار سـميت دار هجـرة، وهـو لَبْسٌ جديـد، فالجيـوش المسـلمة التـي قامـت بالفتوحـات كانـت لهـا معسـكراتها، شـأن أي جيـش يقـوم بالفتـح، ولكـن أن تُسـمّى بـدار هجـرة، فـلا يوجـد أي دليـل عـلى ذلـك، ولم يقـدم الكاتـب نفسـه دليـلا، والثابـت أن المسـلمين كانـوا يعمـدون إلى تخطيـط مـدن جديـدة، تعيـش فيهـا القبائـل الوافـدة مـن

الجزيرة العربية، وأيضا الجنود الذين قرروا الإقامة في البلد المفتوح.

فالرؤية العلمانية والاستشراقية، تضع الهجرة موازية ومساوية للغزوات، والفتوحات، التي قام بها المسلمون، في خلط متعمد هدفه أن الهجرة ما هي إلا بداية لتكوين جيش، والحصول على أرض جديدة يتحصن فيها المسلمون، من أجل غزو مكة، وما حولها، وإخضاع القبائل، وتطور الأمر ليصبح خروج المسلمين للجهاد والفتوحات امتدادا للهجرة، وكأن الرحيل للمسلمين غرضه الحرب ولا غير، ومن أجل تقوية الدولة الوليدة، حيث يؤكد سليمان البشير: «إن تغيير اتجاه هدف الهجرة النبوية ينعكس لدى الرواية الإسلامية في البحث عن فتوحات (هجرات) ومغاز جديدة داخل الحجاز نفسه، كما في غزوة بدر، وغيرها» [1]، ليحصر جهاد الرسول في الغزوات بهدف دنيوي، وليشبه الهجرة بأنها مثل الغزوات وأيضا الفتوحات، كلها تصب لتحقيق غايات نفعية للحركة السياسية التي أسسها الرسول، ويغيب عنها في المقابل الطابع الديني، أو يجعل من الدين غطاء لحركة المسلمين، في تأسيس دولة عربية، تجمع القبائل تحت لوائها، ثم تخدع بها الشعوب الأخرى.

دعوى التوطين والخؤولة:

وتلك دعوى قوامها أن مهاجري مكة جاءوا إلى المدينة بحثا عن وطن جديد، يعوضهم ما خسروه في مكة، فالمدينة وطن جديد،

(١) مقدمة في التاريخ الآخر: نحو قراءة جديدة للرواية الإسلامية، ص١٨٧.

للعيش الآمن والتوطين.

حيث تفترض الرؤية العلمانية أن الهجرة وما تبعها من عملية رحيل المهاجرين، إنما هي «عملية استيطان أو توطن، بمعنى الانتقال من حياة البداوة إلى حياة الاستقرار، كما استنتجوا أن الرسول حاول أن يفرض التوطين على من جاء مسلما من العرب (البدو)، وفسروا ذلك بما تذكره المصادر من وجود بيعتين مختلفتين، بيعة عربية وبيعة هجرة، الأمر الذي من الممكن أن يعكس في مثل تلك الأحوال الأجواء التي رافقت موجة الهجرة والاستيطان العربية الكثيفة، إلى مراكز الاستقرار الجديدة.. خلال الفترة الأموية»[1].

هذه النظرة نابعة من المنظور العلماني العام، القارئ لأحداث السيرة والمحلل لها من منظور دنيوي نفعي مادي، فلم يهاجر محمد (صلى الله عليه وسلم) تنفيذا لأمر الله، وإعلاء كلمة الحق، والتمكين للإسلام، وإنما بهدف التوطين في يثرب، بوصفها مدينة كبرى، وحولها قرى زراعية. وهو تعليل ظاهره التفسير العقلاني المادي للهجرة بوصفها ظاهرة إنسانية، وباطنه الجهل الشديد بالواقع، فغالبية المهاجرين كانوا من مكة المكرمة، وهي مدينة تجارية ولها مكانتها الدينية التي جعلت العرب يجلّون أهلها، بحكم سدنتهم للكعبة المشرفة، أي أن المهاجرين قادمون من مدينة، وليسوا من البادية. كما أن دعوى التوطين تعني أنه يهاجر حاملا كل ما امتلك، أو باحثا عن عمل، وهذا لم يحدث، فقد هاجر الصحابة المكيون إلى المدينة تاركين أموالهم وأهلهم وذراريهم،

(١) المرجع السابق، ص١٧٥.

فكيف يمكن لهم أن يفكروا في التوطين بدون اصطحاب ما ملكوا؟

كما أن غالبية المهاجرين كانوا يعملون في التجارة، أو الحِرف، وليسوا من أهل الزراعة كما هو حال أهل المدينة المنورة، وبالتالي استخدام مصطلح التوطين، غير دقيق، ولا ينطبق على الهجرة إلى المدينة. وإنما كانت الهجرة من أجل إعلاء لكلمة الله، ونصرة لدينه، واتباعا لرسوله، ومن أجل تكوين المجتمع المسلم، الذي يحيا فيه الإسلام عقيدة وشريعة، ويكون نواة للدولة المسلمة، التي بشّر بها الرسول.

ثم إننا نجد الفهم المغلوط للبيعة، حيث أشار الكاتب العلماني إلى وجود (بيعة للهجرة وبيعة عربية)، وهذا سوء تأويل. فكما ذكرنا من قبل، فإن الرسول في بداية هجرته إلى المدينة المنورة، كان يدعو المسلمين إلى الهجرة إليها، سواء كانوا مكيين أو من قبائل عربية أخرى، فقد كان في حاجة إلى دعم الصف المسلم في بداية تمكينه في المدينة المنورة، ولكن فكرة أن هناك بيعتين: عربية وهجرة، تحمل في طياتها هدفا خبيثا، لأنها لم تحدد مفهوم كل بيعة منهما، وإنما أُطلِق المصطلح دون شرح، مثل مصطلحات عديدة، تتناثر في الكتابات العلمانية، لا نجد تعريفا لها، وتدخلنا في غابة من المصطلحات، قليلها مفهوم، وأكثريتها غامض ملتبس.

فالبيعة في الإسلام، كان يجهر بها المسلم أمام الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما يدخل في الإسلام، ناطقا الشهادتين، وهي بيعة

للإسلام أولا، بعد إشهار الإيمان بالله تعالى، ويكون من بعدها مخيّرًا ما بين الهجرة أو الاستقرار في قبيلته من أجل دعوتها للإسلام، إذا وفّرت له أمانا، فهو مسلم مبايع سواء هاجر أم مكث في قبيلته.

ثم يتم القفز من قبل الكاتب، بأن يربط ما بين الهجرة النبوية، وهجرات القبائل العربية التي اشتدت في عهد الخلافة الأموية، وهو ربط ظاهره مقبول، ولكنه باطنه مختلف أشد الاختلاف، فشتان بين هجرة الرسول وصحبه من مكة إلى المدينة، أي من دار شرك إلى دار إسلام، وبين هجرة القبائل العربية إلى العراق والشام، فالأخيرة هجرة في رحاب الخلافة الإسلامية، وبين أقاليمها المفتوحة، حيث سيطرت الدولة الأموية على مساحات شاسعة من البلدان، في شمالي إفريقيا، والعراق والشام، ثم فارس، ومن حق كل من ينضوي تحت حكم الخلافة الأموية التنقل في رحابها.

إن منهج الكاتب المشار إليه يعتمد على الإيجاز المخل في التناول، وطرح مفاهيم ظاهرها التوافق، وعميقها الاضطراب، وهدفه في النهاية قراءة الهجرة النبوية على أنها حركة انتقال وتوطين لأهداف اقتصادية وسياسية، وليست دينية سامية، لكي يؤسس مفهوما مفاده أن الهجرة إلى المدينة المنورة هي بداية لهجرات أخرى، سعى إليها المسلمون بعد ذلك، في الغزوات أو الفتوحات بعد ذلك، وطبعا الهدف من كل ذلك مادي دنيوي، فينزع الغطاء الديني الروحي عنها، ويخلطها مع هجرات تالية أخرى للمسلمين، ربما يكون بعضها كان بهدف التوطن

والآخـر بهـدف نـشر الإسـلام.

عـلى جانـب آخـر، فـإن هنـاك رأيًـا آخـر، يُرجـع اختيـار الرسـول (صلى الله عليـه وسـلم) ليثـرب لتكـون موطنـا لهجرتـه إلى علاقـة الخؤولـة التـي تربـط الرسـول مـع قبيلـة الخـزرج، ويحفـر في التاريـخ حـول بنـي النجـار الذيـن كانـوا أخـوال الرسـول، وفيهـم تـوفي والـد الرسـول ودفـن عندهـم، ولـذا اختـار الرسـول يثـربَ لهجرتـه، كـما أن أم محمـد توفيـت ودفنـت في الأبـواء وكان معهـا عبـد المطلـب وأم أيمـن حاضنـة الرسـول، وقـد اسـتطاع مصعـب بـن عمـير اخـتراق البنيـة القبليـة في يثـرب مـن خـلال احتمائـه بعلاقـة الخؤولـة للرسـول في الخـزرج، ويـورد الكاتـب مقولـة الرسـول للأنصـار: « الـدم الـدم، الهـدم الهـدم، أنتـم منـي، وأنـا منكـم، أحـارب مـن حاربتـم وأسـالم مـن سـالمتم» في دلالـة عـلى أن الرسـول تعامل مـع أهـل يثـرب مـن منطلـق قبـلي جاهـلي، مبنـي عـلى التحالـف والمناصرة التامـة لهـم في حالـة الحـرب أيًـا كانـت[1].

نرصـد في التوجـه السـابق البعـد الدنيـوي في التحليـل، الـذي ينـأى تماما عـن المنظـور الدينـي، ويتعامـل مـع الحـدث بتحليـل مـادي، ويسـتند في ذلـك إلى علاقـة القرابة/ الخؤولـة التـي كانـت للرسـول مـع قبيلـة الخـزرج وبنـي النجـار في يثـرب، ويعمـق الكاتـب مـن خـلال روايـات تاريخيـة عـن هاشـم بـن عبـد منـاف وعبـد المطلـب جـد الرسـول وغيرهمـا، مـن الذيـن كانـوا عـلى تواصـل مـع الخـزرج. وأزمـة هـذا التحليـل أن هنـاك مـا يناقضـه تمامـا، ذلـك أن المسـألة ليسـت مسـألة علاقـات قرابـة وصلـة

(١) السلطة والمعارضة في الإسلام، زهير هواري، ص٢٢-٢٦.

رحـم وخؤولـة، وإنـما هـي مسـألة ديـن ومعتقـد، وقـد عـادى الرسـول وتآمـر عليـه أفـراد مـن قومـه في مكـة المكرمـة، وهـم أولى بـه في النسـب، ولـو شـاءوا لآمنـوا بـه عصبيـة وحميـة، ولكـن آمـن البعـض وظـل البعـض عـلى عقيـدة آبائهـم، وحاربـه البعـض.

كـما أن لبنـي هاشـم علاقـات مـع قبائـل أخـرى غـير الخـزرج، بحكـم التجـارة والمصاهـرة في الجاهليـة. وهـذا لا ينفـي وجـود العلاقـات التـي أشـار إليهـا الكاتـب، ولكـن هـدف تحليلـه هـو محـو البعـد العقـدي، الـذي نـاصر فيـه أهـل يثـرب الرسـول وصحبـه، والإبقـاء عـلى صلـة الرحـم، التـي تعنـي مصلحـة متبادلـة، وانتصـار لمـا هـو قبـلي.

ولنـدع أحـداث السـيرة ذاتهـا تـردّ عـلى هـذا الادعـاء، خاصـة بعـد عودتـه (صـلى الله عليـه وسـلم) مـن الطائـف، لنتعـرف خطـاب الرسـول المقـدم إلى القبائـل المختلفـة، التـي كان يعـرض نفسـه عليهـا في المواسـم، حيـث يـشرح لهـم دعوتـه، ويخبرهـم أنـه نبـي مرسـل، ويسـألهم أن يصدقـوه ويمنعـوه حتـى يبـين مـا بعثـه الله بـه. وكان يسـير معـه الصديـق أبـو بكـر، الـذي كان خبـيرا بأنسـاب العـرب، وتاريخهـا، فيعطيـه معلومـات مسـبقة عـن كل قبيلـة، حتـى يكـون عـلى بينـة منهـا، أو كان الرسـول نفسـه يسـأل القبيلـة ويتعـرف عليهـا، قبـل أن يـشرع في دعوتهـا. وقـد عـرض نفسـه عـلى قبائـل عديـدة، منهـا: بنـو عامـر، وغسـان، وبنـو فـزارة، وبنـو مـرة، وبنـو حنيفـة، وبنـو سـليم، وبنـو عبـس، وكنـدة، وكلـب، وبنـو الحـارث بـن كعـب، وبنـو عـذرة، وقيـس. والغريـب في الأمـر أن عمـه أبـو لهـب

أن كان يتبعه، ويقول لهم: إنه صابئ كاذب. والرسول غير عابئ به، وينادي في الناس: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا. ويقول أبو لهب: أيها الناس لا يغرنكم هذا عن دينكم دينِ آبائكم، إنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى. وهناك من قال إن أبا جهل كان يتبعه أيضا[1].

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يكلّم كل شريف في قومه، لا يسألهم إلا أن يؤووه ويمنعوه، ويقول: لا أكره أحدا منكم على شيء، من رضي منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنما أريد أن تحرزوني فيما يراد بي من القتل، حتى أبلغ رسالة ربي، وحتى يقضي الله لي ولمن صاحبني بما شاء[2].

إن عرض الرسول نفسه على هذه القبائل معناه أنه لم يكن يتوخى أي علاقة قرابة أو صلة رحم، إنما كان يخاطب من يسمعه، ويقبل منه الدعوة، ويعلمهم أنه نبي. وأنه صاحب رسالة خيرة، تخرج الناس من عبادة الشرك إلى عبادة الله الواحد الأحد. فكيف تستقيم فكرة أنه اختار الهجرة ليثرب، لوجود خؤولة معهم؟ هذه المعلومات تنسف الفرضية التي ساقها الكاتب العلماني المشار إليه، ونطرح نحن في المقابل سؤالا فرضيا: ماذا لو قبلت إحدى القبائل التي لا صلة رحم معها من قبل الرسول بأن تناصره وتدعمه؟ وهل هناك بالفعل من وافق على ذلك؟

---

(١) السيرة النبوية، ابن كثير، ج٢، ص١٥٦، ١٥٧.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص١٥٨.

والجواب أن هذا حدث وبالفعل، ووافق بعض زعماء القبائل على إيواء الرسول ونصرته، وإن كانوا ساوموه وطلبوا المقابل لذلك بأن يكون لهم الملك. وللتدليل على ذلك نسوق مثالين. الأول حين أتى الرسول بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله تعالى، وعرّفهم بنفسه، فقال له رجل منهم يقال لهم بَيْحرة بن فراس: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب. ثم قال له: أرأيت إن نحن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من يخالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال الرسول: الأمر لله يضعه حيث يشاء. قال بيحرة: أفُنهدِفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك[1].

والمثال الثاني: أنه أتى جماعة من العرب، فسألهم: ممن القوم؟ فقالوا: من أهل اليمن؟ فقالوا: من كندة، فقال: من أي كندة؟ فقالوا: من بني عمرو بن معاوية.

قال: فهل لكم إلى خير؟ قالوا: وما هو؟ قال: تشهدون أن لا إله إلا الله، وتقيمون الصلاة، وتؤمنون بما جاء من عند الله. فقالوا له: إن ظفرتَ تجعل لنا الملك من بعدك؟ فقال (صلى الله عليه وسلم): الملك لله يجعله حيث يشاء. فقالوا: أجئتنا لتصدنا عن آلهتنا، وننابذ العرب، الحقْ بقومك، فلا حاجة لنا بك[2].

هذان الموقفان المتواتران في كتب السيرة النبوية ينهضان دليلا

---

(١) المرجع السابق، ج٢، ص١٥٧، ١٥٨.

(٢) المرجع السابق، ج٢، ص١٥٩.

واضحـا، يسـقط كل ترهـات الاسـتشراق والعلمانيـة، التـي سـعت إلى تسـويق فكـرة اسـتغلال الدعـوة إلى الإسـلام مـن أجـل مجـد خـاص لقريـش، وأن الرسـول كان مؤسسـا لهـذا المجـد، أو أن مهاجـري مكـة والقرشـيين كانـوا سـاعين لذلـك. فقـد أبـدى أحـد أشراف بنـي عامـر استعداده لنـصرة الرسـول، ومجابهـة العـرب جميعـا بـه، فقـد فكّـر فيهـا دنيويـا وأدرك بذكائـه أن دعـوة الرسـول إذا انتـشرت فسـوف يجتمـع العـرب عليهـا، ولكـن الرسـول رفـض اسـتغلال الدعـوة سياسـيا مـن قبـل أي قبيلـة، ولا حتـى أن يكـون تابعـا لزعيـم قبيلـة يمـلي عليـه حساباته القبليـة، ومصالحـه. مما يعنـي أن زعـماء القبائـل كانـوا عـلى دراية بـأن مثـل هـذه الدعـوة تعنـي تحديهـا لقبائـل العـرب في الجزيـرة، وأنهـا سـتدخل في عـداء مـع قريـش.

ونرصـد أيضـا أن خطـاب الرسـول للقبائـل كان إيمانيـا، يُعلّمهـم جوهـر رسـالته، أمـا خطابهـم فـكان نفعيـا، يسـأل عـن المقابـل في حالـة النـصرة، وفي كلا المثالـين طلبـوا أن يكـون لهـم الملـك مـن بعـده، وجـواب الرسـول متشـابه في الـرد.

أيضـا، فـإن الرسـول عندمـا هاجـر إلى المدينـة، كانـت لـه الزعامـة والقيـادة الفعليـة للمجتمـع المسـلم، ولم يتعامـل مـع قبيلتـي الأوس والخـزرج معاملـة نفعيـة أو انحـاز لقناعاتهـم القبليـة، وإنـما قـاد المسـلمين مـن أجـل نـشر الإسـلام، وتعميـق الالتـزام، ومقاتلـة الكفـار.

عـلى جانـب آخـر، فـإن الكاتـب ذا الرؤيـة العلمانيـة سـاق في تبريـره

لدعـواه مقولـة للرسـول بطريقـة مبتـسرة مقتطعـة مـن سـياقها، فالروايـة الأصليـة كانـت فِي بَيْعَـةِ الْعَقَبَـةِ، فَقَـالَ أَبُـو الْهَيْثَـمِ لِلنَّبِـيِّ (صَـلَّى اللهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ) لَيْلَـةَ الْعَقَبَـةِ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، هَـلْ عَسَـى إِنْ أَظْهَـرَكَ اللهُ تَعَـالَى أَنْ تَرْجِـعَ إِلَى قَوْمِـكَ وَتَدَعَنَـا؟ فَقَـالَ: الـدَّمَ الـدَّمَ، وَالْهَـدْمَ الْهَـدْمَ، أَنَـا مِنْكُـمْ، وَأَنْتُـمْ مِنِّـي، أُحَـارِبُ مَـنْ حَارَبْتُـمْ، وَأُسَـالِمُ مَـنْ سَـالَمْتُمْ(١).

كان تسـاؤل أبي الهيثـم الأنصـاري يختلـف عـن التسـاؤل الـذي عُـرِض عـلى الرسـول مـن القبائـل، فقـد سـأله إن كان سـيرحل عنهـم إذا نـصره، ويعـود إلى قومـه. هـو لم يسـأل عـن المُلـك مـن بعـده، وإنـما سـأل عـن الرسـول نفسـه، وهـل سيسـتمر معهـم أم يعـود إلى قومـه. وكانـت إجابـة الرسـول مختلفـة أيضـا، فقـد شـدد عـلى المنـاصرة لهـم: بالـدم، والهـدم، وأنـه منهـم وهـم منـه، يحـارب مـن يحاربـون، ويسـالم مـن يسـالمون. أي أنـه يتوحـد معهـم تمامـا، في المنشـط والمكـره، والسـلم والحـرب. وذلـك لأنهـم أتـوه في بيعـة العقبـة الثانيـة، وقـد انتـشر الإسـلام في كل بيـت مـن بيـوت المدينـة، وأضحـوا جميعـا بفضـل دعـوة مصعـب بـن عمـير (رضي الله عنـه) مـن المؤمنـين بـالله وبرسـوله. إذن، فهـم آمنـوا أولا، وتعرفـوا وتشرّبـوا الإسـلام والرسـول ليـس بـين ظهرانيهـم ثانيـا، فـما بالهـم إذا هاجـر إليهـم الرسـول وعـاش بينهـم! فتكـون الأزمـة أن الكاتـب العلـماني اقتطـع هـذه الحـوار، ليدلـل عـلى النـصرة القبليـة، ونـسي أو تناسـى أن أبسـط مبـادئ

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، رقم الحديث: ١٥٤٨٢، وأيضا: غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق، تحقيق: سليمان بن إبراهيم بن محمد العايد، نشر جامعة أم القرى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥، رقم الحديث: ٢٠٩٣. والحديث روي في المعجم الكبير للطبراني، ودلائل النبوة، وصحيح ابن خزيمة.

الاستشـهاد أن ينظـر في السياق المأخـوذ منـه الحـوار، ليـدرك أنـه حـوار الرسـول مـع وفـد الأنصـار المسـلمين مـن أهـل يثـرب، وقـد جـاءوه مؤمنـين مصدقـين بالإسـلام، ورحّبـوا بالرسـول عنـده، ولم يطلبـوا مقابـلا سـوى بقـاء الرسـول في مدينتهـم، وتلـك غايـة المؤمنـين الصادقـين.

إثارة الخطاب القبلي والتعاطف مع اليهود:

تعمـدت الكتابـة الاستشراقية والعلمانيـة الـضرب عـلى وتـر الصراعـات القبليـة التـي سـبقت الإسـلام، فتقتطـع بعـض الأخبـار مـن مواضعهـا، وتعيـد صياغتهـا لإنتـاج خطـاب قوامـه أن الجاهليـة بـكل روابطهـا ومفاهيمهـا كانـت متحكمـة ومسـيطرة عـلى سـلوك الرسـول والمسـلمين بعـد الإسـلام، وكان دور الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم) منحـصر في نـزع فتيـل التوتـر، وإعـادة توجيـه النفـوس والعقـول مـن أجـل إنشـاء دولـة تجمـع العـرب، وليـس في نـشر الإسـلام.

وهـو مـا يسـوقه المسـتشرق «مونتجمـري وات» بـأن محمـدا اسـتطاع التوطـن في المدينـة المنـورة، لأن أهـل المدينـة قبلـوه محكّـما في منازعاتهـم السياسـية، أمـا النظـرة إليـه بوصفهـا نبيـا فهـي كانـت لـدى بعـض أهـل المدينـة، وليسـت لـدى آخريـن، أي أنهـم تعاملـوا مع الرسـول بوصفـه زعيما سياسـيا. كـما يصـف «وات» المهاجريـن الذيـن صاحبـوا الرسـول في المدينـة بأنهـم حاشـية دينيـة قويـة[1]، فتكـون صـورة محمـد في المدينـة: نبيـا تؤمـن بدعوتـه طائفـة مـن الأنصـار، وسياسـيا ماهـرا لـدى طوائـف أخـرى، وأن

(١) محمـد في المدينـة، مونتجومـري وات، تعريـب: شـعبان بـركات، منشـورات المكتبـة العصريـة، بـيروت، د ت، ص٣.

المهاجرين كانوا حرسا مناصرا له، يتقوّى بهم أمام الأنصار، ويكون السؤال: هل مئة مهاجر مكي أو يزيد بقليل يشكلون حرسا للرسول (صلى الله عليه وسلم) في بلد به قبيلتان كبيرتان: الأوس والخزرج؟ هذا وصف يستهدف فصل الصف المسلم، وإيضاح أن المهاجرين كانوا طابورا خاصا للرسول، وهو ما ينافي الواقع، فالصف المسلم كان واحدا يتعهده الرسول بالتربية الإيمانية، وتكشف الأحداث والغزوات عن معدنه. فإطلاق مثل هذا الوصف تمهيدا لما انتشر في العديد من الكتابات العلمانية عن مظلومية الأنصار، أمام انفراد المهاجرين بالقرار والزعامة.

أما إشارة «وات» إلى أن الرسول كان مُحكِّما في المدينة فهي تشكل جزءا من الدور الرائع الذي قام به الرسول في منع النزاعات بين الأوس والخزرج، التي كانت تُؤَجَج من قبل اليهود، حيث يتربحون من بيع الأسلحة لكلا الطرفين المتقاتلين، وكانت آخر المعارك بين الفريقين يوم بعاث، قبل الهجرة بثلاث سنوات، وفيه اقتتلت الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج، وكان يتزعم الأوس يومئذ حضير بن سماك الأشهلي (أبو الصحابي أسيد بن حضير)؛ وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعا[1]، وهذا لا يعني أن النزعة القبلية كانت غائبة تماما عن النفوس، بل كانت موجودة، يمكن أن تشتعل نيرانها متى وجدت عود ثقاب.

وعندما هاجر الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة، وأدَ الفتنة

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ج١، ص٥٥٥، ٥٥٦.

بدايــةً؛ بإصــدار وثيقــة المدينــة المنــورة، التــي كانــت دســتورا للحكــم والتوافــق والتعايــش بــين القبائــل والطوائــف مــن ســكان المدينــة ومــا حولهــا. وكانــت الوســيلة المثــلى هــي تعزيــز الإيــمان بــالله تعــالى، والالتــزام بالقيــم والأخــلاق والفضائــل الإســلامية، التــي جعلــت مــن الأوس والخــزرج نموذجــا مــن الألفــة يغيــظ اليهــود لمــا بينهــم مــن تــواد وتراحــم، وكيــف أن الرســول (صــلى الله عليــه وســلم) حــرص عــلى منــع أي نــوع مــن فتنــة القــول وتأجيــج الصراعــات القبليــة في النفــوس، والاعتصــام دومــا بنهــج الله، لــوأد أي إشــعال لــصراع أو تقاتــل.

ولنأخــذ مثــالا عــلى إشــعال التعصــب القبــلي؛ قصــةً رويــت في مصــادر عديــدة، وذلــك أن شــاس بــن قيــس -وكان شــيخاً يهوديــا، شــديدَ الضغــن والحقــد عــلى المســلمين، وشــديد الحســد لهــم- قــد مــرّ عــلى نفــر مــن أصحــاب رســول الله (صــلى الله عليــه وســلم) مــن الأوس والخــزرج في مجلــس قــد جمعهــم يتحدثــون فيــه، فغاظــه مــا رأى مــن أُلفتهــم وتحاببهــم، فقــال: قــد اجتمــع مــلأ بنــي قَيْلَــة -الأوس والخــزرج- بهــذه البــلاد، والله مــا لنــا معهــم إذا اجتمــع ملؤهــم بهــا مــن قــرار. ثــم أمــر فتــى شــاباً معــه مــن اليهــود، فقــال: اعمــد إليهــم، فاجلــس معهــم، ثــم ذكرهــم يــوم بُعــاث ومــا كان قبلــه، وأَنشــدْهم بعــض مــا كانــوا قالــوا فيــه مــن الأشــعار، فجاءهــم وأنشــدهم أبياتــا مــن شــعر أبي قيــس بــن الأســلت، منهــا:

على أن قد فجعت بذي حفاظ فعاودني له حزن رصين

فإما تقتلوه فإن عمرا أعض برأسه عضب سنــــين

فتكلم القوم عند ذلك، وتنازعوا، وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيّين: أوس بن قيظي، وهو رجل من بني حارثة من قبيلة الأوس، وجبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج، فقال أحدهما لصاحبه: إن شئتم والله رددناها الآن جَذَعَة (أي حربا)، وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاحَ السلاحَ .. موعدكم الحَرَّة (مكان خارج المدينة)، فخرجوا إليها، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بين قلوبكم فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس[1]، ونزل في هذا الموقف قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾[2]. والخطاب في الآية القرآنية موجه إلى الجماعة المسلمة، وبالأخص الأوس والخزرج، الذين كانوا في حالة تواصل وسماع لما يهمز به اليهود، بحكم جيرتهم في المدينة. والمعنى المقصود في الآية

---

(١) السيرة البنوية لابن هشام، ج١، ص٥٥٦. وتفسير القرطبي، ج٤، ص١٠٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية (١٠٠).

الكريمة أن سماع الإثارة من أهل التوراة والإنصات لما يأمرون به، يضل الجماعة المسلمة، ويرديهم بعد تصديقهم برسول الله، وبعد إقرارهم بما جاء به من عند ربهم، فيصبحون كافرين وجاحدين لما آمنوا به وصدقوه من الحق الذي جاءهم من عند ربهم. فقد نهاهم جل ثناؤه، أن ينتصحوا من بني يهود، ويقبلوا منهم رأيا أو مشورة، ويعلمهم تعالى ذكره أن اليهود منطوون على غل وغش وحسد وبغض[1].

تنهض القصة السابقة لتكون نموذجا على طبيعة العلاقة التي كان عليها المسلمون في المدينة المنورة، فهم كانوا صفا واحدا، يسود بينهم الحب والتآلف، ليس عن علاقة سلام ومعاهدة قد تتعرض للنقض في أي وقت، وإنما عن رابطة إيمانية سامية، يتولى غرسها ورعايتها الرسولُ (صلى الله عليه وسلم). وأن إثارة الموقف كانت عن طريق أحد اليهود: شيخ وشاب، استرجعا فيها أشعارا من يوم بعاث، على عادة القبائل في التفاخر والهجاء بالشعر، وهو ما أشعل الموقف بين الفريقين. وقد استخدم الرسول مصطلح « دعوى الجاهلية» ليواجه الفتنة ويئدها في مهدها.

ونقول للمستشرق «وات» هل كان الرسول في هذا الموقف محكّما أم هاديا؟ هل كان زعيما سياسيا أو قبليا أم رسولا مرشدا؟ وهكذا كان شأن الرسول مع الأوس والخزرج، يقودهم ويوجههم ويعلمهم بالإسلام، وبخطاب روحي سام.

(١) تفسير الطبري، ج٧، ص٥٩، ٦٠.

إن المشكلة في الفكر العلماني أنه يحكم على السيرة النبوية بوصفها امتدادا لنفس أخلاق الجاهلية وما تعاهدوا عليه، ويتناسى العلمانيون عن عمد أو يتجاهلون أو يجهلون أن الإسلام جاء بعقيدة صافية، ومنظومة أخلاقية كبرى، التزم بها المسلمون. فالعلمانيون يلحّون بشدة على أنه لا جديد أحدثه الإسلام في حياة العرب، سوى أنه جمعهم من أجل إقامة دولة كبرى، أما الجانب الروحي والأخلاقي فهو مغيب، أو ليس ذا اعتبار.

في الوقت نفسه تتنزل الآيات القرآنية حول هذا الموقف وغيره، تحذر فيه الجماعة المؤمنة من مغبة الجاهلية، وفكرها، الذي يمزق الجماعة المسلمة، ويجعلهم متناحرين متقاتلين، يتوارثون الأحقاد والثارات. وبالطبع فإن النصح القرآني المتقدم، لا يقتصر على الحادثة المذكورة، فمعلوم أن القرآن موجه لعموم المسلمين في كل زمان ومكان، غير خاص بالمهاجرين والأنصار، وغيرهم من الأعراب، فلا قيمة لأي ادعاء للفرقة.

ولا يُخفي المستشرقون انحيازهم لليهود، حيث يحلل المستشرق مونتجمري وات، علاقة الرسول باليهود من منظور سياسي، يقول «وات» عن إجلاء الرسول وحربه ضد اليهود: « إن القول بأن محمدا كان يجهل غنى اليهود تقليل من شأن ذكائه، ولكن الاعتقاد بأن هذا الغنى كان السبب الوحيد لهجمات محمد ضد اليهود هو اتخاذ موقف مادي لا مبرر له، ولاشك أن غنى اليهود كان بدون شك عونا كبيرا

لمحمد وحسّن كثيرا وضعه المالي» [1]، ولننظر في كلام وات ونتأمل، لنكتشف أنه ينفي أن يكون الهدف المادي سببا لإجلاء اليهود عن المدينة، ثم يعيد التأكيد على أن الرسول قد استفاد كثيرا من ثروة اليهود التي استولى عليها. ولا يشير إلى أن اليهود ارتكبوا ما نطلق عليه الآن «الخيانة العظمى»، حين غدروا بالرسول في غزوات عدة، وأشهرها موقفهم في غزوة الخندق. وهنا نجد أن «وات» كان متعاطفا مع القراءة الاستشراقية الغربية، فيتعاطف مع اليهود، ويتباكى على طردهم من المدينة، دون الإشارة إلى مؤامراتهم، فيما يسمى بمنهجية الإسقاط، التي تسقط العقلية الغربية على الإسلام، وعلى رسوله، وتنحاز للرؤية المسيحية اليهودية، المعادية للإسلام، على الرغم من وهم الموضوعية التي ادعاها وات في كتابه [2].

الادعاء بمظلومية الأنصار:

وهي الرؤية التي تساق في كتابات الاستشراق والعلمانية التي ترى أن الانتصار في النهاية والفوز بالمناصب وقيادة الدولة كان من نصيب المهاجرين وأهل مكة، وأن الأنصار تم استبعادهم من السلطة، باستغلال الطبيعة العاطفية للأنصار من أجل إقصائهم عن دائرة الحكم والخلافة، وجعل الأمر بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) مقتصرا على المهاجرين المكيين، ولا عزاء للأنصار في ذلك.

وتبدأ المظلومية بأكذوبة أن « التحفظ كان سائدا في علاقة محمد

(١) محمد في المدينة، ص٣٣٥.

(٢) الاستشراق في السيرة النوية، ص٤١، ٤٢.

بالأنصار عموما، بمن فيهم الخزرج أخواله، إذ ظلت الهيمنة العسكرية مقتصرة على المهاجرين المكيين فقط، لكن الأهم أن انعدام المشاركة يعبر عن تردد عقائدي وتحديد ضيق لمفهوم النصرة، لا يتصادم مع السياسات المكية، وينحصر بالبيئة اليثربية، لكن عند هذا الحد، ينبغي التدقيق في يثرب أو الموطن الجديد للرسول ولرسالته» [1].

منبع الأكذوبة في الكلام السابق، أن الكاتب يرى أن هناك تحفظا في علاقة الرسول مع الأنصار، دون أي سند مروي في أسباب هذا التحفظ أو مظاهره، أو حادثة واحدة تعبر عنه. والمقصود بالتحفظ هنا، وحسب المفهوم من السياق، هو: خشية الرسول من الثقة الكاملة في الأنصار، ووضع ثقته في المهاجرين فقط. مما يعني أن الأنصار كانوا محل شك دائم من قبل الرسول؛ دون ذكر سبب واضح من الكاتب، وإنما الهدف إظهار الرسول منحازا بشكل كامل إلى القرشيين المكيين الذين هاجروا معه، أي تشويه موقف الرسول وعواطفه وعدالته ومساواته المعلنة لأفراد الصف المسلم. وهذا إن لاحظه الأنصار – ولابد أن يلاحظ – كفيل بأن يدفعهم لرفع نصرتهم عن الرسول والمهاجرين. لذا، نؤكد أنها أكذوبة، وأننا أوردناها، لنعرف كيف ينظر هؤلاء، وكيف يدسّون في صياغة كلامهم تعبيرات، تتوخى تحليل منهجي، وتطعن في شخص الرسول والدعوة والإسلام، وتكون المحصلة كلها تشويه.

أيضا، يذكر الكاتب أن المهمة العسكرية كانت مقتصرة على المهاجرين، وتلك أكذوبة أخرى، بل كارثة علمية، لأن جيش الرسول

(١) السلطة والمعارضة في الإسلام، ص٢٧.

(صلى الله عليه وسلم) كان مؤلّفا دائما من المهاجرين والأنصار، والكاتب السابق يذكر في الهامش لرأيه المذكور أن غزوة بدر كان فيها (١٧٠) رجلا من الخزرج، و(٦١) من الأنصار، وأن هذا العدد ذكره الطبري في تاريخه، وحسب الإحصائية المذكورة من قبل الكاتب، فإن هذا في مصلحة الأنصار، فالأغلبية للأنصار، بمعنى أن عدد المسلمين في غزوة بدر كان (٣١٣) رجلا، فكيف يكون الأنصار بلا دور عسكري كما يقول الكاتب.

ولننظر إلى وقائع الغزوة ذاتها، وفي تاريخ الطبري نفسه، فإن المهاجرين والأنصار تسابقوا معا إلى الجهاد، ففي بداية أحداث الغزوة، وفق ما يرويه الطبري، «برز عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة بن ربيعة، وابنه الوليد، حميةً، فقالوا: من يبارز؟ فخرج فتية من الأنصار ستة، فقال عتبة: لا نريد هؤلاء، ولكن يبارزنا من بني عمنا من بني عبد المطلب، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): يا علي قمْ. يا حمزة قم. يا عبيدة بن الحارث، قم. فقُتل الله عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وجرح عبيدة بن الحارث، فقتلنا منهم سبعين، وأسرنا منهم سبعين. قال: فجاء رجل من الأنصار قصير، بالعباس بن عبد المطلب أسيرا، فقال: يا رسول الله، والله ما هذا أسرني، ولكن أسرني رجل أجلح من أحسن الناس وجها، على فرس أبلق ما أراه في القوم . فقال الأنصاري: أنا أسرته، فقال رسول الله، (صلى الله عليه وسلم): لقد آزرك الله بملك كريم، قال علي: فأسرَ

من بني عبد المطلب: العباس، وعقيل ونوفل بن الحارث»[1].

وليت الكاتب المذكور قد قرأ أحداث الغزوة كاملة، ليعلم الرد على ما يقول، فالموقف السابق دليل على أن المتقدم في المبارزة كان الأنصار، ولكن مشركي مكة طلبوا أن يبارزهم أبناء العم من المهاجرين، فتقدم كل من: علي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث، فقتلوا من بارزوهم من المشركين. ثم يأتي أحد الأنصار آسرًا عم النبي (صلى الله عليه وسلم) العباس بن عبد المطلب، وندرك من طيات الخبر أن الذي أسره كان ملَك من الملائكة، هكذا رآه العباس، وهكذا أقره الرسول.

فلا دعوى ولا منطق ولا دليل لما ذكره الكاتب، وإنما هي فرية أطلقها، وصدقها، وبنى كتابه كله عليها، وتلك مشكلة القناعة المسبقة عندما تريد لَيّ أعناق النصوص، وتحريف حوادث التاريخ، وتجاهل الأدلة والردود والوقائع.

أيضا، ينبري الكاتب «خليل عبد الكريم» ليحلل نفسية الأنصار، ويرى « أن سكناهم مع اليهود في المدينة؛ أعطتهم فكرة واضحة عن نظرية النبوة والحياة الآخرة والبعث والنشور والحساب والجزاء من الله تعالى، لمن يعمل صالحا ويجاهد في سبيله، وذلك كله دون غيرهم من القبائل. إذًا الأوس والخزرج (الأنصار) نظروا في مسألة نصرهم للرسول (عليه الصلاة والسلام) نظرة دينية أساسها العاطفة، أما منظور الحكم والسياسة والإمارة والإدارة وما إليها، فلم يخطر لهم على

(١) تاريخ الأمم والملوك، الطبري، ذكر وقعة بدر الكبرى،٣٥٤.

بـال.. فقـد كانـوا يتمتعـون بشـخصية عاطفيـة..، أمـا المكيـون والقرشـيون فكانـوا يتمتعـون بشـخصية موضوعيـة أو طبيعيـة وهـي التـي يتملـك صاحبهـا خصائـص يسـتطيع توجيههـا بشـكل متـوازن نحـو تحقيـق هـدف حيـاتي. والهـدف عنـد صناديـد قريـش الـذي عـادوا محمـدا كان هـو كسـب الأمـوال، واكتنازهـا والعيـش في بلهنيـة»[1]، أي في سـعة مـن العيـش.

الـكلام السـابق يدّعـي صاحبـه في مقدمـة كتابـه أنـه « مكتـوب كتابـة موضوعيـة، بعيـدة عـن الحواجـب التـي تحجـب العقـل، مثـل العواطـف الفجـة والأسـاطير واللاماورائيـات»[2].

والمقصـود مـن الكتابـة الموضوعيـة، هـي الكتابـة التـي تحلـل الأمـور بشـكل عقـلاني موضوعـي بعيـدا عـن العاطفـة الدينية كـما أشـار، وإن كنا لا نـدري مقصـده بالأسـاطير واللاماورائيـات، عـلى وجـه التحديـد، ونرجـو ألا يعنـي بهـا أن الإسـلام مـا هـو إلا طائفـة أسـاطير مـن المخيلـة العربيـة، التـي يـرى المستشرقون أنهـا كونـت الإسـلام، وأنـه مجـرد تركيـب ملفـق مـن المسـيحية واليهوديـة والمجوسـية، وأن الرسـول اسـتفاد مـن المـيراث النـصراني، مـن خـلال ورقـة بـن نوفـل في مكـة، ثـم محاوراتـه مـع اليهـود في المدينـة[3]، وأن مشـكلة المسـلمين - كـما يـرى الكاتـب خليـل - أنهـم قـرأوا الإسـلام وفـق عاطفتهـم الدينيـة المنحـازة إليـه، وبالطبـع هـو غـير منتبـه وغـير ذاكـر كيـف أن المستشرقين مثّلـوا قمـة الانحيـاز والتعصـب الأعمـى

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم، ص٢٧٠.
(٢) المرجع السابق، ص٧.
(٣) الاستشراق في السيرة النبوية، ص٢٨.

للمسيحية واليهودية، وأنهم تحت بند الموضوعية والمنهجية العلمية، قاسوا الإسلام على الديانتين، ورأوا أن كل ما في الإسلام [1] إنما هو سطو على الكتب المقدسة في المسيحية واليهودية.

وتبدو المشكلة أكثر، عندما يقرأون أحداث السيرة النبوية، ويريدون فهمها وفق المقاييس العقلانية، وهو ما يستحيل قطعا وعقلا، ذلك أن السيرة النبوية أساسها ديني، وتمت أحداثها بتوجيه رباني، بل إن الآيات القرآنية كانت تتنزل مواكبة للأحداث، هادية مرشدة للجماعة المؤمنة في مكة أو المدينة أو غيرها. ومعنى هذا لا يمكن إخضاع سيرة نبي مرسل وفق عقلية مادية تفترض جدلا نزع البعد الديني عن السيرة والصحابة. وهو ما يبدو في كتابات « خليل » الذي اتبع «منهجية العكس»، وهو أنه يورد معلومات تاريخية صحيحة، ولكنه يستخدمها من أجل إثبات عكس المراد بها[2]، فلاشك أن الأنصار أهل عاطفة، وأنهم مطبوعون على الرقة واللين، وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق، وهذا عائد إلى أنهم في الأساس قبائل يمنية، هاجرت بعد سد مأرب، وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن اليمنيين بشكل عام وكل القبائل التي خرجت من بلادهم: » أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا، الإيمان يمان، والحكمة يمنية، والفخر والخير في أصحاب الإبل، والسكينة الوقار في أهل الغنم»[3].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩، ٣٠.

(٢) الاستشراق في السيرة النبوية، ص٣٤.

(٣) صحيح البخاري، ص١٠٧٤، رقم الحديث٤٣٨٨.

فهم أكثر لينة لقبول النصيحة والموعظة من قلوب سائر الناس بحسب الظاهر. وجاء وصف الأفئدة بالرقة والقلوب باللين، لأنه يقال إن الفؤاد غشاء القلب إذا رق نفذ القول فيه، وخلص إلى ما وراءه، وإذا غلظ تعذر وصوله إلى داخله، فإذا صادف القلب لينا علق به ونجع فيه، فإن صفاء القلب ورقته ولين جوهره يؤدي به إلى عرفان الحق والتصدي به، وهو الإيمان والانقياد لما يوجبه ويقتضيه، التيقظ والاتقاء فيما يأتيه ويذره وهو الحكمة، فتكون قلوبهم معادن الإيمان وينابيع الحكمة، وهي قلوب منشؤها اليمن نسب إليه الإيمان والحكمة معا لانتسابها إليه تنويها بذكرهما وتعظيما لشأنهما[1].

وكما نعتهم الله تعالى ﴿الذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[2].

فهذه الآية تعدد سمات الأنصار، فقد أسلموا في ديارهم وآثروا الإيمان وابتنوا المساجد قبل قدوم النبي (صلى الله عليه وسلم) بسنتين، ولا يحملون في أنفسهم حزازة وغيظا وحسدا مما أعطى المهاجرين دونهم من الفيء، وقد آثروا إخوانهم المهاجرين بهذا العطاء، مثلما آثروهم من قبل بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم وإن عانوا فاقة

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، كتاب المناقب والفضائل، باب ذكر اليمن والشام، شرح الحديث ٦٢٦٧، ج٩، ص٢٤٣٦.

(٢) سورة الحشر، الآية (٩).

وحاجة. حيث قسم رسول الله أموال بني النضير بين المهاجرين ولم يعط منها الأنصار، فطابت أنفس الأنصار، قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم النضير للأنصار: » إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وتشاركونهم في هذه الغنيمة وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة « فقالت الأنصار: بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها[1].

ذلك أن المهاجرين كانوا قد خرجوا من مكة، وتركوا أموالهم وممتلكاتهم فيها، فكانت سياسة الرسول تعويض المهاجرين ومساعدتهم من فيء بني النضير. والموقف دال على قيمة الإيثار العليا، التي كان عليها الأنصار، وتلك طبيعة في نفسيتهم بشكل عام، وقد شاء الله أن يجد رسوله (صلى الله عليه وسلم) الإيمان والنصرة من الأوس والخزرج، لأن شخصيتهم الجمعية تميل إلى المحبة والطيبة وحسن المعاملة، بعكس ما نجده لدى قبائل أخرى، يغلب عليها الخيلاء والافتخار. الشاهد فيما سبق أن لينهم ورقتهم، لا تعني ضعفهم أو أنهم يمكن سياسيا استغلالهم بأي شكل، كما يسوق الكاتب خليل عبد الكريم، وينظر إلى أهل مكة على أنهم شخصيات موضوعية، تغلب عليها النفعية والمادية. وهذه تقسيمة قد تكون لها جزء من الواقع، ولكن الهدف من كلامه نزع البعد العقدي والروحي الذي

(١) معالم التنزيل، الحسين بن مسعود البغوي (تفسير البغوي)، تحقيق: محمد عبد الله العمر، عثمان جمعة، شليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر، الرياض، د ت، ج٨، ص٧٧.

غلّـف القلـوب، وجعـل منهـا كلهـا جنـودا في سـبيل الله، يضحـون بأنفسـهم وأموالهـم ودمائهـم، وقـد كان أعظـم القـادة الفاتحـين مـن أهـل مكـة الذيـن في نظـر الكاتـب طـلاب دنيـا ومـال وجـاه ورفاهيـة، وطالـب الدنيـا لـن يضحـي بنفسـه ومالـه في سـبيل الدعـوة، وإنـما يمكـن القـول إن الإسـلام صهـر هـذه النفـوس، وجعلهـا في خدمـة الدعـوة، مجاهـدةً، متفانيـة، ووقائـع التاريـخ شـاهدة.

فالكاتـب المذكـور، يريـد مـن منهجيـة العكـس - التـي اسـتخدمها، وسـاق معلومـات بهـا قـدر مـن الصحـة- التركيـز عـلى الدنيـا، ومحـو الأبعـاد الروحانيـة، ليصـل إلى النتيجـة التـي يلـحّ عليهـا المسـتشرقون مـن قبلـه، وهـو أيضـا يرومهـا في هـذا الكتـاب، وهـي أن الإسـلام تـم اسـتغلاله مـن قبـل قريـش، لبنـاء دولـة عربيـة كـبرى، وبذلـك أصبـح الإسـلام مجـرد مطيـة لأهـداف سياسـية، وأن الإسـلام لا دور لـه في تهذيـب النفـوس، ولا تربيتهـا عـلى العقيـدة والقيـم، وهـذا مـا حملـه عنـوان كتابـه: «قريـش مـن القبيلـة إلى الدولـة المركزيـة»، لنـدرك أنهـا قـراءة مسـبوقة بقناعـة واحـدة، مفادهـا: أن التاريـخ الإسـلامي مؤامـرة ذكيـة مـن قبـل القرشـيين، ولا أكثر مـن ذلـك. وما الأنصار إلا وسـيلة، مجرد وسـيلة، نـصروا الرسـول وآووه ولم ينالـوا شـيئا، وهـو مـا أبانـه بقولـه: « وهكـذا في لحظـة تاريخيـة نـادرة، التقى محمـد (صـلى الله عليـه وسـلم) الأوس والخـزرج (الأنصـار)، بـما لديهـم مـن مـزاج نفـسي وظـروف موضوعيـة، لتتكامـل شروط النـماء والازدهـار لدولـة قريـش في يثـرب»[1]. فالخطـاب المسـتخدم مـن الكاتـب هـو خطـاب

(1) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، ص٢٧٩.

دنيـويّ في مفرداتـه، مرتبـط بالإنسـان والزمـن والسياسـة، ويبعـد تماما البعـد الروحـاني الإلهـي، الـذي لا يمكـن فهـم السـيرة النبويـة، وأحداثهـا بـدون العـودة إليـه، والمتمثـل في الآيـات القرآنيـة المنزلـة، والأحاديـث النبويـة الشريفـة، وهـذا كلـه غائـب عـن قلـم الكاتـب، ونظرتـه، وتقييمـه.

وتلـك مشـكلة محوريـة في الكتابـة العلمانية والاستشراقية عامـة، ألا وهي تنحيـة البعـد الإلهـي والروحـاني، وقـراءة الهجـرة والشـخصيات والتاريـخ قـراءة ماديـة بحتـة، وللعلـم فإنهـم يتعاملـون مـع التاريـخ اليهـودي والمسـيحي بمنظـور روحـاني عقـدي[1]، بـما يعنـي أن الإسـلام ليـس دينـا معتـبرا لديهـم، وإنـما المعتـبر عندهـم همـا ديانتـا النصرانيـة واليهوديـة.

« فالإسـلام لا قيمـة لـه عندهـم، والنظـرة (الاستشراقية/ العلمانيـة) تجـاه النبـي ودعوتـه مجـردة مـن عنـصر الإيـمان، وقائمـة عـلى التشـكيك في دعوتهـا ذاتهـا» [2]. وهـو مـا يمكـن تلمّسـه في جـلّ الكتابـات العلمانيـة، والمثـال عـلى ذلـك ما يذكـره الكاتـب خليـل عبـد الكريـم في تحليله لما غنمه الرسـول والمسـلمون مـن هـذه الغـزوة، حيـث أفـاء الله مغانـم كثـيرة: مـن السـبي سـتة آلاف رأس، والإبـل أربعـة وعشريـن ألفـا، والغنـم أربعـين ألـف شـاة، وأربعـة آلاف أوقيـة مـن الفضـة. « فبـدأت الآفـاق تتفتـح أمـام دولـة قريـش في يثـرب، للسـيطرة عـلى الجزيـرة العربيـة، وكانـت البراعـة السياسـية وسـعة الأفـق تحتـمان تأليـف قلـوب الخصـوم السـابقين واسـترضاءهم، ومـد البـصر إلى الأمـام باسـتمالة شـيوخ القبائـل الأخـرى،

(١) الاستشراق في السيرة النبوية، ص١٩-٢١.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٩.

وهـم أنصـار المستقبل حتـى يتوافقـوا مـع طموحـات دولـة قريـش الفتيـة في يثـرب»[1] فأعطـى الرسـول المؤلفـة قلوبهـم، وأعطـى شـيوخ القبائـل، ووجهاءهـا، ولم يعـط الأنصـار شـيئا. ويـبرر ذلـك بقولـه عن غبـن الأنصار أو بـالأدق سـذاجتهم بأنهـم « لم يفطنـوا إلى أنـه في أمـور السياسـة وشـؤون الحكـم، لـكل فريـق دوره المحـدد الـذي يجـب أن يقـف عنـده ولا يتعـداه، وأن الـدور آنـذاك كان للمؤلفـة قلوبهـم، سـواء مـن أعـداء الأمـس أو مـن مؤيـدي الغـد، أو مـن يرجـح أن يصبحـوا كذلـك»[2]. التحليـل سـياسي تـام، وينسـى الجانـب الروحـاني، الـذي دفـع الرسـول إلى اسـتمالة زعـماء القبائـل، الذيـن اعتـادوا عـلى العطـاء في مقابـل الـولاء، وكانـوا لا يزالـون حديثـي العهـد في الإسـلام، ولـذا، تـم نعتهـم قرآنيـا بالمؤلفـة قلوبهـم، لأنهـم لا يزالـون في المرحلـة الأولى مـن الإيـمان، ويمكـن ارتدادهـم في أي وقـت، وهـو مـا حـدث بعـد ذلـك، في حـروب الـردة، وسـاعتها لم يقـدم لهـم أبـو بكـر العطـاء، وإنـما واجههـم بالسـلاح، فزمـن العطـاء وتأليـف القلـوب قـد ولّى، وجـاء دور الانقيـاد السـياسي، والطاعـة للدولـة المركزيـة في المدينـة المنـورة.

الفكـرة المركزيـة التـي يقـرأ بهـا الكاتـب «خليـل» السـيرة النبويـة عامـة والهجـرة ومـا بعدهـا خاصـة، هـي فكـرة تآمـر قريـش ومخططهـا السـياسي، ونلاحـظ أنـه يفـسر سـلوكيات الرسـول (عليـه الصـلاة والسـلام) بأنـه يتعامـل بمنطـق نفعـي ودنيـوي فقـط، وينسـى أن الرسـول وإن أعطـى

(١) قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، ص٢٧٧، ٢٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧٨.

عطاء الدنيا، إلا أن عينه كانت على الأفئدة لتأليفها واكتسابها للدين والآخرة والدولة، ولكن هذا ما لا يدركه الكاتب، الذي قاتل طيلة صفحات كتابه من أجل موضوعية منهجيته، التي تدور في تبرير أفكار مسبقة لا أساس لها.

وهذا تأكيد واضح على نزعته، التي يدّعي أنها موضوعية، وينسى أو يتناسى الكاتب أن هناك شخصيات كثيرة من الأنصار نالوا المناصب والقيادات في الدولة الإسلامية، وإذا كان الخلفاء الراشدون من المهاجرين المكيين؛ فهذا لفضلهم وتميزهم العلمي والقيادي والخلقي، وكانت حقبة الخلافة الراشدة هي الحقبة المؤسسة للدولة الإسلامية، في تثبيت دعائمها، ثم تمددها في البلدان، وحتى الدولة الأموية، التي تعود إلى بني أمية من قريش، فلأنهم كانوا خلفاء وقادة أفذاذا؛ واصلوا سياسة الفتوحات، وتكوين مؤسسات الدولة الإسلامية، وتعريب الدواوين، ونشر الإسلام في الأرض، وإن بدأ المُلك العضود معهم، فلأن النفوس كانت قد تغيرت بعض الشيء، وانتشرت فرق ومذاهب تقاتل من أجل السلطة والخلافة، مما يُصعب فكرة الانتخاب.

وتستمر النظرة العلمانية في التركيز على مظلومية الأنصار، فيذكرون: أن الأنصار قد تضرروا من جراء هذا التحالف الجديد الذي جري قبيل فتح مكة، والرواية الإسلامية تعبر عن هذا الضرر، فيما تنسبه للأنصار من تذمر، من ميل الرسول لقريش وتعصبه لها، وفي اعتقادنا

أن عنصرين منفصلين يختلطان في عملية التذمر تلك، الأول منافسة المدينة لمكة التي تحولت إلى المركز الروحي الجديد للإسلام، والثاني ثورات أهل المدينة وتمرداتهم على الأمويين، التي اتهموا خلالها بالميل إلى الشيعة العلوية أو بوجود دوافع يهودية وراءها[1].

والمقصود بالتحالف هو صلح الحديبية بين الرسول وقريش، الذي نقضته قريش، فكان سببا في فتح الرسول لمكة المكرمة، ويركزون على أن الأنصار لاحظوا انحياز الرسول للمهاجرين القرشيين على حسابهم، ثم غيرتهم بعد فتح مكة بوصفها منافسا روحيا للمدينة. وكل هذا الكلام دال على التعامل السطحي، والجهل الشديد بتفصيلات السيرة النبوية وأحداثها، وقد تعرضنا تفصيلا من قبل لما أثاره المنافقون وضعاف النفوس من الأنصار حول مواقف الرسول منهم، ولكن نرد على ما ذكره الكاتب بتكرار حقيقة تاريخية لا جدال فيها، وهي أن المدينة المنورة كانت عاصمة لدولة الإسلام طيلة عهد الرسول ثم في عهد الخلفاء الراشدين، أما مكة المكرمة، فقد اكتسبت مكانتها الكبرى نظرا لأن بها المسجد الحرام، ومناسك الحج والعمرة، ولأنها أيضا مهد الدعوة الإسلامية. ولو شاء الرسول لعاد إليها ثانية، ولكنه كان محبا للمدينة وأهلها، فأنشأ فيها مسجده، الذي هو الحرم الثاني عند المسلمين، وإليه تشد الرحال مع الحرم المكي والحرم القدسي، كما نالت المدينة شرف دفن الرسول في مسجده، وكذلك دفن في مقبرة البقيع كبار الصحابة المهاجرين من مكة.

---

(١)) مقدمة في التاريخ الآخر: نحو قراءة جديدة للرواية الإسلامية، ص١٩٣، ١٩٤.

وفي نهاية هذا المبحث، يمكن أن نصل إلى أن مفهوم الهجرة في المنظور الاستشراقي والعلماني قد تمت قراءته من زوايا عديدة، الزاوية الأولى: زاوية التوطين في أرض جديدة للمهاجرين، لدواع مادية وأمنية. الزاوية الثانية: أنها كانت محطة من أجل تثبيت دعائم الدولة المسلمة، التي سعى الرسول وصحابته المهاجرون القرشيون لتأسيسها، من أجل لمّ شمل العرب، وتكوين امبراطورية كبرى. الزاوية الثالثة: أن الرسول كان براغماتيا/ نفعيا/ سياسيا في تعامله مع الأنصار من ناحية، ومع المكيين القرشيين من ناحية أخرى، ومع عموم الأعراب والمسلمين الجدد من ناحية ثالثة، وكان غرضه من الهجرة ومن غزواته ومن عطاءاته هدف دنيوي نفعي، من أجل تكوين دولة لها كيان راسخ، يقودها القرشيون، ويستغلون فيها الإسلام. الزاوية الرابعة: مظلومية الأنصار، وأنهم تعرضوا للغبن والتجاهل من الرسول ثم من المهاجرين ثم القرشيين بعد ذلك. وكل هذه الزوايا يغيب عنها البعد الروحاني الرباني، ونكتشف في النهاية أنها مجرد قراءة سياسية، تتعامل مع الرسول بوصفه قائدا وسياسيا ماهرا، وليس رسولا موحى إليه، من الله سبحانه وتعالى.

المبحث الثاني

قضايا الهجرة في عالمنا اليوم

منظور فقهي

الهجرة إشكالية معاصرة:

بـات مصطلـح الهجـرة Immigration في واقعنـا المعـاصر؛ مشـكّلا لعلامة سـيميائية فكريـة وثقافيـة، وأيضـا لهـا دلالاتهـا السياسـية والاجتماعيـة، ذلك أن الهجـرة لم تعـد شـأنا فرديـا محـدودا كـما كان في المـاضي القريـب، بـل أصبحـت حـراكا اجتماعيـا وسـكانيا كبـيرا، وهـي تبـدأ بالهجـرة الداخليـة داخـل الوطـن الواحـد، مثـل الهجـرة مـن الريـف إلى المدينـة، بآثارهـا الديموغرافيـة والاجتماعيـة في نطـاق حـدود الدولـة، ومـا ترتـب عليهـا مـن آثـار، ممثلـة في أحزمـة الفقـر حـول المـدن الكـبرى، وازديـاد الأحيـاء العشـوائية، وقلـة الأيـدي العاملـة في الزراعـة، ومـا أحدثتـه مـن ظاهـرة ترييـف المـدن، بمعنـى أن المـدن سـادت فيهـا مشـكلات القريـة في الخدمـات والوعـي، بجانـب التكـدس والتزاحـم، نتيجـة الهجـرات المتتابعـة مـن أهـل الريـف بتقاليدهـم وعاداتهـم وأفـكارهم، ممـا أدى إلى تغييـب المسـتهدف وهـو تحديـث الريـف وتمدينـه، الـذي يعنـي رقيـه وتقدمـه، وإيجـاد فـرص عمـل لأهلـه، وتوفـير الحيـاة الكريمـة لهـم والخدمـات الصحيـة والتعليميـة لهـم.

أمـا الهجـرة الخارجيـة، التـي تكـون مـن دولـة إلى أخـرى، فإنهـا باتـت ظاهـرة العـصر، نراهـا عـلى الشاشـات، وتأتينـا أخبارهـا ليـلا ونهـارا، عـبر قـوارب المـوت، التـي تئـن وقـد تغـرق بمـن عليهـا، وهـي تحمـل أفـرادا

أو أسرا كاملة: نساء وأطفالا ورجالا، والكل يحلم بحياة كريمة في الأقطار الأوروبية أو الأمريكية، وربما تكون نهايتهم أن يكونوا غرقى في قاعات البحار، أو أسرى في مراكز الاحتجاز، أو موتى جوعا وعطشا وهم يعبرون الصحاري الشاسعة أو الغابات الثلجية، وربما ينجحون في الوصول إلى دول الشمال الغني من الكرة الأرضية، حيث ينعمون بأساسيات الحياة، ثم يحصلون على فرص عمل، ويتجنسون، ويتناسلون، ويفرضون واقعا جديدا. وهو ما حدث بالفعل، ونراه ماثلا من خلال ملايين المهاجرين في شوارع بلاد المهجر، بسحناتهم الملونة، وملامح وجوههم الدالة على أصولهم الإفريقية أو العربية أو الآسيوية، مما جعل الواقع السكاني في الغرب مختلفا عما كان منذ خمسة أو ستة عقود، حيث كان الوافدون إلى أوروبا قلة قليلة يأتون من خلال هجرة شرعية بإقامة قانونية إما طلابا مبتعثين للدراسة، أو نخبة علمية تأتي للعمل والعيش في أوروبا، في حين أن الواقع الحالي ينبئ أن كثيرا من المهاجرين يفدون من بلدان مختلفة مع ضعف مستوياتهم التعليمية. لذا، يمتهنون مِهنًا وضيعة، وقد يسقطون ضحايا لعصابات المافيا، وإن كان منهم مَن هم أصحاب الكفاءات، وحاملو الشهادات، والراغبون في مواصلة دراساتهم العليا، أو البحث عن وظائف تناسب مؤهلاتهم التعليمية، وهم في جميع الأحوال يشكلون عبئا أمنيا واقتصاديا على أوروبا، وفي جميع الأحوال يجدون في بلدان المهجر ملاذا من الفقر والعوز، وأمانا من المرض والفاقة، وتعليما

مجانيا، ثم فرص عمل، وكل هذا يشعرهم بإنسانيتهم التي أُهدِرَت في أوطانهم، فيتمسكون بالإقامة، مما أدى إلى ظهور جيلين أو ثلاثة، لا يعرفون عن أوطان آبائهم إلا ذكريات تروى، وقد تناءت المسافات، وتقطعت الأواصر، فبات المهجر وطنا، وأصبح الوطن ذكرى.

وتكمن المشكلة في أن هؤلاء المهاجرين ليسوا كتلا صماء من البشر، وإنما هم هويات مختلفة عن سكان بلاد المهجر الأصليين، في الدين واللغة والثقافة، كما أنهم يأتون ومعهم مشكلات بلادهم، وسرعان ما يندمجون في المجتمع، خاصة في الدول المستقبلة والمرحبة بالعمال الأجانب، مثل ألمانيا، والدول الإسكندنافية، وكندا واستراليا ونيوزلندا وغيرها، حيث يحصلون على إقامة شرعية تمهيدا للحصول على جنسية الدولة، ومن ثم يكونون جزءا من دافعي الضرائب، الذين يطالبون بحقوق متساوية مثل السكان الأصليين، ومن هذه الحقوق الاعتراف بهوياتهم وثقافتهم ضمن مبادئ المجتمعات الأوروبية التي تحترم الثقافات، وهو ما حدث بالفعل، ولكن ظهرت مشكلات أخرى، من قبل السكان الأصليين، الذين رأوا ثقافة بلادهم تضمحل وتسود فيها ثقافات أخرى، وأصبح تراث الغرب وقناعاته ونظرته إلى العالم الخارجي مهددة في عقر داره، بعد أن كانت أوروبا الكولونيالية(الاستعمارية) تغزو أقطار العالم، تحت شعارات التمدين والعمران ونشر رسالة الرجل الأبيض، ومعها أيضا المبشرون بالنصرانية، بات الأمر الآن معاكسا، سكان دول العالم الفقير

والجاهل والمتأخر حضاريا يحتل بلادهم، ويتمتع بكافة حقوقهم، بل ويتفوق ويزاحم أبناءهم علميا وتقنيا وإبداعيا؛ مما أثار ويثير وسيثير إشكالات وأزمات كثر، تبدأ بالهوية والثقافة، وتمر بالسياسة والأحزاب، وقد تنتهي بالإقصاء أو العنف. وهذا ما نتناوله في هذا المبحث، حيث سنعرض الظاهرة، ونطرح الإشكالية، ونناقشها، من منظورنا الإسلامي، الذي هو أساس هويتنا.

فقه المهجر والمهاجرين:

قدّم الإسلام رؤية متكاملة عن الهجرة عقيدة وفقها وأحكاما وواقعا وتاريخا، مما ساهم في تقديم قراءة إسلامية معاصرة لقضايا الهجرة في عالمنا اليوم، التي تتخذ أبعادا متنوعة، ما بين الهجرة الشرعية وغير الشرعية، والجدل الكبير الناتج عنهما، بحكم تأثيرهما الثقافي والديموغرافي في الدول المستقبلة للمهاجرين، وفيما فجرته من قضايا وإشكالات وواقع جديد، وهو ما استلزم الكثير من البحوث والدراسات.

وقد أورد القرطبي كلاما غاية في العمق، حول دلالة الهجرة في الأرض، الواردة في تفسيره لإحدى الآيات القرآنية[1]، مما يدفعنا إلى التوقف عنده بالشرح والتحليل من جانبنا، لأنه يحمل الرؤية الإسلامية حول الموقف من الهجرة والتنقل في الأرض، وبها يمكننا تأسيس تصور كلي، للمنظور الإسلامي للهجرة، حيث أوضح القرطبي أن العلماء -رضي الله عنهم-

---

(١) تفسير القرطبي، ج٥، ص٢٩٩. والكلام منسوب لابن العربي. وذلك في تفسيره للآية: وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً.

قسموا الذهاب (الهجرة) في الأرض قسمين: هربا وطلبا». وهو تقسيم أساسه الغاية من الهجرة، التي حُصِرت في أمرين، الأول يتعلق بالهروب، والثاني بالطلب، فالأول يعطي معنى أن هناك ظروفا أو أقواما أو عوامل خارجية عن المؤمن تدفعه دفعا للهجرة. أما الثاني المتعلق بالطلب، فهي عوامل ذاتية داخلية، في أعماق المرء، دون أية ضغوط خارجية. وبالطبع قد يجتمع الاثنان، على الرغم من تضادهما الظاهري، ذلك أن العوامل الخارجية تؤدي إلى تكوين دوافع ومسوغات ذاتية في نفس المؤمن، تدفعه لأن يضرب في الأرض، ويمكن أن يكون الدافع الذاتي الداخلي، مؤديا إلى أن يتخذ الآخرون من المؤمن موقفا، حيث يرونه متمردا على معتقدهم، وما درجوا عليه من قناعات، فيدفعونه إلى الهجرة. وبعبارة أوجز: فإن الهرب والطلب، قد يفترقان، وقد يجتمعان، حسب حالة كل إنسان، والكلام هنا ينصرف بالدرجة الأولى إلى المؤمنين، ذلك أن الهجرة سمة إنسانية عامة في حياة الشعوب والأفراد، وقد تكون اضطرارية لعوامل الخوف والجدب والكوارث الطبيعية أو اختيارية من قبل الفرد سعيا وراء المزيد من الرزق، أو ارتباطا بدوافع تخص الفرد نفسه، وهناك نظريات عديدة في تفسير الهجرة، منطلقاتها مادية تنظر في الظروف والعوامل الطبيعية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكلها من المنظور الغربي، علماني التوجه، فلا تتطرق إلى الأبعاد الروحية والعقدية[1].

وفي العموم، فإن الهجرة جزء من الحركة الإنسانية على سطح

(١) مفاهيم نظرية في الهجرة السكانية: دراسة تحليلية مقارنة، هاشم نعمة فياض، مجلة عمران، المركز العربي للأبحاث والسياسات، الدوحة، قطر، العدد ٢٦، خريف ٢٠١٨م، ص٨.

الأرض بشكل عام، منذ أقدم العصور التاريخية، ولا يمكن تخيل قطر أو إقليم بدون هجرات لحقته، فهي فعل إنساني، ولكن الغاية هنا أن نقصر الحديث على المنظور القرآني، الذي يتوجه بالخطاب إلى جماعة المؤمنين، ويحدد موجبات الهجرة بالنسبة إليهم.

ثم يفصل القرطبي قضية الهجرة ناظرا إلى أنواعها، حيث يذكر بأن النوع « الأول (الهرب) ينقسم إلى ستة أقسام: الأول: الهجرة وهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام، وكانت فرضا في أيام النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهذه الهجرة باقية مفروضة إلى يوم القيامة، التي انقطعت بالفتح هي القصد إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) حيث كان؛ فإن بقي في دار الحرب عصى؛ ويختلف في حاله».

وسنجد أن الإشارة هنا بالوجوب بالهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام، وهي الدار التي تظهر وتعلن فيها أحكام الإسلام، والمقصود منها تحقيق الأمان للمسلمين، بما يجعلهم مقيمين لشعائر إسلامهم، وفيها أيضا تطبيق لأحكام الإسلام. ويضادها في المفهوم دار الكفر، وهي الدار التي يتحقق فيها الأمن للكافر، والخوف للمؤمن، وتصبح دار الكفر دارَ إسلام بإعلان أحكام الإسلام فيها[1]. ولذا، فإن دار الإسلام هي اسم للموضع الذي يكون تحت يد المسلمين، وعلامة ذلك أن يأمن فيه المسلمون[2]، وهي أيضا الدار التي يعيش

(١) بدائع الصنائع، أبو بكر بن مسعود الكاساني الحنفي، تحقيق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، ج٧، ص١٣٠، ١٣١.
(٢) المبسوط، للإمام شمس الدين بن أحمد السرخسي، دار المعرفة، بيروت، د ت، ج١٠، ص٦٢.

فيهـا المسـلمون والذميـون بأمـان[1].

أمـا دار الحـرب فهـي كـما يقـول السرخـسي: ليسـت بـدار أحـكام، ولكـن دار قهـر، فباختـلاف المنعـة والملـك، تختلـف الـدار فيـما بينهـم، وبتبايـن الـدار ينقطـع التـوارث بينهـم[2]. ويوضحهـا أكثـر عبـد الوهـاب خـلاف بأنهـا: الـدار التـي لا سـلطان للإسـلام عليهـا، ولا نفـوذ لأحكامـه فيهـا بقـوة الإسـلام ومنعتـه»[3].

سـنلاحظ أن المعيـار هنـا في التفرقـة بـين دار الإسـلام ودار الكفـر ودار الحـرب، هـو مـدى أمـان المسـلمين فيهـا عـلى عقيدتهـم وإقامـة شـعائرهم، وإعـلان دينهـم بحريـة. وهـي دار لا تختـص بالمسـلمين وحدهـم، وإنـما تحمـي أيضـا أهـل الذمـة والمعاهد وغـير ذلـك. وفي المقابـل، فـإن دار الكفر، يكـون الوضـع فيهـا: أمـان للكافـر؛ وخـوف يصيـب المسـلم، وذلـك لأن الإسـلام -كشـعائر- لا يقـام فيهـا، ولا يتحقـق الأمـان للمسـلم. ومـن هنـا، فـإن المعيـار الخـاص بأهميـة الهجـرة منهـا عـلى سـبيل الفـرض هـو صحيـح، ولكـن سـيكون المحـك في فـرض المغـادرة هـو التعـرض للخطـر عـلى المسـتوى الإيـماني والجسـدي، وقـد اسـتحضرت الفتـوى هنـا هجـرة الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم)، وصحابتـه الأبـرار عليهم الرضـوان، من مكـة إلى المدينـة، وجعلـت الفتـوى هنـا الهجـرة فريضـة، ذلـك لاضطهـاد المسـلمين في مكـة دار الكفـر، وتآمرهـم لقتـل الرسـول والصحابـة.

---

(١) السياسة الشرعية، عبد الوهاب خلاف، دار ابن حزم، بيروت، د ت، ص٦٩.

(٢) المبسوط، السرخسي، ج٣٠، ص٣٥.

(٣) السياسة الشرعية، ص٦٩.

على صعيد آخر، فإنه لابد من الأخذ في الحسبان بأن الأساس في هذه الفتوى، هو أمان المسلم على نفسه، ومدى استطاعته الحفاظ على عقيدته وأخلاقه وقيمه وسلوكياته من الزيغ والضلال. فقد يجد بالفعل دارًا غير مسلمة، ويطيب له العيش فيها، مثلما نرى العيش في أوروبا وأمريكا واستراليا وغيرها من بلدان المهجر، فهي دار سلام، يأمن فيها المسلم على نفسه، ولكن هناك الكثير من الضرر قد يقع عليه، لذا فإن الأمر يعود إلى المسلم في تقييم مدى أهمية الهجرة بالنسبة إليه من دار الإسلام إلى بلاد غير مسلمة. فلاشك أن الإقامة في بلاد الكفر، تارة تكون جائزة، وتارة تكون مستحبة، وتارة تكون محرمة، وذلك بحسب حال المقيم، وغرض إقامته، ومدى قدرته على إظهار دينه، والانتصار للحق.

ويشير القرطبي إلى أن النوع الثاني للهجرة هو الخروج من أرض البدعة[1]؛ وهي الأرض التي تم تحريف الدين فيها، بإدخال بدع كثيرة عليه، مما يؤدي إلى طمس الدين نفسه، وشيوع البدع والخرافات، وذهاب نقاء العقيدة وصحيح العبادة.

وكما يقال فإن وهذا صحيح؛ فإن المنكر إذا لم تقدر أن تغيره فزل عنه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2]، وقد ورد في تفسير

(١) تفسير القرطبي، ج٥، ص٢٩٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية (٦٨).

هـذه الآيـة: لمفـسري السـلف بـأن المـراد بهـا هـو تجنـب أهـل المـراء والجـدل والخصومـة فيهـا، الذيـن يتبعـون الأهـواء. وينتـصرون للمذاهـب والأحـزاب، أو تأويلهـا بالباطـل مـن قبـل أهـل الأهـواء، لتأييـد مـا اسـتحدثوا مـن الأفـكار والآراء[1].

وتعـود العلـة في مفارقـة أرض البـدع، إلى عظـم النتائـج المترتبـة عـلى المكـوث فيهـا، حيـث سـيتأثر الفـرد المسـلم بهـا، وإن قـاوم، فـإن ذريتـه سـتتأثر بهـا، وسـتضطر إلى مجـاراة النـاس، فيضيـع الديـن، وتخبـو العقيـدة، خاصـة فيمـن هـم أهـل جـدل، ولا يعرفـون العمـل، ويتبعـون أهواءهـم، ويفـسرون الآيـات القرآنيـة بـما يتوافـق مـع رغباتهـم، خصوصـا أهـل المذاهـب المنحرفـة، ومـا أكثرهـا في تاريـخ الإسـلام، وقـد أثّـرت في العامـة والنخبـة، خاصـة إذا كانـت لهـم الغلبـة، وتحامـوا بالسـلطة، ضـد مـن يعارضهـم مـن أهـل الحـق.

ولكـن في المقابـل، فـإن هـذا الخـروج يعـود إلى حالـة الشـخص، ومـدى تقديـره لظروفـه الخاصـة، فـإذا كانـت لديـه القـدرة والعلـم والمنعـة، فيسـتحب عـدم المغـادرة، والبقـاء في المـكان، مـن أجـل محاربـة البـدع، وإظهـار الحـق. وإلا فـإن خروجـه بـدون عـذر، فيـه تقويـة لأهـل الباطـل، وتغييـب الحـق والسـنة الصحيحـة عـن العقـول والأفهـام.

ويقـول القرطبـي: النـوع الثالـث مـن الهجـرة هـو الخـروج مـن أرض غلـب عليهـا الحـرام، فـإن طلـب الحـلال فـرض عـلى كل مسـلم. وهـذا

---

(1) تفسـير المنـار، للأسـتاذ الشـيخ محمـد عبـده، تأليـف الشـيخ محمـد رشـيد رضـا، الهيئـة المصريـة العامـة للكتاب، القاهـرة، ١٩٩٠م، ج٧، ص٤٢١

واجب، وإلا عرّض المسلم نفسه وذريته لخطر عظيم، وما ضياع الأجيال من أبناء المسلمين إلا بسبب جهل آبائهم، وتركهم أولادهم في خضم الحياة هناك، بكل موبقاتها وآثامها، فضاع الجيل الثاني والثالث من أبناء المسلمين، الذين هاجروا مبكرا منذ قرن أو يزيد، خاصة أن الآباء انشغلوا بطلب الرزق، ولا توجد مؤسسات إسلامية لرعايتهم، فذابوا في المجتمع. وكم نأسى أن نجد دولا في أمريكا الجنوبية، فيها مواطنون تنتهي أسماؤهم بألقاب وأسماء عربية وإسلامية، ومع ذلك فقد تحولوا إلى النصرانية، وأخبرني أحد مشايخ الأزهر من الدعاة كان مبعوثا إلى البرازيل، بأنه رأى فتاة اسمها فاطمة محمد (نفس اسم فاطمة بنت محمد رسول الله)، تتزوج في الكنيسة، وهي وزوجها على النصرانية، حيث تنصرت العائلة كلها، ولا تزال تحمل أسماء إسلامية، ولذا، فالمهاجر إن لم يستطع ترك هذه البلاد، فعلى الأقل يتعهد ذريته بالحفاظ على دينها، ويعلمهم إياه، أو يُحضِر من يعلمهم، ولكن الحادث أن الإسلام لم يعد أولوية لدى هؤلاء في حياتهم، بسبب ذوبانهم في أرض المهجر.

النوع الرابع هو الفرار من الأذية في البدن؛ وذلك فضل من الله أرخص فيه، فإذا خشي على نفسه فقد أذن الله في الخروج عنه والفرار بنفسه ليخلصها من ذلك المحذور. وأول من فعله إبراهيم عليه السلام؛ فإنه لما خاف من قومه قال: إني مهاجر إلى ربي، وقال أيضا: إني ذاهب إلى ربي سيهدين. وقال مخبرا عن موسى: فخرج منها خائفا

يترقب[1]. فإذا أوقن المرء بأنه معرض للإيذاء والهلاك والفتنة فعليه أن يغادر هذه البلاد، وكما رأينا، فإن أنبياء الله فيهم القدوة والأسوة، خاصة في الدول التي يتعرض فيها المسلمون للظلم، وهم مهددون في أولادهم وأنفسهم.

النوع الخامس: خوف المرض في البلاد الوخمة والخروج منها إلى الأرض النزهة. وقد أذن (صلى الله عليه وسلم) للرعاة حين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى المسرح فيكونوا فيه حتى يصحوا. وقد استثني من ذلك الخروج من الطاعون؛ فمنع الله سبحانه منه بالحديث الصحيح عن نبيه. بيد أن العلماء قالوا: هو مكروه.

وخلاصة القول في الأنواع التي ذكرها القرطبي، أنها تستند إلى الحفاظ على الكليات الخمس، وإن كانت على درجات، فأولها حفظ النفس، إن تعرضت للفتنة والظلم والإيذاء، ثم حفظ العقيدة إن تعرضت للبدع والخرافات والاستهزاء، وحفظ المال إن خشي عليه من التلف، وحفظ الذرية إن تيقن الأب أنها معرضة للضياع، وغير ذلك.

هجرة المسلمين إلى الغرب:

أحدثت هجرة المسلمين في عصرنا من بلدان العالم الإسلامي إلى بلدان غير مسلمة جدلا فكريا وفقهيا كبيرا، نتيجة استدعاء بعض العلماء لمقولات من التراث الإسلامي، تشمل مفاهيم وأحكام ربما

(١) تفسير القرطبي، ج٥، ص٢٩٩.

لا تصدق على واقعنا المعاصر، أو تحدث التباسا وسوء فهم، ينتج عنهما سوء تقدير، وسلوكيات خطأ، فإذا كانت بلاد الإسلام- وفق الفقه التراثي الإسلامي - ديارا تحمل عنوان دار الإسلام، إلا أن هناك من يعاني الاضطهاد والمطاردة مثل دعاة الإسلام، والمنادين بتحكيم شريعته، بجانب المخلصين من أبناء هذه البلدان، الذين يطمحون إلى نهضة حقيقية وحكم صالح في بلادهم، ناهيك عن بقية الشعب الذي يعاني من شظف العيش، وامتهان كرامته، فقد أصبحوا جميعا يجدون معاناة في بعض البلدان؛ إذ تسلطت بعض نظم الحكم ذات الطابع العلماني المستبد على الشعوب المسلمة، وسعت إلى تغييب الشريعة الإسلامية وقوانينها، والحكم بقوانين علمانية، وواجهوا كل معارضة بالتضييق الأمني، والتهديد بالقتل والتعذيب، والاعتقال أو النفي أو سحب الجنسية، والحرب في الرزق، ومطاردة الأهل والولد، وهذا لا يصدق بالطبع على كل البلدان الإسلامية، وإنما على بعضها، والأمر متفاوت بين بلد وأخرى.

لذا، أُعيدَ طرح سؤال: هل هذه البلدان هي دار للإسلام؟ وهو سؤال يستتبع الكثير من النقاش، لأنها لا يمكن أن تكون دار حرب، إلا أن تكون حربا على أعداء الله. أما دار الإسلام فهي التي تعلن فيها شعائر الإسلام، كالأذان وصلاة الجماعة وصلاة الجمعة وغير ذلك، ويكون أكثرية أهلها منتمين للإسلام مطبقين لشرائعه وشعائره، وهو ما قائم وحادث بالفعل، ولكن الشريعة غائبة مما يثير قضية

مهمة، وهي الحكم بغير ما أنزل الله عز وجل؛ بما فيها من جدل، فهناك نظم حكم في أقطار مسلمة، جعلت التغريب القسري أسلوبا لها، والمثال على ذلك تركيا الكمالية، وما تفعله الصين بحق الأقلية المسلمة فيها، وأيضا المذبحة المروعة التي عانى منها المسلمون في إقليم ميانمار، ناهيك عن أقطار مسلمة يحكمها غير مسلمين؛ مما يدفعنا أن لا نتورط في إصدار أحكام عامة، لأن لكل بلد حكما خاصا به، فالمسلمون في بلاد العرب أو إفريقيا وآسيا، يستطيعون أداء شعائر دينهم، ويجاهرون بذلك، على الرغم من تغييب حكم الشريعة في الكثير منها، ولكن هناك حفاظا وإبقاءً على شعائر الإسلام، وهنا يكون الوضع مختلفا؛ عن بلدان مثل الجمهوريات الإسلامية التي سقطت تحت نير الاتحاد السوفيتي إبان الحكم الشيوعي، الذي استمر أكثر من سبعين عاما، وعانى فيه المسلمون كثيرا، في أدائهم لشعائر دينهم، وكانوا يمارسون عباداتهم في سرية تامة، فمن يُضبَط مؤديا للصلاة أو قارئا للقرآن يُعتقَل ويُعذّب. فهذه بلاد ينتسب أهلها إلى الإسلام، ولكن يحكم ذوو السلطان فيها بغير ما أنزل الله، ولا يقوى المسلمون فيها على إقامة أبسط مقتضيات دينهم؛ فيكون الحكم الشرعي أنه يجب عليهم الهجرة منها، فرارا بدينهم من الفتن إلى ديار يُحكم فيها بالإسلام، لأنهم غير قادرين فيها على القيام بما وجب عليهم شرعا. ومن عجز عن الهجرة منهم من الرجال والنساء والولدان فهو معذور، وعلى المسلمين في الديار الأخرى أن ينقذوه من

ديار الكفر إلى بلاد الإسلام. هذا، وعلى الجانب الآخر، هناك بلدان غير مسلمة، لا تعترف بالإسلام بل وتتسلط حربا عليه، فيما يسمى في أصول الفقه بدار الكفر: حيث الوضع القائم فيها يتمثل للمسلم - الذي اضطرته الظروف للعيش فيها - إلى عجزه عن المجاهرة بشعائر دينه؛ وفي هذه الحالة -فقهيا- يجب عليه الهجرة منها، لأن بقاءه فيها خطر على عقيدته. ولكن هناك -على النقيض- بلدان غير مسلمة، إلا أنها تحترم حسب نظامها القانوني والدستوري الهويات والأديان، فيستطيع المسلم أداء شعائر دينه بحرية كاملة، بأن يصلي ويتصدق ويقيم الجماعة والجمعة ولا أحد يمنعه من ذلك، فهذا وصفه الفقهي أنه قادر ومتمكن من إظهار دينه، على الرغم من إقامته في ديار غير مسلمة بالمرة، فالحكم الفقهي هنا على التخيير؛ بأن يبقى فيها مادام ينعم بحرياته ورزقه ويعيش آمنا، أو أن يبقي فترة محدودة، ثم يعود إلى وطنه أو يهاجر إلى بلاد مسلمة، خوفا عليه أو على أسرته وأولاده بها في المهجر من فتن وانحراف[1].

وكل هذا، يتوقف على كل حالة على حدة، -فردا كانت أو جماعة- ومدى تمكنها من أداء شعائر إسلامها، ولكل حالة حديث مختلف، فلا يجوز هنا التعميم. فلاشك أن بقاء المسلمين في بلادهم المسلمة، التي سقطت تحت حكم تسلطي شديد العنف ضد من يقيم شعائر الإسلام هو مصلحة للمسلمين أنفسهم، حفاظا على أرضهم، وإن

(١) شروط اعتبار الدار دار كفر أو إسلام، فتوى، موقع إسلام ويب، ٢٥ رمضان ١٤٣٤ هـ - ١-٨-٢٠١٣م.https://fatwa.islamweb.net/ar/fatwa/٢١٥٥٦٦/بشرح وتمثيل وتصرف من جانبنا.

تعرضوا للمطاردة والاعتقال، ولكن بقاءهم متمسكين بدينهم يعني استمرار الإسلام على أرضهم، بدلا من تحولهم إلى التغريب وتغييب العقيدة.

والمثال على ذلك الجمهوريات الإسلامية السوفيتية سابقا، فقد استعادت هويتها الإسلامية، بسبب وجود أجيال من أبنائها حافظت على الدين سرا: فهما والتزاما، فلما تحقق لهم التحرر من إسار الشيوعية، تيسر لهم الجهر، وأعلنوا عن أنفسهم، وشرعوا في بناء المساجد ونشر ثقافة الإسلام، خاصة أنها تعرضت لغزو تنصيري ونهب استعماري مع فكر ماركسي، خلال تسلط الاتحاد السوفيتي عليها، ثم تغريب ثقافي من قبيل الولايات المتحدة وأوروبا، مما يستوجب وجود عاملين للإسلام فيها، لا يهاجرون إلا لطلب العلم، ومن ثم يعودون لإفادة بلادهم[1].

في ضوء متقدم، وإزاء المعطيات المستجدة في عالمنا اليوم، يبدو

---

(١) معركة الإسلام المقبلة.. مسلمون وسط آسيا، د. ليلى حمدان - ٢٨ أغسطس، ٢٠١٧م، موقع تبيان لصنع الوعي، https://tipyan.com/battle-of-islam-is-coming-muslims-of-central-asia . تشمل هذه الدول كلا من: تركستان الشرقية وعاصمتها أرومتشي، وقيرغيزستان وعاصمتها بتشكيك، وأوزبكستان وعاصمتها طشقند، وكازاخستان وعاصمتها المآتا وتركمانستان وعاصمتها عشق آباد، وطاجيكستان وعاصمتها دوشنبيه وباكستان وعاصمتها إسلام أباد، وأفغانستان وعاصمتها كابول. لتغطي مساحة هذا التواجد الإسلامي المهم والخطير في هذه المنطقة نحو ٨ مليون كم مربع، يقطنها ما يزيد على ٢٠٠ مليون نسمة من المسلمين السنة الأحناف. وتزداد أهمية هذه المنطقة للعوامل السياسية والاقتصادية والبشرية والتاريخية والثقافية الهامة، فهي منطقة استراتيجية جدا وتشكل عقدة فصل ووصل مهمة بين الصين وشرق آسيا شرقا، وبين بحار الجنوب والمنافذ إلى منطقة الخليج العربي ومناطق النفط والممرات المائية الهامة. كما أنها منطقة تزخر بالثروات الطبيعية الهامة ففيها كميات احتياطية هامة جدا من البترول والغاز والذهب واليورانيوم والأحجار الكريمة وأكثر من تسعين نوعا من المعادن الصناعية الأساسية.

المشـهد عـلى النحـو الآتي: أقطـار مسـلمة ولكنهـا لا تحكـم بالشريعـة، إلا أن شـعائر الإسـلام تقـام فيهـا، وهنـاك أقطـار غـير مسـلمة ولكـن تبيـح حقوقـا لجميـع الأديـان بـما فيهـم المسـلمين، وهنـاك أقطـار غـير مسـلمة تحـارب الأقليـة المسـلمة فيهـا وتتسـلط عـلى أتباعهـا. فبـات المشـهد جديدا، عـما كان عليـه الحـال منـذ قـرون، حيـث كانـت هنـاك دار للإسـلام، ممثلـة في دولـة الخلافـة أو حتـى في المـمالـك الإسـلامية، التـي تحكـم بالشريعـة، وترفـع لـواء الإسـلام، وتحمـي المسـلمين في البلـدان الأخـرى المجـاورة، وترحـب بهـم وتحتضهـم إذا تعرضـوا لاضطهـاد أو قمـع مـن حـكام أو سـكان بلادهـم.

لـذا، فـإن الفقـه المعـاصر للأقليـات يعيـد النظـر في مفهـوم دار الكفـر ودار الإسـلام، ويتبنـى مفاهيـم جديـدة، حيـث يشـير إلى أن دار الإسـلام الآن هـي كل دولـة أكثـر سـكانها مـن المسـلمين، وحكامهـا مسـلمون، حتـى ولـو كانـوا لا يطبقـون الأحـكام الشرعيـة. ودار غـير المسـلمين هـي كل دولـة أكثـر سـكانها غـير مسـلمين، وحكامهـا غـير مسـلمين. وهنـاك ما يسـمى بالـدار المركبـة وتتمثـل في الـدول الفيدراليـة، التـي فيهـا مسـلمون وغـير مسـلمين، وتحتفـظ كل ولايـة منهـا بسـلطة سـن القوانـين، كـما في نيجيريا[1]،والعديـد مـن الـدول في أفريقيـا وآسـيا، مثـل إثيوبيـا والهنـد جنـوب إفريقيـا.

فالجديـد الـذي أضافـه التعريـف السـابق هـو التأكيـد عـلى خاصيتـين

(١) صناعـة الفتـوى وفقـه الأقليـات، عبـد الله بـن بيـه، المركـز العالمـي للوسـطية، الكويـت، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، ص٣٣٥، ٣٣٦.

تتميز بها دار الإسلام؛ أن تكون غالبية سكانها مسلمين، وأن يكون حاكمها مسلما، ويبدو أن حال المسلمين الآن، وتراجعهم الحضاري والسياسي، قد فرض حضوره على المنظور الفقهي، فاستبعد تطبيق الشريعة الإسلامية، مكتفيا بأن دار الإسلام تقيم الشعائر الإسلامية علانية، التي تقتصر على العبادات المعروفة: الصلاة وآذانها ومساجدها، الصوم وتقاليد شهر رمضان، والاحتفالات بالأعياد الرسمية، عطلا للناس، واحتفاء من الدولة بها. وفي المقابل، هناك دار غير المسلمين، والتسمية في حد ذاتها، تنأى عن مفاهيم الفقهاء والأصوليين القدامى، التي تحدثت عن: دار الكفر ودار الحرب ودار المعاهدة والسلم، واكتفت التسمية المعاصرة بأنها دار غير المسلمين، وربما يعود هذا للواقع المعيش الذي نلمسه، فهناك من الدول الأوروبية ومعها الولايات المتحدة وغيرها؛ كانت دولا مستعمرة لبلادنا لحقب وسنوات (بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، والولايات المتحدة)، ونحن نعلم ما قام به الاستعمار من تنصير ونهب لثروات الشعوب الإسلامية، ومقاتلة المجاهدين فيها، وقمع ثوراتها، ومع ذلك، نجد منهم ترحيبا بالمهاجرين المسلمين، وحماية لحقوق الأقليات، وتوفيرا لفرص العمل، فهم في بلادهم يحترمون الإنسان، أيا كان دينه، وقد يتآمرون ضد بلدان العالم الإسلامي، لذا، فإننا لا يمكننا استخدام مفاهيم الفقهاء القدامى في هذا الصدد، ونكتفي بما نرصده من حال المهاجرين المسلمين في بلادهم.

وبعبـــارة أخـــرى، إن التصنيـــف الســـابق إلى دار إســـلام، ودار غـــير مسـلمين، قائـم عـلى موقـع المسـلمين في هـذه البلـدان، فـالأولى أغلبيتهـا مسـلمون حكامـا ومحكومـين، والثانيـة بهـا أقليـات مسـلمة، ولكـن تنـال كثـيرا مـن حقوقهـا، وتعيـش في أمـن وطمأنينـة عـلى دينهـا.

لـذا، يـأتي رأي جمهـور الفقهـاء وهـم الأحنـاف والحنابلـة والشـافعية بحكـم إباحـة بالإقامـة للقـادر عـلى إظهـار دينـه، الـذي تتوفـر لـه الحمايـة. أمـا إذا كان المسـلم معرضـا للفتنـة في دينـه، وأنـه مجـبر عـلى الانسـلاخ منـه بالكليـة، فيجـب عليـه الفـرار بدينـه مـن تلـك الديـار، إلى دار أمـن وأمـان، وحبـذا دار إسـلام. ونفـس الأمـر، إذا كان المسـلم المهاجـر غـير قـادر عـلى تربيـة أبنائـه تربيـة إسـلامية، أو كان بيتـه مهـددا بالانحـلال الأخلاقـي، وأمامـه سـبيل للإقامـة في بلـد إسـلامي، فيـه بقيـة مـن أخـلاق وفضائـل، فعليـه أن يبـادر إلى ذلـك، فالمعيـار الأسـاسي في منظـور الإسـلام إلى قضايـا الهجـرة والمهاجريـن هـو الحفـاظ عـلى نفـس المسـلم ودينـه ومعاشـه وذريتـه وضرورات حياتـه. وهنـا تكـون العـبرة في الموازنـة مـن حيـث نسـبة الصـلاح والفسـاد في بلـدان المهجر[1]. ويسـتند الفقـه في ذلـك إلى قاعـدة المرونـة، وتنزيـل الحاجـات، وأن المشـقات تجلـب التيسـير، وهـي القواعـد التـي ترجـع للمسـلم ذاتـه، وقدرتـه عـلى أن يقـدر ضروراتـه وحاجاتـه بقدرهـا، وفي ضـوء ظروفـه الخاصـة ومقدرتـه واسـتطاعته.

وإذا توقفنـا عنـد قاعـدة المشـقات تجلـب التيسـير، سـنجد أن علـماء الأصـول قـد تناولوهـا مـن وجـوه مختلفـة، ولكـن هنـاك وجهـا يمكـن

(١) المرجع السابق، ص٣٣٦، ص٣٣٨- ٣٤٠.

الاستفادة منه في فقه الهجرة، وهو من حيث وقت تحققها، فهناك المشقة الحالية: وهي ما كانت حاصلة في الحال، أي عند الشروع في عمل شاق من قبل المسلم، والمشقة المآلية: وهو ما يلحق المكلف بسبب الدوام على فعل لا مشقة فيه، وسميت مآلية، لأن المشقة لا تكون في الوقت المحدد عند القيام بالعمل، وإنما إذا استمر فيه[1]، والمشقة هنا تتعلق بالمسلم، ومدى احتياجه إلى الهجرة، ولكل مهاجر ظروفه الخاصة به، ولكن لاشك أن فكرة التأقيت المشار إليها في قاعدة المشقة بوصفها جالبة للتيسير، تجعل المسلم في حرية من الاختيار، حيث يرى واقعه في بلده الأصلي، ومدى معاناته من أجل الرزق، أو رغبته في طلب العلم، وما شابه، ومدى استطاعته للهجرة من أجل تحقيق ما يريد، وهل الهجرة هنا بالنسبة إليه بمثابة ضرورة أم لا؟ ثم النظر في نوعية المشقة التي يعاني منها في وقته الحالي، وهل باستطاعته الاستمرار في التحمل، أم أنه يهاجر وإذا هاجر هل بإمكانه تحمل مشقات الهجرة والحفاظ على دينه، أم أنه يصبر لوقت معين حتى يحقق ما يريد ثم يعود إلى وطنه. وتأتي المشقة المآلية في النظر إلى المستقبل، ومآلات العيش في الغربة وبلاد المهجر على أسرته وأولاده، وهل هناك خشية على ذريته من الافتتان والسقوط في الضلال والانحراف؟

وبعبارة أخرى: فإن المسلم المهاجر ينظر دائما إلى حاله الآني أو

---

(١) قاعدة المشقة تجلب التيسير: دراسة نظرية تأصيلية تطبيقية، د. يعقوب بن عبد الوهاب باجسين، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢، ١٤٢٤هـ، ص٤٥. وقد صاغ المؤلف أمثلة تتصل بالعبادات وتكاليفها، وأيضا بالبيوع والثمار. وقد رأينا أن المفهوم يمكن الاستفادة منه.

المستقبلي، ومدى قدرته على احتمال المشقات، وإلى أي وقت يمكن الاستمرار في الاحتمال، سواء مشقة المهجر وتداعياته عليه وعلى أسرته. ولكن الهدف الأساسي هو الحفاظ على دينه ونفسه وذريته، وكل هذا يعود إلى ظروفه الخاصة، ذلك لأن الوفاء بفروض الدين وأيضا حاجات المسلم الحياتية تتأتى حسب « اختلاف الأشخاص في تحمل المشاق، تبعا لقابليتهم واستعداداتهم النفسية والبدنية، ولظروفهم المآلية والمعيشية، أما إذا كانت المشقة مؤكدة، أو حصلت بعد الاستمرار في الفعل، فإن الأدلة العامة والخاصة لا تسوغ الدخول أو الاستمرار في الفعل »[1].

وهذا يجرنا للتذكير بأن للمشقات أنواعا أو مراتب ودرجات، وعلى المسلم النظر إلى مستوى المشقة التي يعيشها، فإن تعذر عليه الأمر، فهو يستفتي عالما موثوقا به. ومراتب المشقات ثلاث: الأولى: مشقة عظيمة فادحة، كمشقة الخوف على النفوس والبدن، فهي موجبة للتخفيف قطعا، لأن حفظ النفوس وأطراف البدن لإقامة مصالح الدين أولى. والثانية: مشقة خفيفة لا وقع لها، فهذه لا أثر لها ولا التفات إليها. والثالثة: مشقة متوسطة بين هاتين المرتبتين، فما دنا من المرتبة العليا وهي-المشقة الشديدة -وجب التخفيف، أو دنا من الدنيا -وهي المشقة الخفيفة-لم يوجبه[2].

---

(١) المرجع السابق، ص٤٧.

(٢) الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص٨٠، ٨١.

والمشقات بدنية ونفسية، وتقدر بقدرها. لذا، من المهم على كل مسلم أن يعزز ثقافته الشرعية، ليعرف موقفه مما حوله في الحياة، سواء كان مقيما في بلده، أو مهاجرا إلى بلد آخر، فالأهم هو حفاظه على دينه أولا مرضاةً لله تعالى وطاعة وأملا في الفوز بالآخرة، ثم الحفاظ على الذرية وتربيتها على الإسلام، وكذلك تأمين مصادر العيش الطيب، والرزق الحلال، وكل هذا يستلزم فقها ووعيا من الفرد المسلم، حتى ينجو بنفسه ودينه وأولاده من ضغوط الحياة.

وهذا يحيلنا إلى فقه الموازنات، الذي يجب على المسلم عامة، والمهاجر المسلم خاصة الوعي به، والانتباه إلى قواعده الشرعية، وأن يسأل فيما غمض عليه، والتبس أمره وفهمه، لأنه سيوازن بين المشقات التي تواجهه في حياته، ومنها ضرورات تحتم عليه اختيارات عديدة، وإلا سيتعرض إلى فتنة كبيرة.

فمفهوم فقه الموازنات اصطلاحا: هو المفاضلة بين المصالح والمفاسد، المتعارضة والمتزاحمة، لتقديم أو تأخير، الأولى بالتقديم والتأخير[1]. أي أن الموازنات تستند إلى أسس قوامها: المقارنة بين المصالح والمفاسد في ذاتها أو بعضها، لتقديم الأرجح منها في الحكم، عند التعارض فيما بينها. فالمقارنة بين نسبة المصلحة وما يضادها من مفسدة تمثل حجر الزاوية في هذا الفقه، فما أكثر المصالح الدنيوية التي قد تسوغ للمسلم أن يتبعها، وفي الوقت ذاته قد ينتج عنها مفاسد،

(١) تأصيل فقه الموازنات، لعبدالله يحيى الكمالي، ط ١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م، ص١٣.

خاصة الإقامة في بلاد ليست مسلمة في شعائرها ولا هويتها ولا نظمها.

جدير بالذكر أن فقه الموازنات يلتقي مع فقه الأولويات الذي يتناول ترتيب المصالح والمفاسد، وهو من أقرب المضامين الفقهية لفقه الموازنات، وإن كان لا يخلو من تعارض. وكذلك يتواشج مع فقه المصالح الذي ينص على تغليب المصلحة في الحكم. وكذلك فقه الضروريات وهو النظر لما هو ضروري، وهو أعلى رتب المصالح المرعية، وما سواها داخل فيها، وتعنّوّن الفقه بها نظرا لأولوية الضرورة في أي حكم أو موقف يتخذه المسلم.

وفي جميع الأحوال، فإن فقه الموازنات يتأسس على الموازنة بين المصالح بعضها وبعض، من حيث التقديم والتأخير، وكذلك الموازنة بين المفاسد بعضها وبعض، وما يمكن تأخيره وتفاديه واجتنابه، والموازنة بين المصالح والمفاسد إذا تعارضتا، لنعرف متى نقدّم درء المفسدة على جلب المصلحة، ومتى تغتفر المفسدة من أجل مصلحة. أما نهج الشريعة الإسلامية، فأساسه سلوك التوفيق بين المصالح والجمع بينها، فإن تعذر الأمر، يكون سلوك التغليب والترجيح، للمصلحة الكبرى على المصلحة الصغرى، والمصلحة العامة على المصلحة الخاصة وهكذا[1].

واستحضار هذا الفقه ضرورة مهمة في فقه الأقليات المسلمة في

---

(١) منهج فقه الموازنات في الشرع الإسلامي (دراسة أصولية)، د. حسن سالم الدوسي، مجلة الشريعة والدراسات الإيسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ١٤٠١هـ، ٢٠٠١م، ص٣٨٠.

المهاجر، على مستوى وعي العلماء والأئمة ومن يتصدون للفتوى، وأيضا على مستوى المسلم المهاجر الفرد، الذي يعايش ظروفا قد تختلف من فرد مسلم مهاجر إلى آخر، وعليه أن يكون واعيا لواقعه المعيش، وعلى دراية وتواصل مع الفقيه.

أشكال الهجرة في الاجتهاد المعاصر:

لابد من التوقف أمام الكلام المجاني الذي يصدره بعض العامة من المسلمين المتدينين قليلي العلم والفهم، وذلك فيما يتعلق بحرمة الإقامة في أوروبا أو أمريكا أو غيرها من الدول خوفا من الفتنة، والإباحية المنتشرة هناك، ولكونها دولا علمانية، وبعضهم ينعتها بالكافرة، وهو كلام يضاد الواقع المعيش، نظرا لسوء أحوال أقطار العالم الإسلامي اقتصاديا وسياسيا وعلميا، ناهيك عن الأقطار التي تعاني ويلات الحروب والتمزق، بجانب محاربة بعض النظم الحاكمة للعلماء والدعاة الذين يعارضون توجهات السلطة، ويرون أنها لا تخدم الإسلام، وإنما تخدم مآرب الحاكم فقط. لذا، من المهم مناقشة الهجرة إلى الغرب عموما، ودواعي الإقامة فيها، التي تتخذ أشكالا عديدة، يمكن إجمالها فيما يأتي[1]:

الشكل الأول: الإقامة للدعوة إلى الإسلام والترغيب فيه، وهو نوع من الجهاد، بل هو ينهض ليكون في حكم فرض الكفاية على من قدر عليها، بشرط تحقيق الدعوة وعدم وجود من يمنع منها أو

(١) ما حكم الإقامة في بلاد الكفار؟، موقع طريق الإسلام، فتاوى الشيخ ابن عثيمين، https:// fatwa/net.islamway.ar بتوضيح وتعميق من جانبنا.

مـن الاسـتجابة إليهـا، لأن الدعـوة إلى الإسـلام مـن واجبـات الديـن وهـي طريقـة المرسـلين وقـد أمـر النبـي صـلى الله عليـه وسـلم بالتبليـغ عنـه في كل زمـان ومـكان فقـال صـلى الله عليـه وسـلم: «بلغـوا عنـي ولـو آيـة».

وهــذا فَهــم مهــم، فــلا يمكــن أن نظــل في حالــة دفــاع دائــم عــن الإســلام، مــن خــلال الهجــوم العلــماني والغــزو الثقــافي، وأيضــا الســكوت عــن دعــاة التنصــير في بلادنــا، فيكــون توجــه الدعــاة إلى بــلاد الغــرب ســبيلا لنــشر الإســلام أولا، والتعريــف بــه وبرســالته الســامية، لشــعوب متعطشــة إلى الإســلام والروحانيــة، وتعيــش في ماديــة بغيضــة، في ضــوء تراجــع الكنيســة وكثــرة فضائحهــا، وانعزالهــا عــن المجتمــع والحيــاة والإنســان الفــرد، بحكــم الفكــر العلــماني المسيطر عــلى الحيــاة في أوروبــا، وحبــذا أن يكــون مــن العلــماء المســلمين الذيــن عاشــوا أو تربــوا في الغــرب، ويعــرف لغــة أهلهــا، وطباعهــم، وعــلى خــبرة بمجتمعاتهــم، ويقيــم هنــاك فــترات طويلــة متصلــة، أي هجــرة دائمــة أو مؤقتــة، ويتصــدى فيهــا للدعــوة. والمحصلــة لــكل هــذا باتــت تــؤتي ثمارهــا، حيــث أصبــح الإســلام أكثــر الديانــات انتشــارا في أوروبــا، بــل في العــالم كلــه، نتيجــة جهــود هــؤلاء الدعــاة والعلــماء، والأفــراد أيضــا.

الشــكل الثــاني: الإقامــة/ الهجــرة بهــدف دراســة أحــوال الكافريــن والتعــرف عــلى مــا هــم عليــه مــن فســاد العقيــدة، وبطــلان التعبــد، وانحــلال الأخــلاق، وفوضويــة الســلوك ليحــذر النــاس مــن الاغــترار بهــم، ويبــين للمعجبــين بهــم حقيقــة حالهــم، وهــذه الإقامــة نــوع مــن الجهــاد أيضــاً

لما يترتب عليها من التحذير من الكفر وأهله المتضمن للترغيب في الإسلام وهديه، لأن فساد الكفر دليل على صلاح الإسلام، وكما قيل: وبضدها تتبين الأشياء. لكن لابد من شرط أن يتحقق مراده بدون مفسدة.

وهذا جيد، إذا أردنا الاستفادة مما يسمى علم الاستغراب، وهو العلم الذي يسعى إلى دراسة الغرب: فكرا وحضارة وثقافة وعادات وتقاليد. أي: معرفة الغرب، من خلال التعرف على أبنيته الفكرية والثقافية والإيديولوجية، وإعادة قراءتها بروح نقدية عارفة، وعلى نحو مواز، ترمي إلى الإضاءة على التحولات المعرفية الجارية على نطاق عالمي، وفي العالمين العربي والإسلامي على نحو خاص، وهو ينطلق من أربع ضروريات: ضرورة تاريخية: بالنظر إلى حضور الإسلام الطاغي في الساحة العالمية في القرن الحادي والعشرين، على المستوى الفكري والديني والأخلاقي والقيمي، فهو حضور له فاعليته في رسم الاتجاهات الاستثنائية لراهن الحضارة الإنسانية ومستقبلها. والضرورة الثانية توحيدية، تفترضها حالة التشرذم التي تعصف ببلدان العالم الإسلامي، وتجعل نخبها ومستوطنيها أشبه بمستوطنات مغلقة، لا علاقة لهم بالعالم الخارجي، وإنما يتلقون أفكارا وفلسفات غربية، دون النظر فيما وراءها، أو قد يكونون في حالة من العزلة عما يجري في العالم. والضرورة الثالثة: تنظيرية، بهدف استيلاد مفاهيم وأفكار ونظريات جديدة، تمتاح من رؤية الإسلام لما يجري في الساحة العالمية

عامة، والغربية خاصة، وتفعيل مشتغلات الفكر العربي المعاصر حول قضايا غربية. والضرورة الرابعة: معرفية، وتنطلق من أهمية وجود رابط معرفي، يجمع نخب الأمة العربية والإسلامية، من أجل الانشغال بمناقشة الفكر الغربي، والاطلاع عليه، والرد على ما فيه[1]. ويأتي هذا العلم في مواجهة علم الاستشراق الذي اضطلع فيه الغربيون منذ القرن السابع عشر إلى دراسة الشرق وتقديم معلومات متكاملة عنه، مهدت لاحقا للاستعمار الغربي للبلاد الإسلامية. وارتكزت الظاهرة الاستشراقية بداية للتعبير عن وجهة نظر دينية نصرانية أو يهودية تجاه الإسلام، ثم نقد الإسلام من منظورهما. وتطور الأمر لاحقا إلى دراسة الإسلام وتاريخه من منظور مذهب أو إيديولوجية بعينها، مثل الماركسية أو القومية أو الفلسفات العلمانية المتنوعة، في خليط من الاتجاه الإلحادي، أو قاعدة فصل الدين عن الدولة والحياة، مع توظيف مناهج إنسانية حديثة في بحوثها[2]

وهناك وجهة نظر معارضة، تحاجج عن جدوى علم الاستغراب، وجدوى تصدي علماء مسلمين من أجل دراسة الغرب، والغرب كله يغزونا ليل نهار، في عقر دارنا، وفي سويداء قلوبنا وعقولنا. ونرد بأن شتان ما بين الغزو التغريبي، وبين علم الاستغراب، فالغزو التغريبي يأتي موجها من أجل تحويل العقول والمجتمعات المسلمة إلى

(١) لماذا الاستغراب؟ محمود حيدر، مجلة علم الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، العدد الأول، خريف ٢٠١٥م، ص١٠، ١١.

(٢)) الإسلام والإعلاموفوبيا: الإعلام الغربي والإسلام: تشويه وتخويف، د. المحجوب بن سعيد، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٠م، ص٢٢-٢٤.

النمط الغربي فكرا وحياة وثقافة، لنكون شعوبا مستهلكة لما ينتجه الغرب، أي حديقة خلفية له. أما علم الاستغراب، فالهدف منه فهم الغربي بشكل حقيقي، كما هو قائم وحادث، ومعرفة طبيعة الأفكار والنظريات التي يصدرها لنا، بعيدا عن التزيين الزائف، والدعاوى المزخرفة التي تقدم الغرب على أنه قمة نتاج الحضارة الإنسانية. وهذا جزء من الغاية من فقه الهجرة بمعناه الصحيح، بمعنى أن نهاجر إليهم ونعيش بين أظهرهم، ونعرف لغتهم ومجتمعاتهم وعلومهم حق المعرفة، بدون أن نتأثر بهم، ولا نعيش استلابا حضاريا من حضارتهم، وإنما نعاملهم بندية، من قبل علماء رضعوا وتشربوا الإسلام ثقافة وقيما وأخلاقا وفكرا وحضارة.

الشكل الثالث: الإقامة والهجرة لحاجة الدولة المسلمة وتنظيم علاقاتها مع دولة الكفر كموظفي السفارات فحكمها حكم ما أقام من أجله. مثل إقامة الدبلوماسيين ومن في حكمهم. وهذا لا ضير منه، ومطلوب، بل كان جزءا أساسيا من استراتيجيات الدولة المسلمة قديما، فهناك دوما السفراء والسفارات، الذين يقومون في دار المعاهدة والسلام، من أجل رعاية مصالح المسلمين، ودعم العلاقة مع هذه البلدان.

الشكل الرابع: الإقامة لحاجة خاصة مباحة كالتجارة والعلاج فتباح الإقامة بقدر الحاجة، وقد أباح العلماء على جواز دخول بلاد غير المسلمين للتجارة وأثروا ذلك عن بعض الصحابة رضي الله عنهم.

وهـو أيضـا جـزء مـن التواصـل مـع بـلاد غـير مسـلمة، بأهـداف دنيويـة ترتبـط بمصالـح المسـلمين، وتواصلهـم الإنسـاني، مثـل التجـارة وشـؤونها، وقـد كان المسـلمون منـذ القـدم يتاجـرون مـع مختلـف شـعوب العـالم، في أفريقيـا وآسـيا وأوروبـا، بتواصـل إنسـاني أساسـه السـلم والتعـارف، ومـن خـلال التجـارة يمكـن التعريـف بالإسـلام وقيمـه وأخلاقـه، مثلـما فعـل أجدادنـا ونـشروا الإسـلام في جنـوب الصحـراء الكـبرى في أفريقيـا، وشرقهـا وغربهـا، بـدون فتـح ولا غـزو.

الشـكل الخامـس: الهجـرة والإقامـة مـن أجـل الدراسـة وهـي امتـداد للشـكل الرابـع، المتعلـق بغايـة دنيويـة يريدهـا المسـلم، ولكنهـا أخطـر وأشـد فتـكاً بديـن المهاجـر وأخلاقـه، ذلـك أن الطالـب يشـعر بدنـو مرتبتـه وضآلـة علمـه، وعلـو مرتبـة أسـاتذته علميـا وحضاريـا، فيدخـل في حالـة مـن الاسـتلاب الحضـاري والنفسـي والفكـري، ويترجـم ذلـك في تعظيمـه لهـم والاقتنـاع بآرائهـم وأفكارهـم وسـلوكهم، فيقلدهـم، ثـم إن الطالـب يشـعر بحاجتـه إلى معلمـه فيـؤدي ذلـك إلى التـودد إليـه ومداهنتـه فيـما هـو عليـه مـن ضـلال.

وهـي قضيـة مثـارة وعـلى أصعـدة مختلفـة، لأن الطالـب المهاجـر بصفـة دائمـة أو مؤقتـة إلى الغـرب، يذهـب في مرحلـة عمريـة صغـيرة، يكـون تحصنـه الدينـي والخلقـي والسـلوكي ضعيفـا، لأنـه لا يـزال غضـا، فيسـهل عليـه التأثـر، والذوبـان في هـذه المجتمعـات، وهـذا حـادث وقائـم، وهنـاك عـشرات الآلاف مـن الطـلاب المسـلمين الـذي هاجـروا للعلـم والدراسـة،

وعـادوا لبلادهـم حاملـين العلـم والفكـر والقيـم والغربيـة، فكانـوا وبـالا علـى الأمـة، مـن خـلال سـعيهم إلى التغريـب. ولأننـا لسـنا بصـدد البـكاء علـى اللبـن المسـكوب، فإنـه لابـد مـن إيجـاد برامـج توعيـة وتربيـة ومتابعة، وعـدم تـرك الطالـب وحيـدا، في خضـم حيـاة غريبـة عنـه، تحفـل بالمفاتـن والمغريـات والمفاسـد.

ولمـاذا لا نسـتفيد مـن تاريخنـا؟ حيـث إن أولى البعثـات التـي سـافرت مـن مـصر في عهـد محمـد علـي باشـا، وكانـت بعثـة علميـة كبـيرة، في العـام ١٨٢٦م، وكان عـدد طلابهـا ٤٢ طالبـا، ثـم زاد ليصـل إلى ١١٤ طالبـا، وقـد تـم إرفـاق ثلاثـة مـن مشـايخ الأزهـر، مـن أجـل الوعـظ والإرشـاد للطـلاب المصريـين المهاجريـن، وكان منهـم الشـيخ رفاعـة الطهطـاوي، الـذي رشـحه شـيخه حسـن العطـار، لإمامـة البعثـة فقـام رفاعـة بعملـه خـير قيـام، وتعلـم أيضـا اللغـة الفرنسـية وعلومهـا، واسـتمر في بعثتـه لمـدة خمـس سـنوات، وعـاد بعدهـا مترجمـا للعلـوم الفنـون التـي عرفهـا وعاينهـا عـن قـرب[1]، كـما تتلمـذ عـلى أيـدي مجموعـة مـن العلـماء الفرنسـيين، وكان يحـرص دومـا عـلى ترجمـة أو تلخيـص أي كتـاب ينتهـي مـن قراءتـه بالفرنسـية، ونيـل شـهادات عديـدة في الترجمـة والعلـوم، وكان واعيـا بأنـه صاحـب رسـالة لإيقـاظ أمـة الـشرق، وتعريفهـا بمنجـزات العلـم والحضـارة الحديثـة كـما رآهـا في باريـس، دون أن يتخـلى عـن روحـه الإسـلامية، وحرصـه عـلى هويتـه وثقافتـه، وتلـك سـمة الجيـل الأول مـن

(١) رفاعـة الطهطـاوي رائـد التنويـر في العـصر الحديـث، د. محمـد عـمارة، دار الـشروق، القاهـرة، ط٣، ٢٠٠٧م، ص٣٨

التنويريين في العالم العربي والإسلامي[1]، فهي تجربة مبكرة، وكان أولو الأمر ساعتها واعين لأهمية تحصين الطلاب فكريا ودينيا وسلوكيا، وللأسف فإن هذه التجربة لم تتكرر، وبعثنا أبناءنا الطلاب إلى الغرب بدون رعاية، ولولا وجود منظمات ومراكز إسلامية في أوروبا وأمريكا وعموم المهجر، يمكن أن يتواصل معها الطلاب، لضاع الكثير من طلابنا.

لذا، وضع العلماء شروطا أو بالأدق توصيات، من أجل علاج هذه الظاهرة المستفحلة، التي تحوّل المهاجرين من الطلاب وغيرهم إلى معول لهدم فكر الأمة الإسلامي، ويصبحون مندوبين للغرب العلماني، يعملون لمصلحته مباشرة، ودون مقابل، وتكون المشكلة فيهم إذا استقروا في الغرب أنهم يحيون مثل الغربيين، ويربون أولادهم على سلوكياتهم، ولا يبقى من هوياتهم إلا الاسم والديانة.

لذا، فإن الشرط الأول: أن يكون المهاجر على مستوى كبير من النضوج العقلي الذي يميز به بين النافع والضار وينظر به إلى المستقبل البعيد وأما ذوو العقول الصغيرة والخبرات القليلة والنفوس الضعيفة، فهو خطر عظيم على دينهم، وخلقهم، وسلوكهم، ثم هو خطر على أمتهم التي سيرجعون إليها وينفثون فيها من السموم التي تشبعوا بها. أما الشرط الثاني: أن يكون عند المهاجر من علم الشريعة ما يتمكن به من التمييز بين الحق والباطل، ومقارعة الباطل بالحق لئلا ينخدع بما هم عليه من الباطل فيظنه حقاً أو يلتبس عليه أو يعجز

(١) المرجع السابق، ص٦٠، ٦٤ .

عـن دفعـه فيبقـى حـيران أو يتبـع الباطـل.

ويركــز الــشرط الثالــث: عــلى أن يكــون عنــد المهاجــر ديــن يحميــه ويتحصــن بــه مــن الكفــر والفســوق، فضعيــف الديــن لا يســلم مــع الإقامــة هنــاك إلا أن يشــاء الله وذلــك لقــوة المهاجــم وضعــف المقــاوم. فأســباب الكفــر والفســوق هنــاك قويــة وكثــيرة متنوعــة فــإذا صادفــت محــلاً ضعيــف المقاومــة عملــت عملها[1].وعــلى صعيــد آخــر، فــإن وجــود المهاجريــن المســلمين في الغــرب قــد أفــاد المســلمين أنفســهم، وســاهم في انتشــار الإســلام في الغــرب، فتزايــدت الأقليــات المســلمة في الغــرب وأمريــكا واســتراليا مســتفيدةً مــن أجــواء الحريــات واحــترام حقــوق الإنســان، وحاجــة هــذه البلــدان إلى مهاجريــن للعمــل في مشروعاتهــا التنمويــة، كــما أن الكثــير مــن المســلمين المهاجريــن اســتفادوا علميــا، عــلى الصعيــد الشــخصي، وكثــير منهــم أفــادوا بلدانهــم الأصليــة عندمــا عــادوا إليهــا، كخــبراء وعلــماء مرموقــين، المهــم ســبل الاســتفادة منهــم.

فلاشــك أن هجــرة المســلمين بعيــدا عــن ديــار الإســلام وبلدانهــم الأصليــة إلى البلــدان غــير المســلمة ســاهمت في انتشــار الإســلام وتقديــم صــورة حقيقيــة وواقعيــة عــن المســلمين، بعيــدا عــن الصــورة الذهنيــة المترســبة في الذهنيــة الغربيــة بشــكل عــام مــن العصــور الوســطى أو مــن كتابــات المســتشرقين، وتظهــر المســلمين: شــهوانيين، دمويــين، جهــلاء، أجــلاف، غــلاظ الطبــع، وتقرنهــم دائــما بالصحــراء، فصــورة المســلم

(١) مـا حكـم الإقامـة في بـلاد الكفـار؟، موقـع طريـق الإسـلام، فتـاوى الشـيخ ابـن عثيمـين، https:// ar.islamway.net/fatwa

أنـه يلبـس الغـترة والعقـال، ويركـب الجـمال، ويعـادي العلـم والتقـدم والعصرنـة. وقـد تحسـنت الصـورة مـن خـلال الاحتـكاك المبـاشر عندمـا شـاهدوا علـماء مسـلمين أكفـاء، وعـمالا مهـرة، وقبـولا للتعايـش والاندماج في المجتمـع الأوروبي، وإن وجـدت نـماذج مشـوهة، فهـي موجـودة في كل شـعب، ولكنهـا لا تنفـي المحصلـة الكليـة في تحسـين الصـورة اجتماعيـا وثقافيـا لمـن أراد معرفـة الحقيقـة، والوقـوف عـلى شـخصية المسـلم الحقـة.

صعود الإسلام وظاهرة الإسلاموفوبيا:

يمكـن القـول إن المحصلـة هجـرة المسـلمين إلى الغـرب، كانـت لهـا جوانـب إيجابيـة كثـيرة، وأن المسـلمين هنـاك تنوعـت علاقاتهـم بالمجتمعات الغربيـة مـا بـين العزلـة والمشـاركة الإيجابيـة الفاعلـة والانطـواء، وهنـاك طبعـا مـن ذابـوا في هـذه المجتمعـات الغربيـة، وظهـرت أجيـال مـن ذرياتهم لا تعـرف عـن دينهـا شـيئا، وهنـاك مـن هـم عـلى النقيـض، مـن المهاجريـن الأوائـل، أو مـن الهجـرات المتتابعـة بعـد ذلـك، التـي بـدأت بقـوة منـذ حقبـة الخمسـينيات مـن القـرن العشريـن، واشـتدت في العقـود الثلاثـة الأخـيرة، وهـم في جميـع الأحـوال قبضـوا عـلى الجمـر في سـنواتهم الأولى، حتـى اسـتطاعوا أن يعـززوا وجودهـم وهويتهـم في المجتمعـات الغربيـة، وانعكـس كل ذلـك في أنشـطة متعـددة، سياسـية وفكريـة ودينيـة واجتماعية، وهـذا مـا رصـده الكثـير مـن متابعـي الشـأن الإسـلامي في الغـرب، وهـم يرصـدون صعـود موجـة الصحـوة الإسـلامية، وقـد حصروهـا في أنـماط عديـدة تمثـل موقـف المسـلمين مـن الغـرب الأوروبي ومجتمعاتـه وتفاعلهـم

معـه.

حيـث يشـير المراقبـون بـأن هنـاك نمطـا أوليـا يمكـن نعتـه بخيـار رد الفعـل العشـوائي مـن قبـل المسـلمين ضـد الذوبـان والاسـتلاب، وتجسـده مجموعـات شـبابية تنشـط عـلى هامـش القانـون، موظفـة الرمـوز الإسـلامية في التعبـير عـن وضـع اجتماعـي. مما يعنـي أن وجـود المهاجريـن مـن الشـباب المتحمـس لدينهـم، جعلهـم رافضـين لأي غـزو ثقـافي أو تغريبـي . وهنـاك أيضـا مـن المسـلمين مـن اختـار العزلـة الجمعيـة وتمثّلـه نسـبة كبـيرة مـن الشـباب خاصـة في ضواحـي المـدن التـي تتسـم بكثافـة عاليـة مـن المسـلمين، حيـث يجـد هـؤلاء الأمـن في عمليـة التخنـدق في حمايـة الأسرة وشـبكات القرابـة في المجتمـع المسـلم، وأمـا ثمـن هـذا الدعـم فهـو الـولاء للمعايـير الجمعيـة للمجتمـع ذي الصلـة.

وهنـاك خيـار المشـاركة المحـدودة ويمثلـه عـدد مـن الشـباب الذيـن نجحـوا في اجتيـاز مراحـل التعليـم الأولى في الغـرب ودخـول الجامعـات ومعاهـد التعليـم العـالي، ويلعـب هـؤلاء دورا نشـطا في اقتصـاد البـلاد المسـتقبلة لهـم، لكنهـم يبقـون هـذه المشـاركة منفصلـة عـن حياتهـم في البيـت والمجتمـع الإسـلامي الضيـق. وثمـة خيـار آخـر، وهـو الانفصـال ذو الصـورة المتقدمـة، وذلـك بتأسيس أعضـاء الجاليـات المسـلمة منظـمات تهتـم بالأنشـطة الإسـلامية، وتشـارك أغلـب هـذه المنظـمات في إطـلاق الحمـلات عـلى المستوى المحـلي والأوروبي مـن أجـل الحصـول عـلى مجـال لهـا مـن الناحيـة الاجتماعيـة والسياسـية، وأمـا في داخـل المجتمـع الضيـق،

فقليل من الاهتمام بتبني طرق جديدة للحياة في المجتمع الأكبر. وهناك خيار الاندماج الفاعل والنشط، ويخصّ فئة من الشباب المسلم الذين تنازعهم رغبة حثيثة في البحث عن تطوير وسائل ثقافية جديدة لإثبات ذاتهم كمسلمين في الوقت الذي يحاولون فيه إيجاد طرق للمشاركة البناءة في المجتمع الأكبر، وهو المجتمع الأوروبي المسلم(١).

وبذلك، يتحقق للمسلمين في الغرب إمكانية كبرى في نشر الإسلام والحفاظ على هويتهم، والسعي إلى مواجهة التغريب الثقافي والفكري، وكذلك نشر الإسلام في أوروبا، وما ازدياد ظاهرة الإسلاموفوبيا ذات الجذور التاريخية إلا صدى لسرعة انتشار الإسلام في أوروبا بفضل وجود المهاجرين المسلمين هناك، وزيادة الأنشطة الإسلامية. فالملاحظ أن أعداد الذين يدخلون في الإسلام في العالم الغربي في تسارع مستمر للغاية، وهناك طفرات في نمو الجاليات المسلمة، واكبتها زيادة ملحوظة في المراكز الإسلامية والمساجد التي تخطت في انتشارها العواصم الغربية إلى كافة المدن الأوروبية الكبرى. بل إن أعداد المساجد في قلب أوروبا تنافس أعداد الكنائس في كل من باريس وروما ولندن، وأضحت نسخ القرآن الكريم المترجمة من أكثر الكتب مبيعاً في الأسواق الأميركية والغربية إضافة إلى انتشار الإسلام في السجون نفسها، نتيجة لنشاط الدعوة الإسلامية فيها، فأعداد المسجونين الذين يرغبون في دخول الإسلام في زيادة يوميا بصورة ملفتة، وهو ما أثار الهلع داخل

(١) الإسلام في أوروبا، التنوّع والهوية والتأثير، تحرير: عزيز العظمة وإيفي فوكاس، ترجمة وتقديم أحمد الشيمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط.١، ٢٠١١م، ص٣٩٩ وما بعدها.

الأوساط الغربية الأمنية والسياسية، وظهر في تحذيراتهم المعلنة والمتكررة من تنامي التيارات الأصولية الإسلامية كما ينعتونها. والمعلومات تشير إلى أن هجرة المسلمين المتتابعة كان لها أثر كبير في احتلال الإسلام المركز الثاني بعد المسيحية في العديد من الدول الأوروبية. ففي السويد، تبوّأ الدين الإسلامي المركز الثاني من حيث الانتشار بين الناس. وفق تقرير أعده المركز الإسلامي في العاصمة السويدية إستوكهولم. وهو ما حدا بالحكومة السويدية إلى الاعتراف به، وتدريسه في المدارس الحكومية هناك جنباً إلى جنب مع تعليم المسيحية. وفي ألمانيا تذكر الإحصائيات الرسمية التابعة أنه خلال الأعوام من ٢٠٠٦م و٢٠٠٧م و٢٠٠٨م يدخل كل ساعتين مسلم جديد في الإسلام. لتناقص في النمو السكاني الألماني، وأنّه قد خرج عن السيطرة، ويعلن اليمين الألماني أنه في عام ٢٠٥٠م، ستكون ألمانيا جمهورية إسلامية لا محالة، كما صرحت ألمانيا أنّه بعد عشرين سنة يكون في أوروبا ١٠٤ مليون مسلم، بما يعني نسبة وجود كبرى. فيبدأ في فرنسا، محذّرا أنَّ عدد مساجد فرنسا قد أصبح أكثر من عدد كنائسها، وامتد إلى جنوب فرنسا الذي يُعد أزحم المناطق في العالم بالكنائس، بل إنّ ١٠٠٠ مسجدٍ منها كانت كنائس سابقا، وأنَّ ٣٠٪ من الأولاد دون سن العشرين مسلمون، وفي المدن الكبرى يرتفع إلى ٤٥٪، ويقول: في عام ٢٠٢٧م سيكون خمس سكان فرنسا مسلمين، وفي غضون ٣٩ سنة ستصبح فرنسا جمهورية إسلامية. وتشير الإحصائيات أن في فرنسا ٢٣٠٠ مسجد و٧ ملايين

مسلم، ليصبح الإسلام الدين الثاني بعد المسيحية في فرنسا، وهناك توقعات بأن يمثل المسلمون ربع سكان فرنسا بحلول عام ٢٠٢٥م، وفي دراسة أعدتها وزارة الداخلية الفرنسية تقول: إن ٣٦٠٠ فرنسي يعتنقون الإسلام سنوياً.

وفي الولايات المتحدة نجد أنه خلال اثني عشرة سنة تم بناء أكثر من ١٢٠٠ مسجد في الولايات المتحدة الأمريكية بمعدل مئة مسجد سنوياً، والمفارقة أن معظم الذين يعتنقون الإسلام من الأمريكيين يصبحون دعاة للإسلام بعد التزامهم بشكل مذهل بتعاليم الإسلام. ويؤكد معظم الباحثين أنه بالرغم من عدم وجود إحصائيات دقيقة بأن أكثر من عشرين ألف أمريكي يعتنقون الإسلام كل عام وذلك بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر[(١)]. وكل هذا ناتج عن نشاط الجاليات المسلمة في الغرب، وكيف أنها قدمت صورة صحيحة عن الإسلام، من خلال سلوكياتهم وأخلاقهم، ويواجهون بذلك الصورة النمطية المترسبة في الوعي الغربي عن الإسلام، منذ الحروب الصليبية في القرون الوسطى، وقوة الدولة العثمانية التي كانت نموذجا في قوة الإسلام، لعدة قرون، وكانت مسيطرة بشكل مطلق على التجارة والبحار، خاصة في البحر المتوسط.

والهجرة إلى أوروبا في تصاعد مطرد، حيث تشير التقارير الدولية

---

(١) ظاهرة انتشار الإسلام في الغرب حقائق وهواجس، محمود الأحمد، مجلة الوعي، بيروت، العدد ٢٨٧-٢٨٨، السنة ٢٥، ذو الحجة ١٤٣١هـ، محرم ١٤٣٢هـ، الموافق تشرين الثاني وكانون الأول ٢٠١٠م، ص٤٤- ٤٨.

إلى أن أوروبا هي الوجهة الأولى للمهاجرين المسلمين من أقطار آسيا وأفريقيا، وذلك نظراً إلى القرب الجغرافي، والروابط اللغوية والتاريخية، والفرص الفعلية أو المنشودة في العمل وتحسين الأوضاع الاقتصادية، والشبكات القائمة، وهي أيضاً وجهة يختارها الكثيرون من طالبي اللجوء، خاصة مع الاضطرابات الهائلة التي تعيشها الأمة العربية سياسيا واقتصاديا، وكثير من المهاجرين يتخذون من البحر وسيلة للوصول إلى شواطئ أوروبا، والإحصائيات المعلنة مقلقة، ودالة على أن الهجرة تنمو طرديا مع عدم الاستقرار في دول جنوبي البحر المتوسط، فقد شهد الطريق الوسطي للبحر الأبيض المتوسط أوسع موجات الهجرة وأسرعها نمواً، إذ بلغ عدد الوافدين إلى إيطاليا وحدها ١٧٠٠٠٠ شخص في عام ٢٠١٤، أي ما يفوق بأربع مرات عدد الوافدين المسجلين في عام ٢٠١٣، وهو أكبر الأرقام المسجلة، وارتفع عدد المغادرين من تونس وليبيا منذ انتفاضات عام ٢٠١١، ومن مصر منذ عام ٢٠١٣ . وفي عام ٢٠١٤، شكل المهاجرون من ليبيا حوالى ٩٠ في المائة من الوافدين إلى أوروبا عبر المتوسط، في ارتفاع كبير عن الأعوام الماضية، على أثر تردي الوضع الأمني في البلد، أما المهاجرون من الجنسيات الأخرى، فمن مالي(٩٩٣٨)، وفلسطين(٦٠٨٢) والصومال(٥٧٥٦) وهم يشكلون حوالى ٥٨ ٪ من عدد الوافدين إلى إيطاليا، ومعظمهم عبر الطريق البحري في البحر الأبيض المتوسط. أما المهاجرون الآخرون الذين رُصدوا في موجات الهجرة نفسها،

فقـد هاجـروا لـدواع إنسـانية واقتصاديـة، ومنهـم مواطنـون مـن نيجيريـا، وغامبيـا، والسـنغال، والكامـيرون، والنيجـر، ومـن بلـدان أخـرى مـن أفريقيـا جنـوب الصحـراء. كـما رصـد وصـول أكثـر مـن ٤٠٠٠ مهاجـر مـن مـصر عـبر البحـر الأبيـض المتوسـط في عـام ٢٠١٤م[١].

جـلّ العوامـل المتقدمـة سـاهمت في تقويـة ظاهـرة الإسـلاموفوبيا Islamophobia، وتتعلـق بالاتجاهـات السـلبية ضـد الإسـلام المسـلمين عامـة لـدى الغـرب، وهـي الظاهـرة التـي انعكسـت بشـكل واضـح في الأدب، وفي السـلوكيات، وتنامـي العنصريـة، ضـد المهاجريـن المسـلمين، الذيـن يتأطـرون في جماعـات تعـود غالبـا إلى البلـدان التـي وفـدوا منهـا، أو في قطاعـات عماليـة بحكـم أنهـم مجتمعـون في عمـل واحـد، وقـد تحولـت الإسـلاموفوبيا في حـالات عديـدة إلى موجـات عنـف[٢]، وقـد أصبحـت جـزءا أساسـيا مـن نشـاط المفكريـن والباحثـين في أوروبـا والغـرب عامـة، في نظرتهـم إلى الإسـلام بوصفـه دينـا وثقافـة وحضـارة تهـدد الحضـارة الغربيـة، وتتصـادم معهـا، وتـرى أن الإسـلام هـو العـدو المقبـل بعـد انهيـار الشـيوعية، وقـد اشـتدت الظاهـرة، في العـام ١٩٨٥م، عندمـا نـشر الفاتيـكان أول إحصائيـة، ذكـر فيهـا لأول مـرة في التاريـخ أن عدد المسـلمين فـاق عـدد الكاثوليـك في أوروبـا، مما أدى إلى بـزوغ الحملـة المسـعورة ضـد

(١) تقرير الهجرة الدولية لعام ٢٠١٥م، ص٢٠.

(2) Islamophobia and its origins, A study among Dutch youth, Henk Dekker & Jolanda van der Noll,
Multidisciplinary Approaches. Workshop: The Role of Emotions in Interethnic Relationships of Muslims: Feminism and Masculinities Friday, 15th May 2009. P2.

الإسلام والمهاجرين. وقد تم هذا، على الرغم من وجود اتجاهات معاكسة، تنادي بالتعايش والاحترام المتبادل بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية[1].

فالمشهد في الغرب نحو المهاجرين المسلمين يتراوح بين فئة من اليمينيين المعادين للمهاجرين بشكل عام، والمسلمين بشكل خاص، والراغبين في الإبقاء على إرث الرجل الأبيض، الذي اعتاد على الشعور بالتميز والاستعلاء على شعوب الأرض، التي تنتظر أن يأتي إليها مستعمرا لأرضها، من أجل تنمية ثرواتها التي لا تعرف كيف تستغلها لجهلها وتخلفها، بجانب مزج هذا الإرث بالمسيحية، فقارة أوروبا هي قلعة المسيحية في العالم، ويتزعمها الفاتيكان. وأمريكا والعالم الجديد كانت حاضنة للنصارى المتطهرين الفارين من عسف أوروبا قديما. وهناك أيضا شريحة واسعة من المجتمع الغربي، تتعامل مع المهاجرين بإنسانية وتسامح وأريحية، مدركة أن قارتهم الأوروبية العجوز تعاني من تراجع السكان وشيخوختهم، ولولا المهاجرون لتراجعت التنمية في بلادهم، وأنهم يشاركون في مدخول الدولة من الضرائب، فلهم نفس الحقوق، وعليهم أيضا نفس الواجبات، ولا معنى لهذا التعامل القاسي، فما دام الغرب في حاجة للمهاجرين، فلماذا يعاديهم ويحاربهم؟ إما أن يحسن استقبالهم أو لا يستقبلهم من الأساس، ولكن لا مبرر للأعداء.

---

(١) الإسلام والإعلاموفوبيا، ص١٠٤، ١٠٥.

الانتماء والمواطنة في الغرب، رؤية إسلامية:

تتبدى الإشكالية التي نراها الآن في قضية الانتماء الوطني الذي يرفع شعاراته البعض، وتنعكس في فقه الهجرة والمهاجرين، من خلال أسئلة تتصل بعلاقة المهاجر المسلم بالدول التي يقيم فيها، وطبيعة الانتماء لحدود هذه الدول، خاصة أنها ليست مسلمة، وعلمانية الطابع. ولكنه يتمتع بجنسيتها، وتربى فيها أولاده وتعلموا، وأصبح لديهم انتماء وذكريات وتعلق بهذه البلدان، فنحن نبحث هنا علاقة المنظور الإسلامي للهجرة في ضوء مفاهيم الوطنية والمواطنة.

وبداية، لابد من الإشارة إلى أن الوطنية تستند في أبعادها الشعورية إلى مفهومي الانتماء والولاء واللذين قد يصلان إلى التعصب لمساحة محدودة من الأرض، بحدود سياسية، يُرادُ من اتخاذها تكوين وحدة وجودية يرتبط تاريخها القديم بتاريخها المعاصر ليكون وحدة متكاملة ذات شخصية مستقلة، ويترتب عليها مفهوم المواطنة Citizenship الذي يعني التزامات متبادلة بين المواطنين والدولة الوطنية، يحصل بها المواطن على حقوقه السياسية والاجتماعية والاقتصادية، في مقابل ولائه وانتمائه إلى هذا المجتمع[١]. وهو المفهوم الذي سنشير إليه لاحقا، ويتعلق بفكرة التبادلية في الولاء، والحقوق والواجبات، بين الدولة الوطنية الحديثة، وبين السكان الذين يعيشون على أرضها، ويحملون جنسيتها، ويلتحقون بوظائفها، وقد

(١) موسوعة العلوم الاجتماعية، تحرير: ميشيل مان، ترجمة: عادل الهواري، سعد مصلوح، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، ص١١٠.

ينتسبون إلى جيشها ومنظوماتها الأمنية، وغير ذلك من شؤونها، في مقابل إسباغ هذه الدولة الحماية الاجتماعية والسياسية والحقوقية على الفرد. وتتميز الدول الأوروبية وأمريكا غيرها من أقطار المهجر بوفاء الدولة لمن حمل جنسيتها بكل حقوقه، وإن كان مختلفا في جذوره وأصوله الدينية والعرقية، مما يلزم الفرد بضرورة أداء حقوق هذه الدولة له.

لذا، فإن التعريف الذي يحدد علاقة المواطنة بالانتماء يشير إلى أن المواطنة هي الانتماء إلى أمة أو وطن. وتعرف بأنها مكانة أو علاقة اجتماعية تقوم بين فرد ومجتمع، ومن خلال هذه العلاقة يقدم الطرف الأول الولاء، ويتولى الطرف الثاني الحماية، وتتحدد هذه العلاقة بين الفرد والدولة عن طريق القانون[1]، مما يؤدي إلى نتائج عديدة، منها شعور الفرد بالروابط المشتركة بينه وبين بقية أفرد الجماعة، ومنها روابط: الدم، والجوار، والموطن، وطريقة الحياة بما فيها من عادات، وتقاليد،، ونظم، وقيم، وعقائد، ومهن، وقوانين. وكذلك، شعور الفرد باستمرار بانتمائه إلى هذه الجماعة على مر العصور، وأنه مع جيله نتيجة للماضي، وأنه وجيله بذرة المستقبل، بجانب شعور الفرد بالارتباط بالوطن وبالانتماء للجماعة، أي ارتباط مستقبله بمستقبلها، وانعكاس كل ما يصيبها على نفسه، وكل ما يصيبه عليها، واندماج هذا الشعور في فكر واحد، واتجاه واحد، وحركة واحدة[2].

---

(١) الموسوعة العربية العالمية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٦م، مفهوم المواطنة.

(٢) التربية الوطنية (طبيعتها، فلسفتها، أهدافها، برامجها)، أبوالفتوح: رضوان، جامعة الدول العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٠م، ص٢٢ .

أيضـا، فـإن هنـاك فرقـا بـين الوطنيـة والمواطنـة، فالوطنيـة أكثـر عمقـاً، أو أنهـا أعـلى درجـات المواطنـة، فالفـرد يكتسـب صفـة المواطنـة بمجـرد انتسـابه إلى جماعـة أو لدولـة معينـة، ولكنـه لا يكتسـب صفـة الوطنيـة إلا بالعمـل والفعـل لصالـح هـذه الجماعـة أو الدولـة، وتصبـح المصلحـة العامة لديـه أهـم مـن مصلحتـه الخاصـة. والحديـث عـن المواطنـة والوطنيـة يختلـف عـن الحديـث عـن الانتـماء والـولاء، فأحدهمـا جـزء مـن الآخـر أو مكَمِّـل لـه. فالانتـماء مفهـوم أضيـق في معنـاه مـن الـولاء، والـولاء في مفهومـه الواسـع يتضمـن الانتـماء، فلـن يحـب الفـرد وطنـه ويعمـل عـلى نصرتـه والتضحيـة مـن أجلـه إلا إذا كان هنـاك مـا يربطـه بـه، أمـا الانتـماء فقـد لا يتضمـن بالـضرورة الـولاء، فقـد ينتمـي الفـرد إلى وطـن معـين ولكنـه يحجـم عـن العطـاء والتضحيـة مـن أجلـه[1].

وتكـون الإشـكالية في المنظـور الإسـلامي بـأن مـا تنـادي بـه الوطنيـة هو انتـماء يخالـف مـا درج عليـه المسـلمون، ويرتبـط بمصطلـح الدولـة الوطنيـة أو القوميـة في أوروبـا، التـي بـدأ يتسـرب إلى العـالم الإسـلامي منـذ النصـف الثـاني مـن القـرن التاسـع عـشر، حيـث يكـون الانتـماء المعلـن لـلأرض، ويتقـدم عـلى العقيـدة ورابطـة الديـن، وهـو مـا خالـف الرابطـة الإسـلامية التـي اعتمدتهـا الخلافـة الإسـلامية، طيلـة عصورهـا، التـي تجمـع المسـلمين تحـت مظلـة الشريعـة الإسـلامية، وإن تعـددت جنسـياتهم، وتنوعـت قومياتهـم ولغاتهـم وأعراقهـم، كـما تحمـي أيضـا الأقليـات غـير المسـلمة.

---

(١) دور كليـات التربيـة في تأصيـل الـولاء الوطنـي، د.عبـدالله عبدالتـواب، مجلـة دراسـات تربويـة، القاهـرة، ١٩٩٣ م، ص٧٧.

وكانت الخلافة علامة على وحدة ووجود الإسلام: الدين والشريعة والدولة والمظلة الجامعة للمسلمين، واستمر ذلك طيلة حكم الدولة العثمانية، حتى إلغاء الخلافة وتفكيك الدولة، وما استتبعه من تأسيس دول قطرية حسب المفاهيم الغربية.

ونستطيع من خلال المقارنة بين الهجرة وفق الرؤية الإسلامية، التي تربطها بما هو إيماني، ومفهوم المواطنة، أن ندرك الفرق بينهما، فالهجرة في أهم دلالاتها الإسلامية هي هجرة ولجوء إلى الله، والبعد عن أرض الشرور، أما الهجرة وفق مفهوم المواطنة، فإنها هجرة من دولة لها حدود معلومة سياسية، إلى دولة أخرى، لدواع إنسانية شخصية تخص المهاجرين مثل: الفرار من النزاعات، والعنف المتفشي، والاضطهاد، وتعطل النظام العام، والمجاعة، والجفاف، ورغبةً في الانضمام إلى أفراد الأسرة في الخارج، وهرباً من الضائقة الاقتصادية، وسعيًا للحصول على سبل عيش وفرص أفضل للحياة في أوطان ودول أخرى(١)، فتلك من حقوق الإنسان على مر العصور.

وينبغي التأكيد على أن الرؤية الإسلامية للانتماء للدين، من خلال إعلاء رابطة العقيدة الإسلامية؛ لا تمنع المسلم من الارتباط بالأرض بوصفها موطنا عاش وتربى فيه، بمعنى أن دلالة الوطن لا تقتصر على مكان الولادة والنشأة، وإنما لكونه مكان العيش والإقامة؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم استوطن المدينة بعد هجرته من مكة موطن

(١) تقرير الهجرة الدولية لعام ٢٠١٥م: الهجرة والنزوح والتنمية في منطقة عربية متغيرة، منشورات الأمم المتحدة والمنظمة الدولية للهجرة، ٢٠١٥م، ص١٩.

ولادته، ونشأته وبعثته. فالوطن هو محل إقامة الإنسان، ومحبة الأوطان جبلة في البشر، وهي مشروعة من حيث الأصل[1]، ولكن أن تتحول الحدود إلى مقدسات تتقاتل من أجلها الشعوب المسلمة، فإن ذلك مرفوض في الإسلام وشريعته.

فجوهر المشكلة في مفهوم المواطنة في الرؤية الإسلامية، هي طبيعة الانتماء ذاته فالمسلم انتماؤه الأساسي لدينه وعقيدته، وليس للأرض، لأن الأرض كلها ملك لله، وما حنيننا إلى بقعة ما إلا لذكرى الإقامة والعيش فيها، بعكس الانتماء ذي المفهوم العلماني الدنيوي، الذي يجعل المواطن يتخطى عقيدته لينتمي إلى أرض مرسومة حدودها أو إلى قومية أو قطرية، ويقدمها على إيمانه الديني.

وقد تطور الفقه المعاصر وانفتح إيجابيا على مفهوم المواطنة، ناظرا إلى كون المواطنة علاقة تبادلية بين أفراد مجموعة بشرية تقيم على أرض واحدة، وليست بالضرورة منتمية إلى جد واحد، ولا إلى ذاكرة تاريخية موحدة، أو دين واحد. يؤطرها دستور ونظم وقوانين تحدد واجبات وحقوق أفرادها، بشكل تعاقدي، فالذي ينضم إليه اليوم له نفس الحقوق التي كانت لأقدم عضو»[2].

فالدول في العصور القديمة والوسطى، وإلى فترة قريبة كانت تقوم على رابطة دينية أو عرقية/ قومية أو قبلية، وكلها تساعد على

(١) حب الوطن.. رؤية إيضاحية شرعية، ٢٣ / ٧ / ٢٠١٧م، رقم الفتوى: ٣٤٦٨١٩، موقع إسلام ويب. https://fatwa.islamweb.net/ar/fatwa/346819/

(٢) صناعة الفتوى وفقه الأقليات، ص٣٦٠.

التجانس بين الشعب، أما الدولة الحديثة المشار إليها، فهي أقرب إلى الطابع المدني، وليس الريفي القبلي، فكل من يعيش فيها، ويحمل جنسيتها أو الإقامة القانونية فيها، ويقوم بما يجب عليه من واجبات مثل العمل ضمن هيئاتها ومؤسساتها، ودفع الضرائب والامتثال إلى القانون، فهو لديه حقوق فيها، مثل حمايته، وتوفير الأمن له، وأوجه التأمينات المختلفة مثل الرعاية الصحية والمعاش التقاعدي والإعانة في حالة البطالة. وسنلاحظ أن المفهوم السابق ركّز على مفهومي: المبادلة والتعاقدية، فالمبادلة هي حقوق المواطن تقابلها واجباته، والتعاقدية هي الرابطة الدستورية، أو ما يسميه الفقهاء القانونيون: العقد الاجتماعي، الذي يكون بين المواطن وحكومته حول الحقوق والواجبات. وكلها مقبولة في المنظور الإسلامي، خاصة أنها تركز على المساواة بين أبناء الوطن الواحد. مما أوجد ترحابا لدى عدد من المفكرين الإسلاميين المعاصرين، خاصة مع التركيز على صيغة قبول غير المسلمين ضمن الشعب في الوطن الواحد[1].

وهو ما يؤكده الاجتهاد الإسلامي المعاصر بأن « قيم هذه المجموعة (في الدولة الدستورية) في المفهوم الحديث، هو عكس المفهوم التاريخي الذي يقوم على العرق أو الدين أو التاريخ المشترك، على فرضية أن التنوع نفسه يصبح قيمة كبرى من خلالها يكون الانسجام من

(١) مفهوم الوطنية والمواطنة في الفكر الإسلامي المعاصر، إسماعيل نقاز، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد ٥، العدد١، ص٢٤١، البوابة الجزائرية للبحوث والدراسات، https://www.asjp.cerist.dz/en/article/33093

طريق التفاعل بين مختلف الخصوصيات للوصول إلى المصالح الكبرى للمجموعة، بتفعيل المشترك الإنساني، وتحييد عنصر الإقصاء والطرد، كما يستبعد عنصر نقاء النسب، الذي يؤدي إلى تقسيم المواطنين إلى درجات كما كان عند الرومان أو العرب في الجاهلية»[1].

فثمة قيم عديدة يحض عليها الإسلام، تتمثل في المساواة، وأن الأشخاص لا يتم تقويمهم على أساس عرقي أو ديني أو تاريخي أو على أساس النسب، وإنما هم متساوون، ما داموا يحملون الجنسية وحق الإقامة في الوطن. فلا درجات ولا مراتب بين الناس، وتلك من غايات الإسلام العليا، وهي المساواة بين البشر جميعا، فلا فرق بين عربي على أعجمي، ولا لأحمر على أسود، إلا بالعمل الصالح، الذي يعني خدمة الناس، والوطن، إذا أخلص النية لله تعالى.

وفي منظور الهجرة في عالمنا المعاصر، سنجد أنفسنا أمام واقع جديد، حيث حصل المهاجرون على حقوق في المهاجر التي عاشوا فيها منذ عقود، وصاروا يعاملون معاملة متساوية مع أهل البلدان الأصليين- بغض النظر عن صيحات العنصرية واليمين المتطرف الذي نراها هنا أو هناك-، مما يعني أنهم مواطنون على درجة واحدة من المساواة، وهذا مكسب لهم على المستوى الشخصي، مثلما هو مكسب للمسلمين في أقطار الهجرة، حيث يصبحون مواطنين، ويمكنهم الدعوة للإسلام، وتأسيس الجمعيات والمراكز الإسلامية بشكل قانوني وشرعي.

لذا، فمن المهم التنبيه على أن المواطنة لها إحساس خاص بها في

---

(١) صناعة الفتوى وفقه الأقليات، ص٣٦٠.

وجدان من يعيش في أرض جديدة، ويجد فيها له من الحقوق الكثير، ويشعر بالاحترام لذاته كإنسان، ومنذ وجوده على هذه الدولة، وتمتعه بكثير من المزايا وأوجه الرعاية، ذلك أن « رباط أو رابطة اختيارية معقودة في أفق وطني يحكمه الدستور، أو ما يسمى بالوطنية الدستورية، أي شعور الفرد بانتمائه إلى جماعة مدنية مؤسسة على المشاركة في القيم الأساسية. فالمواطنة تتسامى على الفئوية، ولكنها لا تلغيها، والمطلوب أن تتواءم معها وتتعايش معها تعايشا سعيدا. ولعل ذلك أهم تحول في مفهوم المواطنة في العصر الحديث، ولعله هو أهم جسر لتكون القيم الدينية لكل مجموعة بشرية محترمة ومقبولة. وهذا يلتقي مع المفهوم الإسلامي للتعايش البشري، والمسلم لا يجد حرجا بل قد يكون متعاونا معها»[1].

ولاشك أن هذا التحول الجديد في مفهوم المواطنة، الذي تطور مع زيادة الهجرات إلى الغرب بشكل عام، ووجود أقليات مسلمة تتمتع بحقوق العيش المشترك فيما يسمى بمفهوم التعايش، الذي يستخدم في الأدبيات السياسية من أجل دعم التعاون بين الدول المختلفة في نظمها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، واتسع المصطلح ليشمل الطوائف والأقليات والمهاجرين في الدولة الواحدة، بغض النظر عن اختلاف دياناتهم أو أعراقهم أو ثقافاتهم أو بلدانهم الأصلية[2].

(١) المرجع السابق، ص٣٦٠، ٣٦١.

(٢) مشكلة الحرب والسلام، كتاب جماعي، معهد الفلسفة وأكاديمية العلوم- موسكو، ترجمة: شوقي جلال، وسعد رحمي، موسكو، دار الثقافة الجديدة، د ت، ص٢١٠ .

فلاشك أن المفاهيم السائدة في الدول الغربية حول القانون والدستور والتعايش هي نابعة من القيم الإنسانية بشكل عام، في ضوء انتشار ثقافة حقوق الإنسان، وتعزيزها في الغرب كجزء من التراث السياسي والقانوني والأخلاقي لديهم، على الرغم من المرجعية العلمانية التي تحكمها، ولكنها تعبر عن رغبة الشعوب الغربية، وغيرها من شعوب العالم المتقدم، أن تتجنب الحروب، وأن تستفيد من موجات المهاجرين إلى بلدانها، في ضوء تناقص الشعوب الغربية، وافتقادها الشديد للأيدي العاملة اللازمة لنهضتها وتنميتها، لذا ترحب بالمهاجرين، وتساعدهم على الاندماج والتوطين في بلادها. وفي هذا المنعطف التاريخي لتشكل المجتمع الغربي، الذي يكون المسلمون كغيرهم جزء منه، ومن خلال الوحدة الكبرى لأوروبا؛ على المسلمين أن يشاركوا في تحقيق مفهوم المواطنة الذي يستوعب مختلف الانتماءات، ليكونوا مدركين لمشكلات أوطانهم وعلى دراية بأسبابها وطبيعتها، حتى يتفاعلوا مع الأغلبية ويصوغوا معها المعايير الجديدة للمواطنة، وذلك لا يكون إلا بتجاوز الذات، لتحديد أبعاد المواطنة مبادئها، وأهمها: احترام الآخر، والاعتراف بوجود ديانات وثقافات مختلفة، وتحقيق الحريات والاشتراك في إدارة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بعيدا عن العنف، لتكون المواطنة بوتقة تنصهر فيها كل الانتماءات ويقدر الانسجام والانتظام بين هذه العناصر والجماعة، فيجد المواطن نفسه في الوطن، وتجد الجماعة مكانتها في نفسه[1].

(١) صناعة الفتوى وفقه الأقليات، ص٣٦١.

وهو مفهوم يقرأه المختصون في الهجرة من الزاوية الاقتصادية، باعتماد نظرية المنفعة، التي هي تحقيق أقصى ما يمكن من السعادة لأكبر عدد من الناس. فالمنفعة هي المعيار، ثم تأتي البوصلة الأخلاقية تابعة لها، على الرغم من اعتراض السكان الأصليين في الدول، وهم يرون وجوها وملامح غريبة تملأ شوارع بلادهم ومصانعها، مما يجعلهم يطرحون سؤالا: من نحن؟ وهو سؤال خاص بالهوية الوطنية، ويرد عليهم الاقتصاديون، بأن لا معنى لهذا السؤال الآن، فبعد قرن من الزمان، ستكون الإجابة بـ « نحن» تعني كل من يعيش على أرض الوطن، سواء كانوا المنحدرين من السكان الأصليين الموجودين حاليا في الوطن، ومن أبناء المهاجرين الذين نالوا حق المواطنة، ويساهمون في بناء الوطن والعمل به على قاعدة المساواة، وربما تكون الرؤية المتفائلة بأن السكان الأصليين سيتزوجون من المهاجرين، وستكون هناك أجيال جديدة هي نتاج مشترك، بهوية وطنية واحدة. أما الرؤية المتشائمة، فإنها ترى أن السكان الأصليين قد يهاجرون إلى أوطان أخرى، عندما يرون وطنهم الأصلي مختطفا من المهاجرين، لذا، ينادون بأهمية وضع قيود صارمة على استقبال المهاجرين بشكل عام، حفاظا على النسيج الوطني الخاص بهم(١).

وهذا توجه يزيده اشتعالا في المجال السياسي «اليمين المتطرف»، الذي هو مصطلح سياسي يُطلق على الجماعات والأحزاب ذات توجه

(١) الهجرة، كيف تؤثر في عالمنا؟، بول كولير، ترجمة: مصطفى ناصر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ٢٠١٦م، ص٦٤، ٦٥.

معين، من أجل تحديد ووصف موقعها في المحيط السياسي. والفرق بين اليمين التقليدي واليمين المتطرف أن الأول يسعى للحفاظ على التقاليد وحماية الأعراف داخل المجتمع (كما نراه في حزب المحافظين في بريطانيا، والحزب الجمهوري في الولايات المتحدة)، أما الثاني (اليمين المتطرف) فهو يدعو للتدخل القسري واستخدام العنف للحفاظ على تلك التقاليد والأعراف، وأحزاب اليمين المتطرف في أوروبا تتصف بالتعصب القومي لأعراقها، مثل الفاشية والنازية والقومية المتطرفة التي هيمنت على أوروبا في حقبة ما بين الحربين العالميتين، ودفعتها نحو الحربين العالميتين الأولى والثانية. كما يتبنى اليمين المتطرف التعصبَ الديني ومعاداة المسلمين خاصة والمهاجرين عامة، وتنظر أحزاب اليمين المتطرف إلى المهاجرين على أنهم أسباب في ازدياد البطالة، والتدهور الاقتصادي، وفداحة الضرائب، ورخاوة العدالة، والمستوى السيئ للنظام التعليمي وغيرها. وكلها أفكار وشعارات طُرحت في خطاب اليمين المتطرف وكانت أشبه ما تكون «بالحزمة الشاملة»، ذلك لأنهم يرون أن ما يحدث من جرائم وسرقات بسبب زيادة الهجرة وأن لدى المسلمين والمهاجرين الأجانب عادات وتقاليد جلبوها من بلادهم الفقيرة فلا يحبون أن تدخل مثل تلك العادات بلادهم. وعلى الرغم من أن تشكيلات ومشارب أحزاب اليمين المتطرف تختلف حسب السياقات الخاصة بكل بلد، إلا أنها تجتمع كلها في خصائص عامة ومرتكزات إيديولوجية تميزها بوصفها تيارا

سياسيا واحدا ومتجانسا، ومن هذه الخصائص النزعة الوطنية المفرطة والرافضة لكل أشكال الاندماج الإقليمي (كونفدرالية، اتحاد قاري، إلخ) بحجة حماية السيادة الوطنية. كما أن لليمين المتطرف نزعة متأصلة نحو رفض الرأسمالية والليبرالية ليس لذاتهما وإنما خوفا من التحولات العميقة التي عادة ما تصاحبهما خاصة على مستوى القيم والأخلاق. بل إن اليمين المتطرف معروف بتحفظه على بعض مقتضيات مواثيق حقوق الإنسان في الغرب، ودافعه إلى ذلك أسباب دينية نابعة من التقاليد المسيحية[١].

إننا إذا قرأنا اليمين المتطرف في ضوء الإرث الغربي، سنجد أنه يعبر عن وجه الغرب الاستعماري، الذي يمجّد حضارة الرجل الأبيض، ويجعله فوق البشرية، ويستعيد مقولات المركزية الغربية، وتمحورها حول ذاتها الاستعلائية على بني البشر، خاصة أنهم يرون مهاجرين ملونين يملأون بلادهم، ويتمتعون بنفس الحقوق والمزايا.

أيضا فإن اليمين المتطرف يستعيد الإرث الكنسي المسيحي، الذي يرى أن أوروبا نصرانية، وأن الاتحاد الأوروبي ناد مسيحي مغلق، فيرفعون شعارات معادية للمسلمين. مستعيدين التاريخ الغربي المعادي الخلافة الإسلامية العثمانية، التي كانت تهديدا لأوروبا، خاصة مع صعود العثمانية الجديدة، ممثلة في رجب طيب أردوغان،

---

(١) صعود اليمين المتطرف الاسباب والتداعيات: دراسة تحليلية، ريناس بنافي، لمركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا، ١٢/ ٥/ ٢٠١٧م.

https://democraticac.de/?p=46400

والإيديولوجية والشعارات المعتزة بمرجعيتها الإسلامية، على الرغم من أنه حكم ديمقراطي نزيه، ويتبع أسس الدولة العلمانية، ولكن الجديد فيه أنه تصالح مع التاريخ العثماني بكل منجزاته الضاربة في التاريخ، من خلال دولة الخلافة العثمانية التي امتدت ما يقارب ستة قرون، وهو التوجه الذي يخالف إرث مصطفى كمال أتاتورك، مؤسس تركيا العلمانية الحديثة. فتجربة تركيا، التي لها جاليات كبيرة في ألمانيا، ساهمت في تأجيج نزعة اليمين المتطرف بشكل عام، خاصة أنهم يقدمون تجربة إسلامية ديمقراطية عصرية راقية[1].

في ضوء ما سبق، سنكتشف أن الهجرة ليست مجرد حركة انتقال بشري من أرض إلى أخرى، ولا هجرة اختيارية قام بها مجموعة من الراغبين إلى أقطار العالم الأكثر تقدما، بحثا عن الأمان والحياة الكريمة، وإنما هي كاشفة عن الكثير من الظروف التي تعاني منها الأقطار الفقيرة في العالم الإسلامي وغير الإسلامي، وتشهد على الأزمة التي يعيشها العالم اليوم، حيث تشتعل الحروب، ويكثر الفساد، ويعم الاستبداد والمظالم، ولا وجود لتنمية حقيقية تستثمر الطاقات البشرية والموارد الطبيعية في بلدان العالم الثالث، فيضطر سكانها إلى الهجرة، خاصة أن أوروبا تحمل في مخيلتهم الحياة الرغدة، واحترام حقوق الإنسان، ووجود فرص العمل.

*****

(١) الشيخ الرئيس: رجب طيب أردوغان، مؤذن إسطنبول ومحطم الصنم الأتاتوركي، شريف تغيان، دار الكتاب العربي، دمشق- القاهرة، ط١، ٢٠١١م، ص١٠٤.

يمكن القول إن الهجرة ليست قضية سكانية، وإنما هي قضية ذات أبعاد متداخلة: ثقافيا، وحضاريا، وسياسيا، واقتصاديا واجتماعيا، تفرض علينا أن ننظر إلى الأقطار المستقبلة للمهاجرين ونسعى إلى إيجاد فقه لهم، يكون قاعدة لنشر الإسلام فيها، والعيش في أمان، بدون ذوبان أو استلاب أو فقدان للهوية الإسلامية.

وفي الوقت نفسه، تطرح الهجرة عشرات الأسئلة المتعلقة بالأقطار والبلدان المصدرة للمهاجرين، وخسارتها لعقول مبدعة، وقوى عاملة منتجة، نتيجة تسلط سياسي، أو غياب التخطيط الاقتصادي، ذلك أن فقدان العقول والأيدي العاملة المهارة، هي الخسارة الأشد على أي دولة، تروم النهضة. وقد رأينا أمثلة تثير العجب عن دول عربية ومسلمة، تستعين بخبراء أجانب، وهي لا تعلم أن لديها في الداخل على أرض الوطن، أو في المهاجر خبراء أكفاء من أبناء المسلمين.

خاتمة

في ختـام هـذا الكتـاب نتوصـل إلى عـدة نتائـج، يمكـن بلـورة أبرزهـا في النقـاط الآتيـة:

أولا: يمكـن تطبيـق المنهجيـات الحديثـة في مجـالات العلـوم الإنسـانية في تقاطعاتهـا الثقافيـة والاجتماعيـة واللغويـة، في قـراءة تراثنـا، مـن خـلال الآليـات والإجـراءات التـي يتسـلح بهـا الباحـث، وتعطيه مسـارات يسـلط بهـا الضـوء عـلى مسـاحات جديـدة في تراثنـا، والخلـوص بنتائج جديـدة، خاصـة فيـما يتعلـق بقضايـا مثـارة في السـاحة الفكريـة.

ثانيـا: تعـددت الـدلالات القرآنيـة للهجـرة، لتشـمل الهجـرة إلى الله، وهجـر المعـاصي، والهجـرة مـن ديـار الكفـر إلى ديـار الإيـمان، كـما أثنـى المـولى -جـل وعلا- عـلى المهاجريـن، ودورهـم في بنـاء الدولـة الإسـلامية الوليـدة في المدينـة.

ثالثـا: إذا ذُكِـر المهاجـرون فـإن الأنصـار يذكـرون، ذلـك أن دور الأنصـار لا يقـل عطـاء وبـذلا عـن المهاجريـن، وقـد ضربـوا المثـل والقـدوة في الإيـمان والقـدوة والإيثـار، ومـن الممكـن أن تنسـحب الدلالـة عـلى كل مـن يـأوي مهاجـرا لاجئـا، فـرّ بدينـه أو مـن الظلـم والفسـاد.

رابعـا: لا يمكـن قـراءة حـدث الهجـرة في السـيرة النبويـة دون النظـر إلى

مجمل الأحداث في السيرة: المقدمات والنتائج، والظروف والملابسات التي أحاطت بها، وفي ضوء النفسية العربية الجمعية، ونظرتها إلى الدين الجديد، الذي جاء سهلا سلسا، وتكفل بحل المشكلات التي يعاني منها العرب في الجزيرة العربية، مثلما أن لديه القدرة على تحقيق السعادة لمختلف الشعوب. فالإسلام دين منفتح على كل الأعراق والجنسيات، بعكس اليهودية التي أغلقها اليهود وقصروها على أنفسهم.

خامسا: ارتكزت القراءة الاستشراقية والعلمانية لحدث الهجرة على منظور دنيوي مادي نفعي، تظاهر بالموضوعية، وادعى المنهجية، وكانت المحصلة أن جعل الحدث صراعا سياسيا وحربيا، ونأى تماما عن الأبعاد الروحية، والتوجيه الرباني، والهدي النبوي.

سادسا: من نتائج هجرة المسلمين إلى الغرب في عصرنا الحاضر أنها سبب في اشتداد ظاهرة الإسلاموفوبيا، وصعود اليمين المسيحي، بكل طروحاته المرتكزة على الإرث الاستعماري والكنسي والصليبي الغربي، وهو ما يسقط شعارات التسامح والتعايش التي يتغنى بها الغرب، ويجعل طرحنا نحن المسلمين النابع من تراثنا، له المصداقية العالية، إذا أحسن المسلمون تقديمه إلى العالم.

المصادر والمراجع

أولا: الكتب العربية:

- - الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، آنا ماري شيميل، ترجمة: محمد إسماعيل السيد، رضا حامد قطب، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا) - بغداد، ٢٠٠٦م.
- أسباب نزول القرآن، أبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، ت ٤٦٨هـ، تحقيق: كمال بسوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- الإسلام في أوروبا، التنوّع والهوية والتأثير، تحرير: عزيز العظمة وإيفي فوكاس، ترجمة وتقديم أحمد الشيمي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط.١، ٢٠١١م.
- الإسلام في الحبشة، يوسف أحمد، منشورات مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٤م.
- الإسلام والإعلاموفوبيا: الإعلام الغربي والإسلام: تشويه وتخويف، د. المحجوب بن سعيد، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٠م.
- الأشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية، الإمام جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،

١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

- الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله النعيم، نشرة المعهد العالي للفكر الإسلامي ١٩٩٧م.
- الاستشراق اليهودي: رؤية موضوعية، د. محمد عبد الرحيم الزيني، دار اليقين للنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ط١، ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.
- أصالة الثقافات ودورها في التفاهم الدولي، (مطبوعات اليونسكو) مجموعة كتّاب، ترجمة:حافظ الجمالي، دار الفكر، العربي، القاهرة، ١٩٦٣م.
- أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، د. التيجاني عبد القادر حامد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ١٤المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، ١٤٠١هـ، ١٩٨١م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجنكي الشنقيطي، دار الفكر، بيروت، ط١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
- أطلس الحضارة الإسلامية، د. إسماعيل راجي الفاروقي، د. لوس لمياء الفاروقي، ترجمة: د.عبد الواحد لؤلؤة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، واشنطن، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٩٩٩م.
- الاكتفا في مغازي المصطفى والثلاثة الخلفا»، للمؤرخ: أبي الربيع سليمان بن موسى الكلاعي الأندلسي، تحقيق: د. أحمد غنيم، دار

الاتحـاد العـربي للطباعـة والنـشر، القاهـرة، ط١، ١٩٧٩م.
- البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار عالم الكتب، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- الإنسان العربي والتاريخ، أنور الرفاعي، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١م.
- بدائع الصنائع، أبو بكر بن مسعود الكاساني الحنفي، تحقيق: علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت،١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.
- تأصيل فقه الموازنات، لعبدالله يحيى الكمالي، ط ١، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.
- تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، محمد بن جرير الطبري أبو جعفر، تحقيق: أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية، بيروت، د ت.
- تاج العروس من جواهر القاموس، السيد محمد مرتضى بن حسن الزبيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت.
- تاريخ التأريخ: اتجاهات،، مدارس، مناهج، وجيه كوثراني، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، قطر، ط٢، ٢٠١٣م.
- تاريخ العلم والإنسية الجديدة، جورج سارتون، ترجمة: إسماعيل مظهر، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة- نيويورك، ط١، ١٩٦١م.

- التاريخ من شتى جوانبه: مطالعات في تاريخ الغرب، ستيفن أوزمنت، فرانك تيرنر، ترجمة: د. أحمد حمدي محموداً سلسلة الألف كتاب الثاني، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٣م.
- تراث الإسلام، جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث، ترجمة: د.محمد زهير السمهوري، د. حسين مؤنس، د. إحسان صدقي العمد، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مايو ١٩٩٨م.
- التربية الوطنية (طبيعتها، فلسفتها، أهدافها، برامجها)، أبوالفتوح: رضوان، جامعة الدول
- العربية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٠م.
- الترغيب والترهيب، الإمام الحافظ عبد العظيم بن عبد القوى المنذري، تصحيح الألباني،: المكتب الإسلامي، بيروت، ط ١٤٠٧،٦هـ، ١٩٨٧م.
- تقرير الهجرة الدولية لعام ٢٠١٥م: الهجرة والنزوح والتنمية في منطقة عربية متغيرة، منشورات الأمم المتحدة والمنظمة الدولية للهجرة، ٢٠١٥م.
- تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر، الرياض، د ت.
- تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (تفسير ابن كثير)، دار طيبة للنشر، الرياض، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م.

- تفسير المنار، للأستاذ الشيخ محمد عبده، تأليف الشيخ محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري(تفسير الطبري)، دار المعارف، القاهرة، د ت.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، عبد الرحمن بن شهاب الدين زين الدين أبو الفرج ابن رجب الحنبلي، المحقق: شعيب الأرناؤوط، وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
- الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، (تفسير القرطبي)، دار الفكر، الرياض، د ت.
- الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين، مقبل بن هادي الوداعي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، دت.
- حاشية السندي على ابن ماجه، أبو الحسن الحنفي الشهير بالسندي، دار الجيل، بيروت، دت.
- الحضارة ومضامينها، بروس مازليش، ترجمة: د. عبد النور خراقي، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ٢٠١٤م.
- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية العربية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، د. سعد زغلول عبد الحميد، د. أحمد مختار العبادي، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

- دراسات في حضارة الإسلام، هاملتون جب، ترجمة: د. إحسان عباس، د. محمد يوسف نجم، د. محمود زايد، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.
- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر، تحقيق: عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٨ – ١٩٨٨.
- رؤية جديدة لمصر ١٩١٩ – ١٩٥٢م، تحرير: آرثر جولدت شميدت، إيمي ج. جونسن، باراك أ. سالموني، ترجمة: عايدة الباجوري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠١٣م.
- الرحيق المختوم: بحث في السيرة النبوية، صفي الرحمن المباركفوري، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م
- رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث، د. محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٧م
- زاد المعاد، الإمام شمس الدين أبي عبد الله ابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.
- سبل السلام شرح بلوغ المرام من جمع أدلة الأحكام، للإمام محمد بن إسماعيل الأمير اليمني الصنعاني، دار الكتاب العلمية، بيروت، د ت.
- السلطة والمعارضة في الإسلام: بحث في الإشكالية الفكرية

والاجتماعية، زهير هواري، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
- السياسة الشرعية، عبد الوهاب خلاف، دار ابن حزم، بيروت، د ت.
- السياسة الشرعية في ضوء نصوص الشريعة ومقاصدها، يوسف القرضاوي، ط٢، ١٤١٦هـ، ٢٠٠٥م.
- سير أعلام النبلاء، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): شخصيته وعصره، د. علي محمد محمد الصلابي، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
- السيرة النبوية، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، تحقيق:مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، د ت.
- السيرة النبوية(لابن هشام)، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، د ت،.
- السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي محمد الصلابي، دار الهدى المحمدي، القاهرة، ط١، ١٤٣٤هـ، ٢٠١٣م.
- شرح شمائل النبي (صلى الله عليه وسلم)، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، شرحها: عبد الرزاق البدر، مكتبة الإمام

الذهبـي، الكويـت، ط١، ١٤٣٥هـ، ٢٠١٤م.
- شرح النـووي عـلى صحيـح مسـلم، يحيـي بـن شرف النـووي، دار الخبر للنـشر والتوزيـع، المملكة العربية السـعودية، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
- الشـيخ الرئيـس: رجـب طيـب أردوغـان، مـؤذن إسـطنبول ومحطـم الصنـم الأتاتوركـي، شريـف تغيـان، دار الكتـاب العـربي، دمشـق- القاهـرة، ط١، ٢٠١١م.
- صحيـح البخـاري، محمـد بـن إسـماعيل البخـاري، دار ابـن كثـير، بـيروت- دمشـق، ط١، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
- صحيـح السـيرة النبويـة، للحافـظ ابـن كثـير، تحقيـق: محمـد نـاصر الديـن الألبـاني، المكتبـة الإسـلامية، عـمّان، الأردن- مكتبـة المعـارف، الريـاض، ط١، ١٤١٢هـ.
- صحيـح مسـلم، للإمـام الحافـظ أبي الحسـين مسـلم بـن الحجـاج القشـيري النيسـابوري، عنايـة وترتيـب: أبـو قتيبـة نظـر محمـد الفاريـابي، دار طيبـة للنـشر والتوزيـع، الريـاض، ١٤٢٦هـ.
- صحيـح النسـائي، أحمـد بـن شـعيب بـن عـلي النسـائي أبـو عبـد الرحمـن، تحقيـق: محمـد نـاصر الديـن الألبـاني، مكتبـة المعـارف للنـشر والتوزيـع، الريـاض، ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.
- صناعـة الفتـوى وفقـه الأقليـات، عبـد الله بـن بيـه، المركـز العالمـي للوسـطية، الكويـت، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.
- ضلـع الإنسـانية الأعـوج: فصـول في تاريـخ الأفـكار، تحريـر: هنـري

هاردي، ترجمة: محمد زاهي المغيربي، ونجيب الحصادي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٣م.

- ظاهرة العولمة، رؤية نقدية، د. بركات محمد مراد، منشورات دار كتب عربية، ٢٠٠١م.
- العرب في العصر الجاهلي، د. ديزيره سقال، دار الصداقة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- العصر الجاهلي، د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢٢، د ت.
- عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين، أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الوفاء، المنصورة، مصر، سنة النشر: ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.
- علم التاريخ، المستشرق كب(جب)، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة: لجنة الترجمة: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨١م.
- غريب الحديث، إبراهيم بن إسحاق الحربي أبو إسحاق، تحقيق: سليمان بن إبراهيم بن محمد العايد، نشر جامعة أم القرى، ١٤٠٥ - ١٩٨٥.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، محمد بن علي بن محمد الشوكاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٤م.

- فجر الإسلام: بحث عن الحياة العقلية في صدر الإسلام إلى آخر الدولة الأموية، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١٠، ١٩٦٩م.
- فقه السيرة، د. محمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر المعاصر- بيروت، دار الفكر- دمشق، ط١٠، ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
- فلسفة العلوم: قراءة عربية، د. ماهر عبد القادر محمد علي، دار أورينتال للنشر، الإسكندرية، ط١، ٢٠٠٦م.
- فهم الفهم: مدخل إلى الهرمنيوطيقا: نظرية التأويل من أفلاطون إلى غادامر، د. عادل مصطفى، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.
- في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، أبو الريحان البيروني، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٣٧٧هـ، ١٩٥٨م
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٣٢، ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٣م.
- في المعرفة التاريخية، أرنست كاسيرد، ترجمة: أحمد حمدي محمود، سلسلة الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٧م.
- قاعدة المشقة تجلب التيسير: دراسة نظرية تأصيلية تطبيقية، د. يعقوب بن عبد الوهاب باجسين، مكتبة الرشد، الرياض، ط٢،

١٤٢٤هـ.

- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ٢٠٠٥م.
- قراءات في فلسفة العلوم، تحرير: باروخ برودي، ترجمة: نجيب الحصادي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، د ت.
- قريش من القبيلة إلى الدولة المركزية، خليل عبد الكريم، سينا للنشر - القاهرة، الانتشار العربي-بيروت، ط٢، ١٩٩٧م.
- الكامل في التاريخ لابن الأثير، علي بن محمد بن محمد ابن الأثير الجزري عز الدين أبو الحسن، تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
- لسان العرب، ابن منظور، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، د ت.
- المبسوط، للإمام شمس الدين بن أحمد السرخسي، دار المعرفة، بيروت، د ت.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.
- المحكم والمحيط الأعظم، أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي، المعروف بابن سيده، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت.
- محمد رسول الله: منهج ورسالة، بحث وتحقيق، محمد الصادق

عرجـون، دار القلـم، دمشـق، ط٢، ١٤١٥هــ، ١٩٩٥م.
- محمـد في المدينـة، مونتجومـري وات، تعريـب: شـعبان بـركات، منشـورات المكتبـة العصريـة، بـيروت، د ت.
- مختـصر سـيرة الرسـول (صـلى الله عليـه وسـلم)، محمـد بـن عبـد الوهـاب، نـشر: وزارة الشؤون الإسـلامية والأوقـاف، المملكـة العربيـة السـعودية، الريـاض، ١٤١٨هــ.
- مرقـاة المفاتيـح شرح مشـكاة المصابيـح، عـلي بـن سـلطان محمـد القـاري، دار الفكـر، بـيروت، ١٤٢٢هــ / ٢٠٠٢م.
- المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، صطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١ هـ، ١٩٩٠.
- مسند الإمـام أحمـد بـن حنبـل، أحمـد بـن حنبـل أبـو عبـدالله الشـيباني، مؤسسـة قرطبـة، القاهـرة، د ت
- مشـكلة الحـرب والسـلام، كتـاب جماعـي، معهـد الفلسـفة وأكاديميـة العلـوم- موسـكو، ترجمـة: شـوقي جـلال، وسـعد رحمـي، موسـكو، دار الثقافـة الجديـدة، د ت.
- معـالم التنزيـل، الحسـين بـن مسـعود البغـوي (تفسـير البغـوي)، تحقيـق: محمـد عبـد الله العمـر، عثـمان جمعـة، شـليمان مسـلم الحـرش، دار طيبـة للنـشر، الريـاض، د ت.
- معجـم السـيميائيات، فيصـل الأحمـر، الـدار العربيـة للعلـوم نـاشرون،

بـيروت، ومنشـورات الاختـلاف، الجزائـر، ط١، ٢٠١٠م.
- المقدمـة، عبـد الرحمـن بـن خلـدون، تحقيـق: عبـد السـلام الشـدادي، نـشر: خزانـة ابـن خلـدون، بيـت العلـوم والفنـون، الـدار البيضـاء، ط١، ٢٠٠١٥م.
- مقدمـة في التاريـخ الآخـر: نحـو قـراءة جديـدة للروايـة الإسـلامية، د. سـليمان البشـير، حقـوق الطبـع محفوظـة للمؤلـف، القـدس،١٩٨٤م.
- المعجـم الوسـيط، مجمـع اللغـة العربيـة بالقاهـرة، مكتبـة الـشروق الدوليـة، ط٤، ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م
- المعرفـة التاريخيـة، ميشـال فوكـو، ترجمـة: سـالم يفـوت، المركـز الثقـافي العـربي، بـيروت، الـدار البيضـاء، ط٢، ١٩٨٧م.
- المطالـب العاليـة بزوائـد المسـانيد الثمانيـة، أحمـد بـن عـلي بـن حجـر العسـقلاني أبـو الفضـل شـهاب الديـن، تحقيـق: سـعد بـن نـاصر بـن عبـد العزيـز الشـثري وآخـرون، دار العاصمـة، دار الغيـث، الرياض،١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- مناهـج المفسريـن، د. مسـاعد مسـلم آل جعفـر، د.محـي هـلال السرحـان، دار المعرفـة، الريـاض، ط١، ١٩٨٠م.
- مـن الحداثـة إلى العولمـة، ج. تيمونـز روبيرتـس، و إيمـي هايـت، ترجمـة: سـمر الشيشـكلي، سلسـلة عـالم المعرفـة، الكويـت، ٢٠٠٤م.
- المنهـاج شرح صحيـح مسـلم بـن الحجـاج، بـو زكريـا محيـي الديـن يحيـى بـن شرف النـووي، بيـت الأفـكار الدوليـة، الريـاض، د ت.

- المنهج الحركي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء، ط٦، ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
- المهذب في اختصار السنن الكبير، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر شمس الدين الذهبي، المحقق: ياسر بن إبراهيم أبو تمام، دار الوطن، الرياض، ١٤٢٢ - ٢٠٠١م.
- المغول(التتار) بين الانتشار والانكسار، د. علي محمد الصلابي، مؤسسة الأندلس الجديدة، القاهرة، ط١، ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م.
- الموسوعة العربية العالمية: مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٩٦م.
- موسوعة العلوم الاجتماعية، تحرير: ميشيل مان، ترجمة: عادل الهواري، سعد مصلوح، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م.
- نظام الحكم في الشريعة والتاريخ الإسلامي: الكتاب الأول: الحياة الدستورية، ظافر القاسمي، دار النفائس، د ت .
- الهجرة، كيف تؤثر في عالمنا؟، بول كولير، ترجمة: مصطفى ناصر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، أغسطس ٢٠١٦م.
- الهجرة النبوية ودورها في بناء المجتمع المسلم: دراسة تحليلية في ضوء الكتاب والسنة، د.سعد المرصفي، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.
- اليمين واليسار في الإسلام، أحمد عباس صالح، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٣م.

ثانيا: الدوريات والمجلات والمؤتمرات:

- أمة النخلتين: الهوية العربية ظاهرة سياقية، د.محمد المختار الشنقيطي، مجلة تبين للدراسات الفكرية والثقافية، المركز العربي للأبحاث والسياسات، الدوحة، قطر، العدد ٢٤، ربيع ٢٠١٨م
- التاريخ الجديد عند فرناند برودويل والآفاق المعرفية، د. ماهر اختيار، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد ٤٣،٢٠١٥م.
- دور كليات التربية في تأصيل الولاء الوطني، د.عبدالله عبدالتواب، مجلة دراسات تربوية، القاهرة، ١٩٩٣ م.
- ظاهرة انتشار الإسلام في الغرب حقائق وهواجس، محمود الأحمد، مجلة الوعي، بيروت، العدد ٢٨٧-٢٨٨، السنة ٢٥، ذو الحجة ١٤٣١هـ، محرم ١٤٣٢هـ، الموافق تشرين الثاني وكانون الأول ٢٠١٠م.
- لماذا الاستغراب؟ محمود حيدر، مجلة علم الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، العدد الأول، خريف ٢٠١٥م.
- المستشرقون والسنة النبوية، بحث ضمن مناهج المستشرقين، د.عماد الدين خليل، المنظمة العربية للعلوم والثقافة، تونس، ١٩٨٥.
- مفاهيم نظرية في الهجرة السكانية: دراسة تحليلية مقارنة، هاشم نعمة فياض، مجلة عمران، المركز العربي للأبحاث والسياسات، الدوحة، قطر، العدد ٢٦، خريف ٢٠١٨م.
- مفهوم اللغة ومفهوم الهوية ومظاهر التفاعل، محمد نافع العشيري،

مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، إبريل ٢٠١٥م.
- منهج فقه الموازنات في الشرع الإسلامي (دراسة أصولية)، د. حسن سالم الدوسي، مجلة الشريعة والدراسات الإيسلامية، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، ١٤٠١هـ، ٢٠٠١م
- نحو توطين المنهجية العلمية في العالم الإسلامي.. رؤية فلسفية، د. يمنى طريف الخولي، مجلة عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مجلد (٤٣)، ٢٠١٤م.
- الهجرة وأثرها في انتشار الإسلام بإفريقيا (الحبشة نموذجا)، عبد الله خضير أحمد، بحث منشور في مجلة جامعة Ondokuz Mayıs University, Turkey، مجلد (٣٨)، مايو ٢٠١٥م.

ثالثا: المواقع الإلكترونية:

- إشكالية التوحيد عند اليهود، عامر هادي الذرب، موقع كتابات ٢٥/ ٧/ ٢٠١٢، 25/07/https://kitabat.com/2012
- » الطلقاء « ثابت في السنة. على موقع الإسلام سؤال وجواب، https://islamqa.info/ar/answers/290672/A1
- حب الوطن.. رؤية إيضاحية شرعية، ٢٣ / ٧ / ٢٠١٧م، رقم الفتوى: ٣٤٦٨١٩، موقع إسلام ويب. https://fatwa.islamweb.net/ar/fatwa/346819
- شروط اعتبار الدار دار كفر أو إسلام، فتوى، موقع إسلام ويب،

٢٥ رمضـان ١٤٣٤ هـ- ١-٨-٢٠١٣م. https://fatwa.islamweb.net/ar/fatwa/215566

- صعـود اليمين المتطـرف الاسـباب والتداعيات: دراسـة تحليليـة، ريناس بنـافي، لمركـز الديمقراطـي العربي، برلـين، ألمانيـا، ١٢/ ٥/ ٢٠١٧م.
- https://democraticac.de/?p=46400
- مـا حكـم الإقامـة في بـلاد الكفـار؟، موقـع طريـق الإسـلام، فتـاوى الشـيخ ابـن عثيمـين، https://ar.islamway.net/fatwa
- معركـة الإسـلام المقبلـة.. مسـلمون وسـط آسـيا، د. ليـلى حمـدان – ٢٨ أغسـطس، ٢٠١٧م، موقـع تبيـان لصنـع الوعـي، https://tipyan.com/battle-of-islam-is-coming-muslims-of-central-asia
- مفهـوم الوطنيـة والمواطنـة في الفكـر الإسـلامي المعـاصر، إسـماعيل نقـاز، مجلـة الحـوار المتوسـطي، المجلـد ٥، العـدد١، ص٢٤١، البوابـة الجزائريـة للبحـوث والدراسـات، https://www.asjp.cerist.dz/en/article/33093
- مناهـج كتابـة السـيرة النبويـة، عبـد المنعـم منيـب، موقـع طريـق الإسـلام، ١٢/ ٤/ ٢٠١٥م، http://iswy.co/e14tqj

رابعا: رسائل جامعية:

- خصائـص الأسـلوب في صحيـح البخـاري، مصطفـى عطيـة جمعـة، رسـالة ماجسـتير غـير منشـورة، كليـة دار العلـوم، جامعـة القاهـرة، ٢٠٠٠م.

خامسا: مراجع ومواقع باللغة الإنجليزية:

- -https://dictionary.cambridge.org/dictionary/english/migration
- https://www.diffen.com/difference/Immigration_vs_Migration
- Islamophobia and its origins, A study among Dutch youth, Henk Dekker & Jolanda van der Noll.Multidisciplinary Approaches. Workshop: The Role of Emotions in Interethnic Relationships of Muslims: Feminism and Masculinities Friday, 15th May 2009.
- The culture of postmodernism, Ihab Hassan. Theory culture and society , Vol 2 , No 3 . 1985.
- PRINCIPLES AND GUIDELINES, SUPPORTED BY PRACTICAL GUIDANCE, ON THE HUMAN RIGHTS PROTECTION OF MIGRANTS IN VULNERABLE SITUATIONS, United Nations, Human Rights, Office of The High Commissioner, March 2018

عن المؤلف

الاسم : أ. د. مصطفى عطية جمعة

أستاذ الأدب العربي والبلاغة والنقد الأدبي،

والإسلاميات والحضارة، وقاص وروائي ومسرحي.

الأعمال المنشورة:

أولا: الدراسات الأدبية والنقدية :

١. دلالة الزمن في السرد الروائي، نقد، جائزة النقد الأدبي، الشارقة، ٢٠٠١.
٢. أشكال السرد في القرن الرابع الهجري، نقد، مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٦
٣. ما بعد الحداثة في الرواية العربية الجديدة (الذات، الوطن، الهوية)، مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠١٠، وكالة

الصحافة العربية، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.

٤. الرؤية والأداة: في جماليات المكان والزمان والتأويل، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، وصدرت طبعته الأولى بعنوان اللحمة والسداة، نقد أدبي، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

٥. شعرية الفضاء الإلكتروني في ضوء ما بعد الحداثة، نقد أدبي، دار شمس، القاهرة، ٢٠١٦.

٦. الظلال والأصداء، نقد أدبي، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م

٧. الوعي والسرد، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٦م.

٨. السرد في التراث العربي (رؤية معرفية جمالية)، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، ٢٠١٧م، ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.

٩. القرن المحلق (الرواية الإفريقية وأدب ما بعد الاستعمار)، منشورات جائزة الطيب صالح العالمية، الخرطوم، ٢٠١٧م، وكالة الصحافة العربية، القاهرة، (ط٢)، ٢٠٢٣.

١٠. عضو فريق التأليف في كتاب: التأريخ واشتغال الذاكرة في الرواية العربية، ببحث عنوانه: تمثيل التاريخ العربي وإشكالات التأريخ في الرواية التاريخية، منشورات كتارا للرواية العربية، قطر، العام ٢٠١٩م.

١١. التحيز في المسرح العربي: قراءة في الجذور والنشأة والنصوص

والتجارب، في كتاب محكم جماعي بالاشتراك: تلغيم الفن: المسرح بوصفه ساحة للتحيزات، منشورات دار نور حوران، دمشق، سورية، إبريل ٢٠١٩م.
١٢. الفصحى والعامية والإبداع الشعبي، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.
١٣. أصداء ما بعد الحداثة: في الشعرية والفن والتاريخ، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.
١٤. شرنقة التحيز الفكري: أنماط وتجليات ودراسات، دار شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٩م.
١٥. البنية والأسلوب: دراسات نقدية، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠
١٦. المعجمية العربية: قراءة حضارية في ضوء الأنثروبوجيا الثقافية. دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.
١٧. الرواية العربية: قضايا الإنسان والهوية: إشكالية الريف والمدينة نموذجا، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.
١٨. المحكي والحكّاء: في خارطة الرواية العربية المعاصرة، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.
١٩. أنغامُ الراوي: في خارطة السرد العربي المعاصر، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.
٢٠. العقرب والبندول: دراسات في النقد الجمالي والثقافي

والسوسيولوجي، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٥.

٢١. سَردُ الصُّورة: دراسات في السينما والدراما والتأويل، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٥.

٢٢. نهر وأمواج ورمال: هموم الثقافة والنقد والغربة، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٥.

ثانيا: الإسلاميات والحضارة:

١. هيكل سليمان (المسجد الأقصى وأكذوبة الهيكل)، ط١، دار الفاروق للنشر، القاهرة، ٢٠٠٨م. ووكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ط٢، ٢٠٢٣.

٢. فلسفة الرحمة في شخصية الرسول (ص)، ط٢، وكالة الصحافة العربية ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣، وصدرت الطبعة الأولى بعنوان: الرحمة المهداة، خلق الرحمة في شخصية الرسول (ص)، إسلاميات، مركز الإعلام العربي، القاهرة، ٢٠١١ م،

٣. الحوار في السيرة النبوية، إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٥م

٤. الإسلام والتنمية المستدامة، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠١٦م.

٥. منهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إدارة الأزمات، إسلاميات، دار شمس للنشر والإعلام، القاهرة، ٢٠١٨م.

٦. وسطية الإسلام في حياتنا الفكرية: قضايا التجديد والثقافة والمعاصرة،

إسلاميات، دار شمس للنشر والمعلومات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٧. الحكم الراشد: رؤية إسلامية حضارية، دار شمس للنشر والمعلومات، إسلاميات، القاهرة، ٢٠٢٠.

٨. صورة الرسول (صلى الله عليه وسلم) في الوجدان الغربي: أبعاد التجني، براهين التفنيد، الكتاب الفائز بالجائزة الأولى في المسابقة الدولية بمنصة أريد البحثية الدولية ARID Platform، ماليزيا، ديسمبر ٢٠٢٠.

٩. المثاقفة والتواصل: حوار الذات وحوار الحضارات، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

١٠. الطفولة والهوية والتغريب: إشكاليات النسوية والجندرية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٢.

١١. أسئلة الحضارة والنهضة: إضاءة على الفكر التنويري والحداثة الإسلامية، وكالة الصحافة العربية، ناشرون، القاهرة، ٢٠٢٣.

١٢. فقه الهجرة: دراسة تأصيلية ضد طروحات العَلمانية والإسلاموفوبيا، دار متون المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

ثالثا: الإبداعات الأدبية:

١. ٣٥) وجوه للحياة، مجموعة قصصية، نصوص ٩٠، القاهرة، ١٩٩٧م

٢. نثيرات الذاكرة، الجائزة الأولى في الرواية، دار سعاد الصباح، القاهرة / الكويت، ١٩٩٩م.

٣. شرنقة الحلم الأصفر، رواية، جائزة الرواية عن نادي القصة،

بالقاهـرة، ٢٠٠٢، نـشر: مركـز الحضـارة العربيـة،٢٠٠٣م.

٤. طفـح القيـح، مجموعـة قصصيـة، مركـز الحضـارة العربيـة، القاهـرة، ٢٠٠٥م.

٥. أمطار رمادية، مسرحية، مركز الحضارة العربية بالقاهرة، ٢٠٠٧م.

٦. نتوءات قوس قزح، رواية، سندباد للنشر، القاهرة، ٢٠١٠.

٧. مقيم شعائر النظام، مسرحيات، دار الأدهم للنشر، القاهرة، ٢٠١٢م.

٨. قطـر النـدى، مجموعـة قصصيـة، دار شـمس للنـشر والمعلومـات، القاهـرة، ٢٠١٣م.

٩. عـلى متـن محطـة فضائيـة، روايـة للأطفـال، منشـورات مكتـب التربيـة لـدول الخليـج العـربي، الريـاض، ٢٠١٢م.

١٠. سـفينة العطـش، مسرحيـة للأطفـال، منشـورات مكتـب التربيـة لـدول الخليـج العـربي، الريـاض، ٢٠١٢م.

١١. أصدقـاء في عـالم الفضـاء، روايـة للفتيـان، وكالـة الصحافـة العربيـة، نـاشرون، القاهـرة، ٢٠٢٣، ط٢، وصدرت الطبعـة الأولى بعنوان: رواد فضـاء الغـد، أطفـال، منتـدى الأدب الإسـلامي، الكويـت، ٢٠١٤م.

١٢. لـكل جـواب قصـة، مسرحيـات للأطفـال، منتـدى الأدب الإسـلامي، الكويـت، ٢٠١٤م.

١٣. سوق الكلام، مسرحيات، دار النسيم للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٧م.

١٤. حـدث مألـوف، قصـص قصـيرة جـدا، دار شـمس للطبـع والنـشر، القاهـرة، ٢٠٢٣.

١٥. جزيرة الفئران، مسرحيات للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

١٦. الحسن بن علي، رواية للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

١٧. البرتقالة في الزجاجة، مجموعة قصصية للأطفال واليافعين، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

١٨. صندوق الألعاب، مجموعة قصصية للأطفال، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٣.

١٩. الفقر مقتولا: قصة البروفيسور محمد يونس وحربه ضد الفقر في بلاده، قصة للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

٢٠. النسيم والهجير، رواية، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

٢١. رحيق الألم: قصة حياة «لي ميونغ باك» رئيس كوريا الجنوبية، رواية للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٢٤.

٢٢. المتسابقون للفردوس، مسرحيات للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

٢٣. كنتُ ملحدًا: سيرة العالم الأمريكي جيفري لانغ، قصة للفتيان، دار المثقف للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٢٤.

الفهرس

مقدمة ٥

الفصل الأول: الهجرة (الدلالات اللغوية بين الجاهلية والإسلام) ١٣

حول التأصيل الدلالي شعرا وقرآنا: ١٤

المبحث الأول: الهجرة (الجذور اللغوية في العربية والجاهلية).............١٧

الهجرة تأصيل الجذر والدلالة: ١٨

الهجرة في بادية العرب:...٢١

الهجرة القبلية، سبأ نموذجا: ٢٨

المبحث الثاني: دلالات الهجرة قرآنيا ٣٣

١) دلالة الملاذ إلى الله، والانطلاق في الأرض: ٣٤

٢) الدلالة العكسية: ٣٨

٣) الدلالة الانتقالية المكانية: ٤٣

٤) دلالة التمييز والمدح: ٤٧

٥) دلالة المكانة والعطاء: ٥٧

الفصل الثاني: الهجرة في السيرة العطرة ٦٧

منهجية قراءة السيرة والهجرة: ٦٨
المبحث الأول: الدعوة المكية ومقدمات الهجرة ٧٣
رحمة الرسول ولجاجة المشركين: ٧٤
الهجرة إلى الحبشة، الظروف والدروس: ٨١
الطائف والسعي لأرض جديدة: ٩٧
المبحث الثاني: الهجرة إلى المدينة وبناء المجتمع المسلم ١٠٩
الدعوة والهجرة والنفسية العربية: ١١٠
دعوة القبائل وحوار الحكمة: ١١٥
بيعتا العقبة وخطاب جديد: ١٢٦
هجرة الرسول إلى المدينة: ١٤٣
فتح مكة وإسلام أهلها: ١٥٣
التقويم الهجري: ١٦٠
الفصل الثالث: الهجرة في السنة النبوية المطهرة ١٦٥
النبوة: الأسوة والإرشاد والمفاهيم: ١٦٦
السنة وجوامع الكلم: ١٦٩
الهجرة تجارة مع الله: ١٧٢
منزلة الهجرة وحال المهاجر: ١٧٥
الهجرة جهاد وعبادة: ١٨٤

الهجرة ومكانة الأنصار:.. ١٩١
الفصل الرابع: الهجرة في الرؤية العلمانية والواقع المعاصر ١٩٧
المبحث الأول: الهجرة النبوية في الرؤية الاستشراقية والعلمانية.......... ٢٠١
الاستشراق والعلمانية والمعاصرة: ٢٠٢
الإرث الممتد في القراءة العلمانية الاستشراقية:.......................... ٢٠٧
غموض المصطلح وضبابية الفهم للهجرة: ٢١٨
دعوى التوطين والخؤولة: ٢٢٦
إثارة الخطاب القبلي والتعاطف مع اليهود:.......................... ٢٣٦
الادعاء بمظلومية الأنصار: ٢٤٢
المبحث الثاني: قضايا الهجرة في عالمنا اليوم ٢٥٧
منظور فقهي ٢٥٧
الهجرة إشكالية معاصرة: ٢٥٨
فقه المهجر والمهاجرين: ٢٦١
هجرة المسلمين إلى الغرب: ٢٦٨
أشكال الهجرة في الاجتهاد المعاصر: ٢٨٠
صعود الإسلام وظاهرة الإسلاموفوبيا: ٢٨٩
الانتماء والمواطنة في الغرب، رؤية إسلامية: ٢٩٧
خاتمة.. ٣١١

المصادر والمراجع ٣١٣
أولا: الكتب العربية: ٣١٣
ثانيا: الدوريات والمجلات والمؤتمرات: ٣٢٧
ثالثا: المواقع الإلكترونية: ٣٢٨
رابعا: رسائل جامعية: ٣٢٩
خامسا: مراجع ومواقع باللغة الإنجليزية: ٣٣٠
عن المؤلف ٣٣١
االفهرس ٣٣٨

فقه الهجرة

يناقش هذا الكتاب قضية الهجرة في التراث الإسلامي، تأصيلا وتعميقا لغويا وقرآنيا، وفي السنة والسيرة النبوية، ثم يرنو إلى الواقع المعاصر، مستعرضا طروحات الفكر العلماني والاستشراق الغربي في قراءته لحدث الهجرة النبوية. كما يتعرض للهجرة بوصفها ظاهرة إنسانية معاصرة، التي لم تعد مقتصرة على مجرد رحيل فئات وجماعات بشرية من مكان أو دولة إلى أخرى، وإنما باتت لها أبعادها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، ولها وتشابكاتها الفكرية، خاصة ما أحدثته حركات المهاجرين عامة، والمسلمين بشكل خاص في مهاجرهم بالمجتمعات الغربية؛ أوروبا وأمريكا واستراليا وغيرها، وما نتج عنها من إحياء العصبية العرقية، واليمين المتطرف، وظاهرة الإسلاموفوبيا.

9 789778 868159